رواية

مرافئ بلا فنارات

د. أروى يحيى عبدالرحمن الإرياني

2022

مرافئ بلا فنارات

(رواية)

د. أروي يحيى عبدالرحمن الإرياني

الموضوع: الروايات

العنوان: مرافئ بلا فنارات

عدد الصفحات: 217

التأليف: د. أروى يحيى عبدالرحمن الإرياني

قياس الصفحة: 14× 21سم

صورة الغلاف: للفنانة اليمنية سحر حسن اللوذعي

الطبعة الأولى

2022 م

جميع الحقوق محفوظة:

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع الحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

أنا وصديقات الطفولة

انتهت الندوة وحازت على الكثير من الإعجاب والتصفيق،،، المداخلات كانت كثيرة، وكنتُ أحاول أن أكون في مستوى كاتبة.. أجبت على الأسئلة بمهارة بدأت أتعلمها بحيث ترضي الجميع ممن مع الفكرة أو ضدها. خرجت من القاعة سعيدة ومتألمة من ناحية أخرى؛ فلا أحد من صديقاتي حضرن ولا أمي! لا يهم قررتُ أن أعيش اللحظة وابعد عني كل ما قد ينقص من فرحتي.

كانت المحاضرة بأحد قاعات كلية الآداب في جامعة صنعاء، لم تكن قاعة كبيرة، هي قاعة دراسية متوسطة الحجم، تراوح عدد الحاضرات ما يقارب العشرين ما بين طالبة مهتمة أو أستاذة. خرجت في نهاية الفعالية، وقفت في الشارع الرئيسي، الساعة تقترب من السادسة مساءً، أوقفتُ سيارة أجرة وتوجهت إلى منزلي، وبمجرد أن ذكرتُ للسائق عنواني، مدينة حدة، كأنه وجد بابا للنقاش فأخذ يسرد ليّ كيف كانت حدة قبل عشر سنوات وكيف أصبحت الآن، واستمر بالحديث بينما كنت أعيش أحداث الفعالية، ويبدو أنه سأل سؤال أو أكثر وعندما لم يحصل على رد فهم أني لا أتابع حديثه؛ ففتح راديو السيارة فانساب صوت القارئ بالآيات الكريمة التي تُبث قبل أذان المغرب.

أنا نادية عمر؛ يقال لي من الكثير أني أشبه الفنانة المصرية حنان ترك – ولكني ذات بشرة أكثر بيضاً ورثتها من أمي – فكنت افرح وأتابع أفلامها باهتمام زائد. كان أبي في منتصف العمر– يقارب الخامسة والخمسين– طويل القامة تكشف ملامحه

عن وسامة مازالت باقية وقد ورثها أخي سمير كاملة، أبي حنون وطيب، ولكنه قلق جدا خصوصا بكل ما يخصني. ولأنه مهندس لا يجد للأدب والقصص معنى؛ ولا يؤمن إلا بتلك الأعمال التي تتحول إلى عمارة أو منزل... استغرب عندما قررت أن ادخل كلية الآداب، فقد كان يتوقع أن اختار الحاسوب لأستفيد من معدلي العالي، ولكنه بلا شك فكر أن السبب أني مثل أغلب البنات اختار كلية سهلة يسهل عليّ تعليق الشهادة في زاوية مخفية من بيت المستقبل دون شعور بالذنب على الجهد الذي بذلته للحصول عليها ولم يعرف أن شغفي كان يصب بهذا التخصص، ولم يقدّر مثله مثل أغلبية الناس أن هذا المجال هو روح المجتمع وقلبه النابض هو المعبر عن همومه وأفراحه وقصصه التي يعيشها وتلك التي يحلم بها.

أمي سميرة امرأة جميلة وتصغر أبي بثلاث سنوات، ولكنها عصبية وسريعة الغضب وتفضل لغة الانتقاد معنا جميعاً أنا وأبي وأخوتي سمير ونادر وتخصني بأفضل أنواع الانتقادات لذا لم نكن صديقات ولم نكن نتحدث كثير مع بعضنا البعض، رغم حبي لها. أكملت أمي الثانوية وتزوجت وأنجبتني ثم أنجبت أخي سمير يليه نادر؛ لم تهتم أمي إلا بصديقاتها والمسلسلات وعمل الحلويات التي تشاركها في هذه الهواية أم صديقتي هناء.

أمي وأبي كان يزعجهم أفكاري التي ترجمتها إلى الآن في كتابين، يجدونها خطيرة ويعتبرونها دعوة للتمرد في مجتمع تعود الاستكانة والخضوع المطبوع بالقناعة الساذجة؛ رغم أني لم أكن أدعو لشيء يتنافى مع الأخلاق أنا فقط اتطرق لفكرة حرية أن تعيش المرأة حياتها بشكل طيب، تحلم، تتعلم، تخوض تجارب عمل، تفشل، تنجح وتعيش حياة بكل تنوعاتها. وتطرقت لحرية الاختيار، من حق المرأة ان تتخذ

قراراتها بنفسها وتتحمل نتائجها كيفما كانت، من حقها ان تختار الطريق الذي ترغب السير فيه.

أبدا! لا أحلم أن أصل مع والداي إلى اتفاق؛ فهم يرون أن كتاباتي تسد الأفق في طريق طالبي الزواج رغم أني اقترب من الاثنين والعشرين فقط من العمر، ولكني اعذرهم فصديقاتي المقربات تزوجن ولواحدة منهن طفل يخطو خطواته الأولى في الحياة والأخرى حامل.

تخرجت من كلية الآداب عام 2009م أي منذ عام، أحببت الكتابة حد الشغف وكتبت سطوري الأولى في سن المراهقة وعندما وقعت في يد أمي فزعت ومزقت الورقة قطعا صغيرة وزاد خوفها فبعثرتها في قمامات متعددة خوفا من أن تعود للتجمع! لم تراع هلعي ولم تُقدر أن تلك السطور هي عصارة تفكيري البكر... والمضحك أن سطوري كانت عن فراشة تُحدثُ الأزهار عن جمال الطيران.. ومنذ ذلك اليوم أصبح دفتري الوردي مخبئا في مكان مخفي.

صديقاتي... صديقات الطفولة والصبا ابتسام وهناء بنفس عمري تقريبا عشنا معاً طفولة تقليدية؛ ساعدنا على هذا التقارب صداقة الأمهات، مررنا على المراهقة بعشق أفلام الحب الرومانسية وأحببنا الأبطال والبطلات على حد سواء.

دخلنا أنا وصديقاتي معا نفس الكلية لم تعش أي منا قصة حب، ولم نتواجد بمكان يسمح لنا بذلك فكليتنا خاصة بالفتيات وكنا نعيش الحب بالأفلام –فقط– فربطناه بالممثلين وقصص الخيال الجميل.

وتخرجن هن بمعدل مقبول وبخُطاب منتظرين لتخرجهن على أحر من الجمر... وتخرجتُ أنا بامتياز وبرفض العريس الأول. وكنت أكثرهن هدوءً وحكمة وكنت المرشدة لهن في كل مشاكلهن بالمدرسة ومن ثم بالحياة؛ وكان لي أسلوبي الخاص في الحياة ولي أحلامي المختلفة عنهن؛ لم أقبل بأول خاطب وبررت تبريرات كثيرة، أغلبها تبريرات سخيفة، فلم أستطع أن أقول دعوني قليلا أسير بالدرب الذي أحلم بأنه سيوصلني إلى تلك الصورة اللامعة التي رسمتها لنفسي منذ أن قررت دخول كلية الآداب.

كنت أتخيل الحب وهج يضيء جوانب القلب فيشع حروف من نور تجد طريقها فوق سطور كتاب وتصل إلى كافة القلوب محملة بالبهجة ونبض الحياة، لذا تفاجأتُ عندما أخبرتني كلتا صديقاتي بفارق أسبوع فقط من التخرج أنهن في طريقهن للزواج التقليدي ولم يكن هناك مساحة لتعارف حقيقي بينهن وبين أزواجهن، وأخبرنني أنهن سعيدات أن يجدن الحياة التي يتمنينها منذ أن دخلن الكلية.

كانت حفلات زواجهن حفلات رائعة بكل المقاييس، الفستان، والكوشة، والترتيب، والأغاني. لم تذهب أي منهن إلى شهر عسل خارج اليمن، ولكن كلً منهن قضت مع زوجها أسبوعين في عدن. كانا سعيدات وكنت سعيدة لأجلهن.

صديقتي ابتسام تكبرنا بعام –رغم أننا كلنا بنفس الفصل الدراسي منذ البداية– كانت أطولنا ولها بنية عريضة قوية، لون بشرتها فاتح وعيناها ضيقتان تختفي إذا ابتسمت، كانت مرحة وهي الصفة التي اشتركنا بها جميعا واتصفنا بها خلال مرحلة المدرسة، ولكنها كانت أشجعنا وأكثرنا جرأة... كانت ومازالت مرحة وجميلة وتحب دائما أن تخلق الأحداث حتى تشد انتباهنا لحديثها؛ لم تحب المدرسة ولم تهتم للدراسة

وخاصة بالكلية؛ فساعدناها في تجاوز هذه المراحل بصعوبة. تزوجت من الشاب عبد الله مباشرة بعد التخرج وكان محاسبا بأحد المؤسسات، وأنجبت ابنها البكر مُحَمَّد.
أبوها وأمها يقاربان أبي وأمي في العمر ويعمل أبوها العم أحمد محاسبا في شركة كبيرة، وكانت أمها الخالة ليلي تُعرف بصرامتها، ولابتسام شقيق يكبرها اسمه نبيل يبلغ من العمر أربع وعشرين سنة، تخرج من كلية الحقوق ولم يجد عمل بعد لذا فهو دائم التذمر، يقضي وقته برفقة أصدقائه في جلسات التخزين اليومية. كما أن لديها شقيقتين توأم عمرهما أحد عشر سنة كلنا نحبهن ويعجبنا مرحهن وحيويتهن وخيالهن المبالغ فيه، وأخيرا شقيقها الصغير أمجد الذي كان يبلغ من العمر تسع سنوات.
هناء صديقتي الأخرى كانت أيضا جميلة الملامح ضعيفة البنية قليلا، تحب دائما أن تحكي نكت وتصنع مقالب –خاصة –أيام المدرسة، ودائما لديها الجديد لا أدري من أين! كانت تقاربني بالطول، عيناها عسلية مرحتان وبشرتها سمراء جميلة، ملامحها طفولية وكذلك تصرفاتها وأفكارها وخيالها، تزوجت أيضا بعد التخرج من نديم وهو شاب يعمل في شركة التكنولوجيا، وهي حاليا حامل، وكأن الحمل شكّل لها صدمة لشخصيتها الطفولية، فصارت عصبية مضطربة وكلنا نأمل أن تكون أعراض مؤقتة تنتهي بالولادة.
كان والد هناء العم جمال طبيب أطفال لديه عيادة معروفة بشكل جيد، وأمها الخالة هدى امرأة لطيفة أنيقة وكانت هناء مرتبطة بأمها كثيرا. لهناء شقيقان جهاد وحسام؛ جهاد أكبر منها يبلغ من العمر أربع وعشرين سنة، متزوج من سامية ابنة خالته ولديهما طفلة جميلة اسمها نادلين عمرها عامان، وحسام أصغر منها وهو بعمر أخي نادر تقريبا في الحادي عشر من العمر، وصديق مقرب له؛ ويدرسان في نفس المدرسة.

الحلم الدائم في خيالي

وصلت المنزل، ساكنا كالمعتاد، أبي مازال بالخارج ؛ أخي سمير الذي يبلغ من العمر عشرين عاما يدرس ويحيط نفسها بهالة من الأهمية فهو يدرس الهندسة ويسير في طريق والدي لذا يجب على الجميع مساعدته وتوفير الهدوء لدراسته، نادر أصغرنا كان في حجرته يلعب أحد ألعاب الحاسوب التي تلتهم الكثير من وقته، أمي تتابع إحدى حلقات مسلسل باهتمام زائد لم أحظ أنا به في حياتي، لم تسألني عن الندوة وليس ذلك إهمال منها، ولكنه رسالة لي أنها لا ترى ما أقوم به شيء جيد؛ وهذه الكتب التي تطلق عليها لقب "تحريضية" هي التي ستعطل مجرى الحياة الطبيعية والزواج والبيت والأطفال.

دخلتُ غرفتي وبدأت استرجع أحداث ندوتي الأولى لمناقشة روايتي الثانية، كل الحاضرات نساء لأن الندوة مقامة من قبل كلية البنات وأغلبهن طالبات يتابعن الندوة كأنها أحد المحاضرات لا أكثر، ولكن المداخلات كانت رائعة وتعبر عن الخوف من ملامسة جرح يمكن أن ينزف دون توقف. أغلب الحاضرات متشحات بالسواد لا تظهر إلا أعينهن التي تبرق في حيوية وتحفُز – ذلك فقط – ما بدا مؤشرا وحيدا عن عمرهن الفتي واستمتاعهن بما يسمعن! أنا واثنتان فقط كنا ملتزمات بحجاب دون النقاب.

حتى عميدة الكلية الدكتورة ابتهال التي كانت تشجعني دائما على الكتابة، كانت منقبة لم أتمكن من التعرف على وجهها إلا في أحد الحفلات قبل بضعة أشهر عندما انتبهت لصوتها المميز جداً والمعبر الوحيد عن شخصيتها من خلف النقاب. ألتفتُ

لأتعرف لأول مرة على أستاذتي فوجدت وجها جميلا جدا يشع بملامح طيبة محببة. أما هي فقد عرفتني بالطبع لأني لم أكن منقبة؛ فسلمت عليها بحرارة وضحكنا أن يكون اليوم هو يوم تعارفنا وجها لوجه، بينما نحن نعرف بعض منذ أكثر من أربع سنوات؛ وكانت برفقتها ابنتها نجوى التي كانت في عامها الأخير في نفس الكلية وقد عرفتها رغم أني لم أرها إلا بالنقاب، لأن لديها عينين واسعتين وحادة النظرات مكنتني من التعرف عليها من بين النساء اللاتي كن حول أستاذتي في الحفلة.

أغمضت عينيي وسرحت بحلمي الدائم لندواتي المستقبلية، حضور كبير متنوع، نساء، رجال، شباب وشابات، حلمي الدائم...حضور يمني وعربي وتسجيل تلفزيوني للندوة وأصداء وتحليلات غنية لكتبي تبدو ملهمة وتعطي لي جرعة من الثقة والاستمرار، حلم ليس إلا! ولكنه صورة حية في خيالي تنتظر أن تتحقق. أحلم بجمهور يقرأ، يفهم، يناقش، ولا يكتفي بقراءة العنوان كما حدث في كتابي الأول الذي سميته "الرجل القصير" وسرعان ما ظهرت مقالات هنا وهناك بالصحف المحلية تنتقد كتابي لأنه يسخر من الرجال القصار، رغم أني لم أصف بطل روايتي بالقصر، ولكنه كان قصير النظر والعقل.. العنوان فقط هو ما تم قراءته! ولكن المحتوى ظل دفين دفتي الكتاب فقليل من يقرأ، لم تصل فكرتي ان بعض الرجال قصيري النظر، يجعلهم يظلموا غيرهم لأنهم لا ينظرون لأحلام وطموحات الأخرين من حولهم، فقط ينظرون لما هو موجود في تفكيرهم ومعتقداتهم وما يناسبهم هم فقط وليس أصحاب الشأن.

كتابي الثاني الذي أنهيتُ ندوته اليوم كان بعنوان "السعي إلى الحياة"؛ وقد سألتني إحدى الحاضرات أن الحياة نعيشها ولا نسعى إليها فماذا تقصدين؟ فابتسمتُ

وأجبت نعم، كلنا نعيشها، ولكن قليلا مننا من يسعى إليها! فسكتت وهي تحاول ادعاء الفهم بهز رأسها وبرمشة رموشها المقيدة بالنقاب.

فكرت ماذا لو كان من سألني هذا السؤال أديب كبير في ندوة من تلك التي أحلم بها؛ هل كنتُ سأرد نفس الرد! أم كنتُ سأعترف وأقول له "ليس كلنا ينعم بالحياة؛ الكثير منا لم يعش وربما يموت قبل أن يعيش". ولو سألني ما هو تعريف العيش عندك؟! كنت سأقول ان نعيش حياة نريدها، تمنحنا الحنان والمودة والسعادة... ليس شرطا أن تكون السعادة في أشياء جديدة نشتريها ولا بسفرة رائعة ولا بأكلة لذيذة رغم أنها كلها سعادة، ولكن السعادة التي أعنيها هي ابتسامة رضا عن النفس أولا وعن الشريك عندما يأتي ثانيا.

قطع أحلامي رنين تلفوني السيار وكانت صديقتي هناء هي المتصلة، سألتني بسرعة عن الندوة واعتذرت عن عدم حضورها بنفس الوقت دون أن تتيح لي الفرصة لأشرح لها كيف كانت الندوة؛ وأكملت حديثها برجاء حار أن أمر عليها في منزلها حتى أؤكد لها هل غرفة نوم الطفل المنتظر جميلة أم لا؟ وعدتُها بذلك وكنت فعلا أحب أن أقوم بهذه المهمة فهي وصديقتي ابتسام يعتمدن على رأيي كثيرا ويقدرنه جدا، وأنا ابتهج لسعادتهن بحياتهن الجديدة.

صديقاتي يعتقدن أني ضد الزواج؛ وأني ضد سلطة الرجل؛ وأني أرغب أن أسير في طريقي قوية مستقلة يُخافُ مني وليس عليّ! فلا أصحح لهن اعتقادهن هذا، لأني لم أجرؤ بعد بالبوح لهن أن لي أحلامي برفيق يمسك قلبي قبل يدي ويعطيه الأمان...

رفيق يخاطبني كرفيقة درب وليس كزوجة فقط لا أرغب أن أقطع الطريق وحيدة لكن لا أخشى ذلك.

منذ بداية صداقتنا اعتادت صديقاتي أن يشاركنني أحلامهن وأخبارهن ومخاوفهن وأسباب دموعهن عندما يخلدن لأنفسهن ويجترون المخاوف من الغد وكنت أستمع لهن، وعندما يأتي دوري يطبق الصمت لوقت طويل؛ وبالأخير أقول لهن دائما وبلا ملل عن حلمي الصغير بأن أكون كاتبة روايات معروفة في بلدي، لا أدري كيف؟ هل نشر الروايات كافٍ؟ هل شراء الروايات من عدد محدود من القراء كافٍ؟ متى يمكن أن اعتبر نفسي كاتبة؟ هل الآن! لا أدري!؟.

تعودت منذ صغري عندما أخلد لنفسي أن أخرج دفتري الوردي من مخبأه وأبوح له – خوفا وقلقا – عن كل شيء، مشاعر وأحاسيس وترقب للآتي. وعندما كبرت ودخلت الكلية فاضت كل تلك المشاعر المخزنة إلى سطور وصفحات فكتاب؛ لم أعلم من أين أتيت بذلك الزخم من الحروف والأفكار، ولكني حاولت أن أتحدث نيابة عن فئات كثيرة في المجتمع، ظل هاجسي التوغل إلى كل شرائح المجتمع والكتابة عنهم وعن معاناتهم من خلال القصص، وبالطبع كنت أهتم بالمرأة أكثر.

صديقاتي ابتسام وهناء لبسن النقاب عندما دخلنا الكلية ولم افعل أنا ذلك! وقد بررن ذلك بأن الحجاب لا يخفي الوجه فقط، ولكنه يخفي كل المشاعر فلا يعرف المحيطون بك إن كنتِ في حالة حزن أو حالة فرح؛ لا تعبير يرتسم فقط عينان وأحيانا الرموش ليس إلا. ولكني أعرف من الحرب التي خضتها مع أبي وأمي أنهن فقط تجنبن الحرب، وأني خرجت من الحرب منتصرة بوجه مكشوف وجراح بالأعماق

مدفونة؛ لماذا يُعتبر وجهي عورة؟؟؟ كما قال لي أبي! ولماذا يُعتبر فتنة؟؟؟ كما جاملتني أمي!

لم يكن لدي عمل بعد، لذا ذهبت في اليوم التالي لمنزل صديقتي هناء، كانت مضطربة وقلقة، أشدتُ بجمال غرفة نوم الطفل وبالتزين الجميل الذي اشتغلت عليه هناء بنفسها، وبمساعدة زوجة شقيقها سامية التي كانت فنانة درست فنون جميلة فصقلت موهبتها. اقترب موعد ولادة صديقتي هناء فذهبت لزيارتها في بيت أهلها أنا وابتسام وابنها الصغير مُحَمَّد، جلسنا في حجرة هناء وقد بدت مرهقة أكثر، واعتبرت ابتسام نفسها خبيرة فشرحت لها الكثير من المعلومات عن الولادة ومصاعبها ومخاوفها، حتى تغير لون صديقتي هناء، فختمت ابتسام كلامها مبتسمة بإحراج " ولكنه ألم منسي سيزول وتجدين طفلتك بحضنك بإذن الله".

دخلت الخالة هدى (أم هناء) الغرفة تدعونا لمشاركتها القهوة وأكل الحلويات التي أعدتها بنفسها. كانت امرأة تقارب أمي عمرا وتشاركها بهواية صنع الحلويات، ولكنها كانت مختلفة عن أمي؛ فهي دائما مرحة ودائما تعتني بابنتها وتوليها حنان واهتمام كبيرين كانا يثيران غيرتي عندما كنت صغيرة، ولكني اعتدتُ على ذلك. كانت الخالة هدى خريجة كلية الآداب، ولكنها لم تستغل شهادتها ولم تعمل بها مطلقا. وعندما جلسنا في حجرة الجلوس نتناول الشاي والحلويات التي أعدتها الخالة هدى، انشغلت ابتسام وهناء مرة أخرى بأمور الضيف القادم والتفتت أم هناء نحوي وقد أشرقت عيناها ببهجة جميلة وسألتني بحماس:

- ما أخبار الرواية الجديدة التي أصدرتها، هل توفرت بالمكتبات أم ليس بعد؟

وأكملت مباشرة:

- لقد قرأتُ كتابك الأول؛ أجد بالفعل أن أفكارك صحيحة؛ وأن الرجال لا ينظرون للنساء إلا كوعاء للإنجاب وللخدمة فقط.

فرحتُ كثيرا بحديث أم صديقتي وتفاجأتُ أن لي قارئة ولم أعلم عنها! رددتُ عليها:

- أني أحاول أن أسبر أغوار النفس البشرية، أغوص في أعماقها علّني أجد مبررا لبعض التصرفات التي تؤذي الآخرين وخاصة النساء دون أي ندم أو شعور بالذنب.

تناقشنا وتحدثنا عن الكتابة وأخبرتني أنها تقرأ لكثيرا من الكُتاب عرب وتتابع صفحاتهم على الفيسبوك وتشارك بالتعليقات على الروايات التي تقرأها. هالني ما اكتشفت! لم يخطر ببالي أن أتابع كُتاب على الفيسبوك، وأن أشارك خارج عالمي الضيق باليمن ولم يكن لي صفحة فيسبوك أصلا. وأكملت أم صديقتي قائلة:

- هناك مسابقة عربية لقصص المؤلفين الشباب أُعلن عنها بأحد الصفحات، وأقترح أن تشاركي في هذه المسابقة بهدف متعة المشاركة واحتمال الفوز أيضا.

كان هذا يفوق دهشتي وتساءلت بيني وبين نفسي أي صدفة تلك التي جعلت أم صديقتي تفتح لي قلبها وتشاركني نشاطها وفي الأخير تقودني إلى فرصة قد تحقق بعضا من أحلامي التي قيدتُها وأبقيتُها ضمن الأحلام المستحيلة!! أعتقد أننا أعتدنا تخيل أن أحدا من جيل أمهاتنا لا يمكن أن تدعمنا في عملنا؛ لأنهن لم يمارسن عملا

خارج المنزل كما كنتُ أعتقد أن اهتمامهن محصور بمجالسهن التي يذهبن إليها عند الصديقات كل فترة وأخرى.

لا أذكر أني ودعتُ صديقاتي؛ ولا أذكر إلا أني عدتُ إلى غرفتي مشحونة بكم هائل من الخجل والفرحة والترقب! كيف غاب عن بالي هذا الطريق بينما صديقة أمي تتابعه وتعيش أجواءه بفرحة وهي بالواقع قارئة فقط وليست كاتبة مثلي أو مثلما أحب أن أصف نفسي.

استرجعت حديثي مع الخالة هدى – كما أنا معتادة على مناداتها منذ الصغر– فوجدت أني تعرفت على إنسانة جديدة لم تكن موجودة في شخصيتها الظاهرة أمام الآخرين... قارئة جيدة... متحدثة عالية المستوى ؛ يكفيني فرحا أنها قرأت كتابي الأول واستشهدت ببعض من جمله أثناء حديثنا! أنها القارئة التي أبحث عنها، ورغم أنها لم تعمل بشهادتها مطلقا، ولكنها كانت دائمة القراءة والمتابعة، فكونت لنفسها ثقافة جميلة.

ترى أي أحلام كانت للخالة هدى؟ هل تناستها؟ أم أنها مخفية ميتة في أعماق قلبها؟! هل يمكن أن يكون الإنسان سعيدا وداخل قلبه تموت الأحلام؟ بالتأكيد سيكون لي حديثا مطولا معها عما قريب.

فتحتُ جهازي وقد قررتُ أن استكشف عالم الفيسبوك، أذكر أننا عندما كنا في الثانوية أنشأنا حساب على الفيسبوك أنا وابتسام وهناء، ولكنها حسابات بأسماء وهمية وصور رمزية وعدد محدود من الصديقات... لذا لم أجد له فائدة.

قررت أن أنشأ هذا المرة الحساب باسمي " نادية عمر" ولكن لا! لا يمكن أن أضع صورتي فتركت مكان الصورة خاليا وببضع بيانات أصبح لي حساب على الفيسبوك... خالجني الخوف أو بمعنى أدق الرعب! كأني فتحت قلبي للملأ وكأن حجرتي وكل محتوياتها صارت مكشوفة! فزعت وأغلقت الجهاز وأنا أشعر ببرودة تجتاح جسمي! ترى هل أحذفه؟

تناسيت حسابي على الفيسبوك لأسابيع وانشغلت بأمور كثيرة... كنت أحاول أن احصل على عمل في جريدة يومية ولم أُوفق إلى الآن! ولم أقبل العمل كأستاذة لغة عربية بأحد المدارس الذي وفره لي أبي فقد أحسست أنه سيكون بداية القبول بما يبعدني عن حلمي وعن الكتابة.

كانت هناء تحدث ضجة كبيرة بموضوع ولادتها المرتقبة رغم انتقالها إلى منزل أهلها حتى تستقبل مولودتها تحت رعاية أمها، وهذا ما كان يشعر ابتسام بالتوتر لأنها ولدت في منزل أهل زوجها بحجة أن بيت أهلها كثير العدد ولن يتاح لها الراحة المطلوبة وكما يبدو لم تجد الراحة هناك أيضا لذا عادت بعد أسبوع إلى بيتها.

هاجر،، خالتي

كالمعتاد سمعت طرقات قوية على باب حجرتي ثم فتحت أمي الباب وأخبرتني بعصبية لا أدري لماذا! أننا سنذهب لزيارة جدتي وسنمر على "سوق الملح" – سوق شعبي مشهور– فلا أنسي ارتداء النقاب ثم خرجت. لم يزعجني ذلك البرنامج فأنا أحب زيارة جدتي وخالتي هاجر؛ وإن حز بنفسي أن أمي لم تسألني ما إذا كان وقتي يسمح بهذه الزيارة أم لا! ارتديت ثيابي ولبست عبايتي والنقاب وجريت على صوت أمي تستعجلني؛ لأن أخي مستعجل فهو من سيأخذنا إلى سوق الملح.

أخذنا أخي سمير إلى سوق الملح، وصلنا إلى موقف سيارات واسع، وخرجنا من السيارة وغادرنا أخي عائدا؛ وتوجهنا نحن إلى سوق الملح القريب من الموقف؛ وهو سوق شعبي تتراص دكاكينه المتلاصقة على جانبي الطريق الضيق بينها ولا تفترق إلا عند اللفات التي تؤدي إلى مزيد من الدكاكين، وتختص دكاكين كل زقاق ببيع بضاعة معينة؛ ورغم ضيق الشارع بين الدكاكين، كانت السيارات تجد طريقها وتزاحم البشر للوصول إلى الدكاكين التي تسلم لها البضائع المطلوبة.

كان سوق الملح مزدحما بمختلف أطياف المجتمع (رجال ونساء وأطفال) كما كان هناك عدد قليل من السواح الأجانب من النساء بملابسهن الملونة والصيفية ومن الرجال الذين يحملون كاميراتهم ويتنقلون ببهجة يصورون صور متنوعة، وكانا السواح يتسوقون الفضة والنحاس واللوحات والمجسمات اليمنية وغيرها مما يشتهر به السوق كأماكن صناعة الجنابي – الزي الرسمي للرجال في اليمن – والفضة وأسواق التوابل.

يرافق البعض مترجمون ويعتمد البعض على حصيلته الضعيفة من العربية والحصيلة الضعيفة من الإنجليزية لدى الباعة؛ والكل بالأخير مسرور وراضي.

وصلنا إلى بداية شارع النحاسيات والفضيات والسوق يضج بمختلف الأصوات، الباعة يصيحون بنداء للزبائن للدخول للمحلات ويصيحون لبعضهم البعض، والأطفال يركضون بعرباتهم الصغيرة يعرضون خدماتهم لحمل أغراض المتسوقين لقاء مبالغ زهيدة، وقد طلبنا من أحدهم هذه الخدمة. ومررنا إلى شارع الفضة والنحاس فاشترت أمي مزهريتين نحاسيتين ومبخرة؛ واشتريتُ أساور فضية مطعمة ببعض الأحجار الكريمة ولم أنس أن اشتري أيضا لصديقاتي ابتسام وهناء؛ ثم عرجنا على حارة البهارات والحبوب المتنوعة وطغت على الجو رائحة محببة مخلوطة بروائح البهارات والأعشاب وأيضا رائحة أعواد الند المشتعلة التي يضعها أصحاب المحلات داخل محلاتهم. أشترت أمي بعضا من البهارات والحبوب ووضعتهن على العربة، وعرجنا بعدها إلى حارة الزبيب واللوز اليمني الشهير – والولد الصغير يلحق بنا فرحا أنه حصل على عمل – أخذت أمي من الزبيب ومن اللوز لنا ولجدتي؛ وكانت تصلنا رائحة الأطعمة التي يبيعها الباعة فوق عرباتهم من البطاطا المسلوقة إلى غيرها من الأكلات اليمنية الخفيفة.

أكملنا تجوالنا أنا وأمي، وخرجنا من ضجيج السوق، أخذنا أغراضنا من العربة وأعطينا الولد أجر مساعدته ثم أخذنا سيارة أجرة إلى منزل جدتي في صنعاء القديمة التي يعتبر السوق جزء منها. وصلنا إلى بداية الحارة التي تسكنها جدتي ونزلنا من السيارة وأكملنا طريقنا المتبقي مشيا على الأقدام، مررنا بالسايلة – مجرى للماء – وقد تم إعادة ترميمها وأصبحت طريقا للسيارات إلا عندما تهطل الأمطار فأنها

تصبح نهر جارٍ، البيوت كلها مبنية على طراز الفن المعماري اليمني بيوت شاهقة مبنية بالحجر ويزين نوافذها القمريات الملونة، وكانت ممرات الحارات مرصوصة بالحجر الصلد، وقد خُصصت بعض البيوت كمتاحف ومراكز ثقافية، وقد انتشر مؤخرا على مداخل صنعاء القديمة بعض أماكن شرب القهوة والمطاعم الصغيرة التي تقدم الأكلات الشعبية.

وهكذا كان بيت جدتي، دار شاهق، مع القمريات الملونة التي تتوج نوافذه قبل ان يطالها التحديث في المنازل الجديدة واختفاءها في الأجد، دققت الباب باليد الحديدية كما أحب منذ أن كنت طفلة، رغم أن الجرس الكهربائي قد تم إضافته للدار، فوصلنا صوت تقية وهي المعاونة التي تعمل وتعيش مع جدتي وخالتي، فتحت لنا الباب مرحبة، وصعدنا تاركين الطابق الأرضي الذي أصبح مهجورا منذ وفاة جدي من عدة سنوات والذي كان– سابقا– مخصصا لاستقبال الرجال وجلساتهم، وصلنا إلى الطابق الأول وكان يحتوي على ثلاث غرف إحداهن غرفة الجلوس والأخرى غرفة طعام والثالثة تحولت إلى مطبخ حديث بعد أن تم هجر الطابق الأعلى – الطابق الثالث – والذي كان يعتبر مطبخ الدار. رحبت بنا خالتي هاجر وقادتنا إلى أعلى بعد أن تركنا المشتريات بحجرة الجلوس، وصعدنا للطابق الثاني – مخصص لغرف النوم – لزيارة جدتي التي كانت مستلقية على سريرها في إغفاءة صغيرة؛ جلسنا معها على كراسي حول السرير، تحدثنا مع جدتي التي تقارب الثمانين، محتفظة بصحتها بشكل طيب وان كانت تتذمر من برودة الجو – رغم ان الجو لم يكن باردا بالفعل– الذي سبب لها وعكة هذه الأيام.

ثم تركناها واتجهنا مباشرة إلى أسفل لتناول طعامنا – أطباق يمنية خالصة – صنعتها تقية احتفالا بقدومنا – ولم تشاركنا جدتي حيث كانت قد تناولت طعامها مبكرا؛ فأكلنا الشفوت والهريش مع المرق واللحم والسلتة مع الخبر والحلبة وكذلك بنت الصحن الشهيرة في المائدة اليمنية مرشوش عليها الكثير من العسل. وبعد تناول الطعام قدمت لنا حلوى الرواني والعنب اللذيذ إذ كان موسمه، فكان طعاما لذيذا خاصة أننا في منزلنا لا نعد كل هذه الأصناف اليمنية في وجبة واحدة.

ساعدتُ تقية وخالتي هاجر في رفع الأطباق وغسلها، ثم جلسنا في المجلس وأمامنا خيوط ملونة أحمر وأزرق وأصفر، من شعاع الشمس المار من القمريات على سجادة المجلس. قدمت لنا تقية قهوة القشر – قهوة يمنية من قشر البن – وجلسنا نشرب القهوة ونتحدث، وكانت خالتي وتقية يتناولن القات ويشربن من الأرجيلة، بينما أمي صعدت لقضاء الوقت مع جدتي.

كانت خالتي هاجر أصغر من أمي وقد تجاوزت الأربعين من العمر، جميلة ونشيطة ومرحة تحب الأجواء المبهجة كثيرا ربما كرد فعل على التجربة التي مرت بها في حياتها، كنت أعلم أن خالتي هاجر تزوجت بمجرد أن أنهت الثانوية، واستمر زواجها ثلاث سنوات لم تنجب خلالها، فعانت ما عانت من أم زوجها أولا والمجتمع من حولها ثانيا، وكان زوجها يتجاهل هذه القضية، ولكنه مع الوقت وبتحريض من أمه بدأ يصبح عصبي وأخذ يهينها لأنها لم تنجب ويحملها مسؤولية وذنب أنه لن يكون لديه أطفال، واستمر الوضع هكذا إلى أن فقدت خالتي قدرتها على التحمل، فرحلت إلى بيت أبيها طالبة الطلاق، لم يعجب جدي تصرفها وأصر أن تعود بنفس اليوم إلى منزل زوجها، فعادت ولكن لم يمر إلا شهر على هذا الحدث حتى نشب

بينها وبين أم زوجها خلافا كبيرا وقام زوجها بتطليقها في نفس اليوم! ومنه عادت خالتي إلى بيت أبيها لتعاني من جديد، كونها مطلقة وكونها لا تنجب... قيدها أبوها في البيت فلم يسمح لها بعمل أي شيء خلاف العمل في المنزل وإدارة أموره مع أمها؛ ولم تتحرر خالتي هاجر من هذا الظلم إلا بعد عشر سنوات أو أكثر –عند وفاة أبيها– إذ تمكنت بعدها من إقناع إخوتها وأخذت طريقها للدراسة، فدرست دبلوم معلمات ومن ثم عملت كمدرسة في إحدى المدارس القريبة.

كنت أحب جلسات خالتي وحديثها الشيق عن المدرسة وزميلاتها وطالباتها وتلك المقالب والمواقف اليومية في العمل، وكنت أحدثها عن كتبي وأفكاري فأجد منها المناصرة والتأييد وقد حملتُ لها نسخة من روايتي الأخيرة، جلسنا نتحدث عن كتابي الجديد والظلم الذي يقع على البعض، وما يترتب عليه من ان يفقد البعض العيش براحة، فقالت لي ضاحكة:

- هل تعلمين أن زوجي السابق لم ييأس بعد هذه السنين كلها ومازال يحاول دون كلل أو ملل أن ينجب وهذا زواجه الخامس! حتى لا يعترف أن عدم الإنجاب مشكلته هو وليست مشكلة النسوة اللاتي تزوجهن تباعا.

سكتت وهي تشاغل نفسها بمضغ القات ثم تنهدت وقالت:

- لم يُسلِم وظل طوال هذه السنيين مقتنعا بما قالته له أمه –رحمها الله– أن العيب من النساء دائما، فلا هو حصل على أطفال ولا استكان مع زوجة وعاش معها بسلام ورضى بما كتبه له الله.

فعلقتُ:

- فعلا يرفض الرجال التصديق أن المشكلة منهم ويخافون من الاعتراف بها، وهم بذلك يرفضون حلها عند طبيب لو كان لها حل، فيحرمون أنفسهم وزوجاتهم من تكوين أسرة.

نظرتُ إليها طويلا ثم سألتها:

- عموما أنتِ لم تخسري من طلاقكِ فلم يكن رجلا جيدا كما قلتِ لي ذات مرة.

أجابت:

- لم أخسر بسبب طلاقي، ولكني خسرت الكثير بسبب العادات والتقاليد التي تتحكم بنا تحكما قاسيا وتفرض معتقداتها علينا وعلى حياتنا.

سكتت قليل ثم قالت:

- هل قلت إنه لم يكن رجلا جيدا؟! ربما بأحد لحظات غضبي منه! في الواقع لقد أحببته وأحبني وعشت تلك الفترة القصيرة التي عشتها معه ونحن نبني أحلاما ونتخيل القادم جميلا مهما كان، ولكن أمه استطاعت أن تحوله إلى شخص أخر لم أعد أعرفه.

أكملت بعد أن شربت قليلا من الماء المبخر:

- أبي رفض الرجل الذي تقدم للزواج مني بعد مرور سنتين من طلاقي بحجة أن فضيحة مرة واحدة كافية ويقصد فضيحة عدم قدرتي على الإنجاب، قرر ذلك واقتنع به تماما وأعفى الشاب الذي تقدم لي من خوض التجربة والحرمان من الأطفال. وعندما مر زوجي بعدة زيجات دون إنجاب، اكتشف أبي الحقيقة، لكن

الوقت كان متأخرا ولم يعد يتقدم لي أي رجل بعد أن عُرف عني أن أبي يرفض تزويجي.

سرحت خالتي إلى تلك الأعوام الماضية وتنهدت من أعماقها وأكملت حديثها:

- رحمه الله، لم أستطع التخلص من هذه القيود إلا بعد وفاته، تمكنت من إقناع إخوتي وعدتُ للدراسة وحصلتُ على دبلوم معلمات وبدأتُ أعمل وأجد لحياتي متنفس وهدف كما تعلمين، أما الزواج فقد عزفتُ عنه نهائيا، عندما بدأت العمل في المدرسة، رشحتني أحد الصديقات للزواج من أخيها وكان رجلا جيدا كبيرا بالعمر نسبيا وكنت أنا أيضا كبيرة، ولكني كنت قد مسحت هذه الصورة من حياتي! ففي الماضي كنت أرغب بأن أكوّن أسرة ويكون لدي أطفال، ولكن هذا موضوع لم يعد مؤكدا في عمري هذا فلما أتزوج؟ أعلم بأنك ستقولين رفقة للعمر القادم، لكن لا أريد، أنا الآن مقتنعة بحياتي وراضية عنها وما فاتني لم يكن مكتوبا لي على أي حال.

نظرت إلي وأكملت:

- هل تعلمين أن أمي تعاني الكثير من هذا الدار ومن ارتفاع الدرج وكثرتها، حتى طبيبها نصحها بترك الدار لأن الدرج فيه مرتفع ويسبب لركبها ألم كبير، كما قال لها أن جو الدار بارد غير مناسب لصحتها، ولكنها فضلت حبس نفسها في طابق واحد على أن تترك الدار، وأعاني أنا أيضا من كثرة الحجرات المهجورة وتعب التنظيف، ولكنها ترفض أن ننتقل إلى داخل صنعاء ونشتري منزلا حديثا لنا، بحجة أنه "عيب" وأن هذا دار أبي الذي يجب أن يظل مفتوحا... وهكذا

نقيد حياتنا خوفا مما سيقوله الآخرون. لقد انتقل جميع أخوتي وأختي إلى داخل صنعاء ومع ذلك ترفض أمي وتعاني ما تعاني من أجل العادات والتقاليد والتي لا أعرف من سنّها وتحرص على كلام الآخرين الذين لا أعلم من هم بالضبط.

كانت تقية تتابع حديثنا وتشارك بكلمات مواساة وتأييد، وفجأة صرخت معاتبة خالتي:

- لقد أحزنتِ نادية باجترار هذه الذكريات يا هاجر، يجب أن تكفري عن جرمك.

وضحكت ووقفت متجهة إلى حيث مصحف كبير معلق داخل حافظة قماشية ونزعت الحافظة من مكانها فظهر باب خشبي لخزنة كبيرة داخل الجدار، فتحته وأخرجت عودا وأعطته لخالتي قائلة:

- هيا آن أوان الطرب!

كانت خالتي تضحك من تقية وهي تقول:

- لا تفشي سرنا، هذا خاص بجلسات صديقاتي، ولكن لا يهم نادية مقربة ولن تفشي سرنا.

وأخذت العود وجلسنا نراقب لعبها بالأوتار وهي تُحدث النغمات الموسيقية الجميلة ثم بدأت بالغناء بصوت ساحر شجي والكلمات تنساب إلى مسامعي:

"يا قمري صنعاء مالك لا تزعل ريح بالك
الدنيا حقك ملكك حتى قلبي مملوك لك
من غيّر طبعك عني وأنت الي ما تتغير
من حول قلبك مني من؟"

استمعنا للأغنية ونظرت إلى تقية وكانت تدندن معها بصوت خافت وقد ترقرقت عيناها بالدموع؛ وجال بخاطري ترى أي هم لديها؟ وما هي قصتها؟ وكيف رمت بها الأقدار إلى هنا؟ كنتُ أعلم أنها أتت من قرية جدتي لمعاونتها عند دخول خالتي للمعهد ومن ثم للعمل، فكانتا ابنة وأخت تتعاونان معا على عمل البيت؛ وتلتزم تقية بكل شيء عند غياب خالتي للعمل، تجلس معهن وتأكل معهن ولها حجرتها الخاصة، كما كانت تقارب خالتي بالعمر، ولم أكن أعلم عنها أكثر من ذلك.

وقبل نهاية الأغنية سمعنا صوت أمي تنادي لتقية لمعاونتها في إنزال جدتي للمجلس، فأعدنا العود إلى مخبئه وصعدت تقية، وأكملنا جلستنا مع أمي وجدتي. أقترب موعد المغرب وجاء أخي فصعد وسلم على جدتي وخالتي وأخبرته جدتي كعادتها أن زواجه قد آن أوانه.. ثم رحلنا وقد أُضيئت أضواء البيت وكانت إضاءة ضعيفة والدار يبدو مهيبا ومخيفا بحجراته المغلقة ودهاليزه المهجورة يخفي أسرار أناس عاشوا فيه ورحلوا أجيال بعد أجيال.

الخالة هدى

في أحد الأيام كنت أقرأ رواية في حجرتي وأعيش أجواء القصة بعمق عندما انتزعني من الرواية طرقات هادئة ملحة؛ استغربت! فليس من عادة أهلي إلا الطرق بقوة وفتح الباب مباشرة فمن هذا الطارق؟

نهضتُ مستغربة وفتحت الباب لأجد الخالة هدى أمامي مبتسمة وبكامل زينتها.. تذكرتُ أن لدى أمي اليوم قيلة (جلسة صغيرة) فرحتُ كثير بالخالة هدى بينما أسرعت هي وجلست على مكتبي والابتسامة ما زالت عالقة بملامحها وطلبت أن ترى صفحتي على الفيسبوك. لم أتردد وقد عقدت الدهشة لساني كأنها قرأت فشلي وخوفي في السير بهذا الطريق. انقضت ربع ساعة وهي تعلمني كيف أضع صورة رمزية بدلا من صورتي التي لا أريد وضعها، فاختارت لي صورة كتاب وخلفية لمنظر جميل؛ وأرشدتني بكيفية ضم صفحات دردشات للكتب وصفحات لكُتاب وكاتبات عرب. التقطتُ تعليماتها بسرعة فائقة كشخص أرهقه العطش فوجد ماءً عذبا يرتوي منه؛ وقطع علينا جلستنا دقات قوية على الباب ثم فتحت أمي الباب فظهرت الدهشة على وجهها وصاحت ممازحة لصديقتها:

- أين اختفيتِ! أني أبحث عنكِ! تركتِ جلستنا الجميلة والأغاني والرقص وجئتِ تضيعين وقتك مع نادية المتمردة!

أغلقت الخالة هدى صفحة الفيسبوك بهدوء وردت عليها مازحة دون أن تفقد ابتسامتها:

- أنها تعلمني الطباعة على الحاسوب لقد قررتُ أن أؤلف كتاب طبخ.

ولكن أمي تغير وجهها وسرحت لثوانٍ ثم برقت عيناها ببهجة وقالت:

- فكرة يا هدى! ما رأيكِ أن نؤلف كتاب طبخ يمكن أن نضع بدلا من أسمائنا لقب " الطباخات اليمنيات".

ضحكت الخالة هدى قائلة:

- إني أمزح؛ أنا فقط كنت أشاهد ماذا وضعت نادية على صفحتها في الفيسبوك.

ثم نهضت مع أمي وخرجن من غرفتي ووصل لمسامعي كلام أمي الذي بدا حماسيا جدا " إنها فكرة يجب أن نخصص لها جلسة أنا وأنتِ فقط لمناقشتها". لم يصلني رد الخالة هدى، ولكني ابتسمت فهذه هي أول مرة أجد أمي متحمسة لموضوع معين وأول مرة أجد عيون أمي تبرق ببهجة هكذا!!!

عدتُ إلى رفيقي الجديد؛ وبدأتُ رحلة الاستكشاف وحدي بحرص وتردد يتبددان بالتدريج إلى أن قررت التوقف وقد صار لدي 30 صديق وصديقة وخمس صفحات (مجموعات) ولم يكن بينهم يمني أو يمنية؛ فمازلت أعاني من الخوف... ربما سأقرر فيما بعد.

لم يكن مشروع كتاب الطبخ مجرد فكرة عارضة، ولكنه بدا كأنه الحلم الذي عثرت عليه أمي فجأة وسط نكتة قالتها صديقتها هدى، تقربت مني أمي بحياء وبدأت تسألني عن إمكانية تحقيق الفكرة فقالت بتردد:

- كتاب بسيط وليس مثل كتبكِ.

استغربتُ! لأول مرة تتحدث أمي عن كتبي باحترام وأضافت:

- فقط ساعديني أول المشوار وبعدها سنتعاون أنا وهدى لتحقيقه بتأنٍ.

ولكن فكرة الكتاب البسيط لم تكن كذلك بالنسبة لأبي، عانت أمي وهي تحاول إقناعه فيسخر حينا ويتجاهل أحيانا ... فأصبحت أكثر عصبية وتبرم ولم تتخلَ مع ذلك عن حلمها الوليد. إلى أن جاءتني ذات يوم وأنا أشاهد برنامج على التلفاز وقالت لي بصوت ضعيف:

- نعم يا ابنتي كتاباتك صحيحة لا يحق لنا أن نحقق أحلامنا، حتى لو كانت كتاب طبخ في صميم عملنا اليومي! كتاباتك صادقة يا ابنتي إذا كان هذا حجم حزني وأنا بعمر لم يعد الحلم حتى من حقي، فكيف تشعر شابة في مقتبل عمرها عندما يتم اغتيال حلمها المشروع.

وأضافت بصوت حزين شارد:

- أبوك يخطط للعمارة وقت طويل ويتابع تنفيذ المخطط حتى يصبح واقعا على الأرض، فيفرح ويشرح لنا كيف كبر وليده وكيف سمح له بالحياة.

بدت أمي حزينة بشكل غريب، ولكن فجأة وقبل أن أحاول مواساتها قطع حوارنا أبي والذي كما يبدو جاء دون أن نفطن لمجيئه، ولكنه فاجأنا قائلا:

- تمام حققي حلمك، ولكن لا تطلبي مني ريال واحد؛ فأنا لا أمول مشاريع تافهة.

تغيرت ملامح أمي خوفاً من نقمته على حديثها عنه، ولكنه تركنا صاعدا إلى حجرته، بينما كانت أمي تحاول استيعاب ما قاله للتو! فلفتت إلى حيث كان أبي

واقفا وسألتني " هل كان أبوكِ هنا؟؟ هل قال إنه موافق؟؟؟". تحمست أمي للمشروع؛ ونفضت عبارات أبي المهينة؛ وبدأت تكتب الوصفات بخط يدها البسيط؛ وكانت مسؤوليتي في هذه المرحلة أن انقل الوصفات أول بأول للخالة هدى، كان الوضع في منزل الخالة هدى فيما يتعلق بالمشروع أفضل مما حدث لأمي، فقد وافق زوجها وموله بمبلغ جيد.

ذهبت إلى منزل الخالة هدى لإعطائها مجموعة مكتوبة من الوصفات، ولكن فجأة! هناء التي كانت تتابع حديثي مع أمها، جن جنونها عندما وجدت أمها تجلس على جهاز الحاسوب وتطبع أول الوصفات التي أرسلتها لها أمي معي، فلم تتحمل هناء التي شارفت على نهاية الحمل الفكرة، وصاحت متحصنة بحملها الثقيل:

- ماذا يحدث الآن؟ هذه أنانية يا أمي! أني على وشك الولادة ويجب أن تهتمي بي فقط!

لم تسمح هناء للنقاش أن يدور بيننا؛ وتحولت إلى إنسانة شرسة غير تلك الرقيقة التي نعرفها؛ وبدأت بالبكاء المتشنج دون أن نعرف لما هذا كله وهي تردد عبارة "مراهقة في أخر العمر".

هالني رد فعل هناء؛ وحاولت أن أهدئها، وبالطبع توقفت الخالة هدى عن الطباعة، ولكن كأن صراخ وتشنج هناء سرّع ولادتها فنُقلت إلى المستشفى عشية ذلك اليوم حيث كنت لا أزال هناك،،، وقد مازحتها فيما بعد أن الفتاة المولودة جاءت لترى ماذا حدث وما سبب ذلك الصراخ غير المعتاد؛ وعلى كل حال فقد تأجل مشروع أمي والخالة هدى.

لم تكن ولادة هناء سهلة وشعرت أمها بالذنب دون أن تعرف لماذا؟ وجاء زوج هناء في صباح اليوم التالي لأننا لم نبلغه في حينها، وكان قلقا على اعتبار أنها ولادة مبكرة، ولكن الأمور كانت قد تمت على خير وشرّفت إلى الحياة "سوسن الصغيرة" فجر ذلك اليوم؛ تحمل من ملامح أمها الكثير، حملتُها في حضني وهالني الشعور الذي شعرت به، وتأملتُ ملامحها وحجمها الصغير فأحسستُ نحوها بحب جارف. وسرعان ما امتلأ المكان بالزائرات؛ ووجدتها فرصة للعودة للبيت بعد يوم طويل ومتعب. وصلت المنزل ودخلت حجرتي أنشد النوم فقط، وعاد إلى خيالي أحداث صراخ وولادة هناء؛ ضحكتُ بصوت عالٍ وكأنه مسني نوع من الجنون وتلا الضحكة قهقهة عالية سرعان ما كتمتها حتى لا أفزع أهلي! كيف كتبتُ كتب عن اضطهاد الرجال لأحلام النساء ولم أتنبه أن النساء أنفسهن يقتلن أحلام بعضهن البعض! ماذا حدث لأمي عندما نشرتُ كتبي الأول والثاني؟ وتحججت أنها كتب "ثورية" تدعو للتمرد! ولكنها الآن تعترف أنها كتب جيدة عندما رغبت هي نفسها بنشر كتاب! ماذا حدث لهناء التي صعقت من فكرة أن يكون لأمها اهتمام بشيء غير أمور الأسرة؟ ولم تطلب منها – مثلا – تأجيله، ولكنها انتقدت الفكرة بأبشع الأسباب ونعتت أمها بالمراهقة دون مبرر.. لماذا؟! يجب أن أناقش هناء في وقتا ما يجب أن أعرف بماذا فكرت؟

عدتُ إلى صديقي الجديد الفيسبوك أتابع بعض المنشورات وإذا بمسابقة القصة لم تعد متاحة وتاريخ التقديم قد انتهى! لم يحزنني هذا الاكتشاف فأنا لم أكن متهيئة بعد لأخرج من قوقعتي الضيقة... قطع عليّ رحلتي في عالم الكتاب صوت تلفوني السيار – وكانت ابتسام التي غضبت أن تلد هناء ولم أبلغها وخاصة أنها اكتشفت أني كنت

معها عندما ذهبت للمستشفى... اعتذرتُ لها وأخبرتها أن كل شيء تم بسرعة وأني عدت لمنزلي قبل قليل، ولكنها كانت لا تزال غاضبة وأخبرتني أنها ستذهب الآن لزيارتها وأغلقت الهاتف بكلمة مبتورة تحمل معنى "مع السلامة". عدتُ أحاول أن أواصل رحلتي، ولكن النعاس غلبني فاستلقيت على سريري منهكة وأغمضت عيناي فاحتلت صورة الطفلة سوسن خيالي.

انشغلنا أنا وابتسام بولادة هناء وتواجدنا في بيت أهلها مساءات الأيام التالية للولادة، وكانت سامية زوجة شقيقها جهاد تلزم بيت عمها أيضا وتقوم بخدمة الضيفات بعناية، كانت أكبر منا بعامان درست فنون جميلة وكان كل ما فيها جميل. وتخصصت أنا بالاهتمام بسوسن الصغيرة التي احتلت قلبي دون منازع، وحملتها بحضني طوال تواجد أمها في مقيل النساء فغارت ابتسام وقالت:

- لا أذكر أنكِ أعطيتِ مُحَمَّد هذا الاهتمام يوم ولادته.

فذكرتُها كيف استولت شقيقاتها التوأم على المولود الجديد ولم يتركاه لحظة حتى لأمه؛ فضحكت وقالت:

- نعم، فعلا إلى الآن لا أستطيع إبعادهن عنه وقد قارب عمره العام.

كنت أعز التوأم كثيرا وكان يذهلني الشبه الكامل بينهن، كانتا منفتحات على الحياة يحبان الرقص ويتعلمن كل الرقصات الجديدة؛ وقد يُشركان أخاهن الصغير أمجد في دور المحكم فيمن رقصها أفضل؟

وعندما يقل عدد الزائرات في كل يوم من أيام الولاد، كنا نجلس أنا وهناء وسامية مع المولودة سوسن بينما تغادرنا ابتسام مع طفلها، ونتحدث حديثا متشعبا وتحكي لنا سامية عن حلمها بأن تقيم معرض لرسوماتها العشر؛ وتقول لنا ضاحكة:

- من يدري ربما أصبح رسامة كبيرة وتباع لوحاتي بمبالغ كبيرة!

فنضحك معها كأنه اعتراف منا دون وعي أنه فعلا حلم يستحيل تحقُّقه، ونعود ونضحك من دهشة نادلين –ابنة سامية– من تلك المولودة الصغيرة، وكأنها البنت الكبيرة وهي التي تبلغ الثلاث أعوام من عمرها فقط. وفي أحد الأيام تأخرتُ كثيرا فأصرت سامية أن توصلني معهم للمنزل؛ وعندما استعدت سامية للعودة إلى منزلهما هي وزوجها وابنتهما نادلين عدتُ معهم، كان حديثهما في السيارة جميلا فتارة يمازحا ابنتهما؛ وتارة يمازح جهاد سامية ويخبرني أنها ترفض رسم صورة له! كنتُ أجد علاقتهم جميلة ورقيقة؛ فهوايتهما توافقت بطريقة أو بأخرى – فزوجها جهاد مهندس معماري – وكنت أعرفه بالطبع منذ أن كنا أطفالا؛ وأعرف رقة مشاعره وحبه للجمال والفن، كما أعرف بأن فترة الخطوبة القصيرة بينهم قد سمحت للحب الصافي أن يتغلغل في قلبيهما والذي لا يحمل في ذلك العمر المبكر إلا النقاء. انتهت أيام الولادة فعادت هناء إلى بيتها وانتقلت أمها معها دون تحديد فترة بقائها هناك. حزنتُ على مشروع أمي؛ فعرضتُ عليها أن أبدأ بطباعة الوصفات حتى تعود الخالة هدى للتفرغ؛ فرحت أمي بالعرض بعد أن شرحتُ لها أن ما سأكتبه ستأخذه الخالة هدى لإضافة ما عندها على نفس الورق، لم تتخيل أمي كيف سيتم ذلك؛ ولكنها وثقت بكلامي.

حكاية الحجة آمنة

عادت الأيام تحمل رتابتها المعتادة، وعدتُ لتقديم ملفي في كليات الآداب في الجامعات المختلفة علّني أجد وظيفة مناسبة، ولكن الكليات كانت مستكفية؛ فأدركتُ أن الحل الوحيد هو أن أكثف البحث عن عمل في جريدة يومية؛ وهذا ما حصلت عليه. كان مبنى الجريدة في منطقة الأصبحي، –قريب من منزلي– عبارة عن منزل صغير من طابقين، كل الغرف تحتوي على مكاتب الموظفين بينما خصص الطابق الأعلى لمكتب وسكرتاريا رئيس المجلة. كان عملي مقصورا على الكتابة أسبوعيا في عمود عن المرأة ومراجعة مقالات الصحفيين لغويا. لم أحب أن تتحول الكتابة إلى التزام وعمل مفروض، ولكني اعتبرتها مرحلة لا أعرف بعد ما يُفترض أن يكون بعدها.

لم أكن المرأة الوحيدة التي تعمل في الجريدة؛ ولكني كنت الوحيدة التي لا تضع النقاب؛ لذا كنت دائما موضع تساؤل أي وافد جديد أو زائر للمجلة "من هذه؟ يمنية؟". لم يكن يزعجني هذا التساؤل ولم يجعلني أشعر أني غريبة، هذا أنا وهكذا أنا. سعدتُ بالراتب الشهري وبدأتُ استمتع بالإنفاق على نفسي بعد المبلغ البسيط الذي كنت اكسبه من مبيعات كتبي التي كانت تتم بدعم من الكلية؛ ولذا فالقسط الأكبر من المبيعات القليلة كان يعود للكلية، وأصبحت حريصة جدا أن لا أطلب من أبي مصروفي اليومي حتى أثبتُ له ولنفسي بأني أستطيع الاعتماد على نفسي.

كانت الراحة الصباحية (وقت الفطور) هي وقت معرفتي بزميلاتي في المجلة معرفة حقيقية؛ لم تهتم المجلة لعمل استراحة بالموظفات؛ لذا كنا نتجمع مجموعة واحدة ونفترش الممر المؤدي إلى حمام النساء، لأنه المكان الوحيد الذي يمكن فيه للمنقبات رفع النقاب لتناول الطعام؛ فتتحول تلك الوجوه المنقبة المعبرة عن لا شيء إلى وجوه ضاحكة بعضها تلمع ببريق الشباب؛ ويغلف بعضها مرور الزمن ومصاعب الحياة، ولكننا كلنا كنا نتبادل الأحاديث المتنوعة، ونتحدث عن الزملاء ونعلق على تصرفاتهم ونعتبر الضحك عليهم مادة غنية للترفيه عن النفس... تطلق الأكبر سناً فينا النصائح؛ وتشتكي البعض من تعب تربية الأطفال مع الالتزام بالعمل... وهكذا نظل في راحة إلى أن نسمع نداء أحد الزملاء لواحدة منا فنعتبره جرس انتهاء وقت الراحة؛ ونلملم ما تبقى من الأكل وتُنزل النقابات وتعود الوجوه المعبرة عن لا شيء. وكانت علاقتي مع بلقيس زميلتي علاقة صداقة أكثر، تبادلنا أحاديث كثيرة؛ وقصت لي أنها تسكن في منزل أهل زوجها، ويتم تحميلها مسؤوليات كثيرة، مثلها مثل سليفاتها (زوجات أخوة زوجها) دون تقدير خروجها للعمل خارج المنزل، وكأن عمل المرأة هو فقط للترفيه ولا يوجد فيه أي تعب أو جهد حقيقي، كانت بلقيس خريجة حقوق ولم تجد عمل بمجالها، وما زالت تحلم أن تكون محامية تترافع بقضايا اجتماعية وتنجح في إعادة الحق لصاحبه.

في أغلب الأيام كنتُ أحب أن أجلس قليلا مع العاملة المسؤولة عن إعداد القهوة وتدعى الحجة آمنة أشرب قهوتي وأسمع حديثها المتنوع وتشكو من اضطرار شريحة واسعة من النساء اللاتي ليس لديهن مؤهلات للعمل بأجور منخفضة وإعالة أسرهن؛ فمنهن من فقدت معيلها ولديها العدد من الأطفال الصغار؛ ومنهن من

أصيب زوجها إصابة عمل فأصبح معاقا لا حول له ولا قوة فاضطرت للعمل والقيام بكافة مسؤوليات الرعاية له ولأبنائهما. ثم تتنهد وتقول:

- هذا قدر، ولكن الأصعب عندما يكون الزوج مولعي (مدمن قات) فيقضي يومه بالمنزل أو خارجه يتناول القات ولا يعمل؛ ويجبر زوجته على العمل بأقل الأعمال شأناً حتى تجلب له المال للتخزين (مضغ القات) والقليل يبقى لضروريات الحياة، ولا يكتفي بذلك فالبعض يضرب الزوجة إذا تأخرت، ويتشكك بسلوكها ويضربها أكثر إذا خسرت عملها في وقتا ما؛ وبالغالب تكون متطلباته هي السبب.

ثم أضافت:

- هل تعلمين أستاذة نادية أنني برغم علمي لكل هذا ما زلت حريصة على تزويج بناتي بأول خاطب وحتى قبل أن تكمل أي منهن الخمسة عشر عاما! فمهما عانينا من الرجال يظلون هم السند حتى وإن لم يكونوا سندا فعلا، لا أعرف كيف؟ ولكن الزواج ضرورة، لقد زوجت اثنتين وبقيت واحدة، أخشى ان أموت قبل تزويجها.

كنت أفكر كثيرا بكلام " الحجة" كما كنا نناديها، كيف يتزوج الرجل من طفلة ويشترط أن لا تدرس وبالطبع لا تعمل؛ وبمرور السنوات وقدوم الأطفال ومع صعوبات الحياة يجبرها على العمل بعد أن سلبها حقها في أن تتسلح بسلاح العلم الذي يؤهلها لعمل مناسب.

وذات يوم جاء أحد الموظفين لطلب قهوة بينما كنت أشرب قهوتي على المقعد داخل مطبخ الحجة الصغير؛ ولكنه كان يناديها (بخالة) فأعطته سندوتش مع كوب الشاي فقبل رأسها وأخذ أكله وذهب، نظرتُ لها ففهمت أني أتساءل عنه! قالت:

- هذا جمال، هل تصدقين أن جمال هذا الموظف الذي يعمل في المطبعة هو ابن العاملة التي كانت قبلي؛ وكانت جارتي بالحارة مات زوجها منذ سنوات فنذرت حياتها لولديها، حتى أنهم لم يتوفقوا بدراسة الجامعة مجانا فأدخلتهم جامعة خاصة؛ وشقيت عمرها كله من أجلهم، ولم يخيبوا ظنها فالولد الكبير أصبح معلما في أحد المدارس وهذا توظف هنا في المطبعة كإداري، يعمل في المجلة حيث عملت فيها أمه لسنوات كثيرة، لقد كان الله كريما معها أن جعلها ترى ثمار جهدها قبل أن يخنقها السرطان الذي اخفت إصابتها به عننا كلنا ورحلت سريعا دون أن تكلفهما قيمة علاجها أو رعايتها.

نزلت دمعة من عينيها وتدحرجت من تعاريج وجهها الحزين وأضافت:

- وأنا شقيت من أجل ثلاثة أولاد –الحمد لله– أكملوا دراستهم الجامعية ويعملون في الحياة، وقد طلبوا مني أن ارتاح، ولكني أحب عملي ولم يعد متعبا الآن عندما خفت المسؤولية فلما اجلس بالمنزل ؟ وخاصة بعد موت زوجي العام الماضي.

ثم أضافت وهي تمسح الدموع التي تصر على التدفق من عينيها المتعبتين:

- نحن يا ابنتي الجنود المنسيون، ألم يطلقوا على الجندي الذي يستشهد لقب (الجندي المجهول) لأن هويته لا تُعرف؟ نحن هكذا نحارب في هذه الحياة، ونهب

أعمارنا من أجل أولادنا ولا نلحق التمتع بالحياة وأحيانا لا نشارك أولادنا خطواتهم الأولى في العمل؛ نموت دون أن يذكرنا أحد. رحمة الله عليها لقد أورثتني عملها وأمنتني على أولادها، ولكن الحافظ الله.

كنت دائما اسمع حديثها المتنوع واترك لها حرية السرد لأني أعلم أنها تحب أن تقص قصصها وتحب أن يُستمع لها؛ لذا كنتُ دائما استمع لها مع تعليقات خفيفة ومحاولة المواساة.

صديقتي ابتسام والصدمة

اتصلت ابتسام صديقتي بوقت غير معتاد منها؛ وعندما رددتُ عليها لم يكن ذلك صوتها! فسألت وأنا أتأكد من الرقم على تلفوني:

- من؟! ابتسام؟

فردت بصوت قد فقد قوته من تأثير بكاء مرّ:

- نعم؛ ابتسام... هل أنتِ بالمنزل؟ يجب أن أمر عليك وأحدثك بموضوع مهم.

رددتُ عليها أن بإمكانها القدوم الآن وسأكون بانتظارها؛ فحذرتني أن أفتح الباب لها بنفسي فهي لا ترغب بمقابلة أمي أو أي أحد آخر؛ ورغم حرصي على ذلك إلا أن أمي ظهرت على دقة الباب فأخبرتها أنها ابتسام. دخلت ابتسام وألقت السلام على أمي سريعا؛ وسحبتُ صديقتي إلى غرفتي وسط دهشة أمي التي لم تعتاد على هذا التصرف من صديقتي ولولا ابنها الذي يرقد على صدرها لكان من حق أمي أن تستغرب من هوية المرأة الغريبة المغطية بالسواد من رأسها حتى قدميها... وعندما أغلقت باب الحجرة رفعت صديقتي نقابها ليظهر وجهها وقد احمر بشكل غريب وعيناها محمرتان من بكاء طويل، فلم أتكلم وأخذت فقط الولد الصغير وأنمته على سريري؛ وسألتها عما حدث.

قالت لي بنفس الصوت المبحوح أنها ترغب بمشاهدة حسابي على الفيسبوك الذي حدثتها عنه سابقا، استغربت من ذلك؛ ولكن ملامح وجهها منعني من السؤال عن

السبب، فتحته فتطلعت في قائمة أصدقائي وقد قاربوا المئة من الرجال والنساء من عدة دول عربية وأغلبهم يهتمون بالكتابة وقراءة الروايات؛ تأملت كل القائمة والمنشورات وصور النساء في صفحاتهن، وأخيرا توقفت عن الاستكشاف وبدأت تقص ما حدث.

- زوجي يا نادية لديه حساب على هذا الفيسبوك مليء بصديقات من اليمن ومن خارجها، وجوههن مكشوفة جميلات جدا يا نادية، وبعضهن دون حتى حجاب، قرأتُ كل المنشورات والتعليقات، وكلها راقية وهادفة وتدور ضمن اهتمامات عامة.

توقفت قليلا حتى تفرغ عينيها من الدموع المتجمعة وواصلت:

- عندما اكتشفتُ هذا الحساب طلبتُ منه أن يسمح لي بإنشاء صفحة أيضا فضحك، بل قهقه بصوت عالٍ وسخر مني وقال لي أنها ستكون صفحة خاصة بصديقاتي اللاتي أقابلهن وأكلمهن دائما فما الجدوى منها!

فقلت له:

- مثلي مثل صديقاتك على الفيسبوك؛ تصدقين يا نادية ماذا قال؟ قالها بكل بساطة "وهل أنتِ مثلهن؟ هؤلاء مهندسات ومبرمجات وبعضهن مديرات في شركات كبيرة ما أوجه الشبه بينك وبينهن حتى تقارني نفسك بهن! لهن اهتمامات متنوعة وليست محصورة بما سنأكل اليوم؟ وماذا سألبس في هذه الحفلة؟

وبدأ صوتها يعلو ويرتجف وعندما تحرك ابنها قليلا خافت أن تيقظه فخفضت صوتها وكتمت دمعها واحترتُ ماذا أقول؟ وأكملت:

- هل يجدني هكذا أقل منهن! أنا خريجة كلية الآداب تفرغت له ولبيته وأعطيته الابن الذي رغب به بعد أول سنة زواج، فبماذا أخطأتُ؟ لماذا يجدني أقل منهن؟ هل سيوافق أن أخلع النقاب؟ هل سيوافق أن اعمل؟ أين أخطأت؟ هل هذه مشاعره اتجاهي؟ هل هذا تقديره لي؟

سكتت وواصلت البكاء بحرقة محتومة وساد الصمت بيننا؛ وأخيرا استطاعت تلك الكلمات أن تخرج من فمي لا أدري كيف:

- استحملي ربما لا يقصد ما قاله بالتحديد.

ابتسمت بمرارة وقالت:

- أحسني التعبير أيتها الكاتبة تقصدي لا خيار لك فاستحملي! ليس لنا خيار يا نادية، نخاف أن نجد أنفسنا وحيدات ونحن طوال حياتنا في ظل رجل.. صدقيني أخذتُ الشهادة فقط لإضاعة الوقت حتى يأتي الرجل الذي سأستظل بظله وها هو يسخر مني ويحتقرني.

ونهضت ترغب بأخذ ابنها والخروج مستاءة مني، ولكني أبقيتها وحولت دُفة الحديث في دروب أخرى؛ ورفهت عليها قليلا فعاد لون وجهها الطبيعي ثم استيقظ ابنها فقضينا وقتا نلاعبه ونحدثه؛ وعندما خرجت أوصتني أن لا أخبر أحد فهي لم تخبر حتى أمها.

كنت أعرف أن علاقتها بأمها الخالة ليلى تقليدية جدا وكانت أمها امرأة صموتة لا تتكلم كثيرا أنجبت ابنها البكر نبيل وبعده بعامين أنجبت ابتسام كانت بولادات سهلة، ولكنها عندما أنجبت بنتيها التوأم هيام وهيفاء بعد أكثر من عشر سنين كانت ولادتها صعبة جدا فقد شارفت على الموت ثم تعبت أكثر بتربيتهما حيث احتاجا رعاية مكثفة لفترة طويلة من أعمارهن كونهما اثنتان، ثم كان حملها بابنها أمجد الأخير مربك كثيرا لها وللأسرة حيث كان التوأم ما زالا في الثالثة من العمر.

كانت علاقة ابتسام بأخيها نبيل تقليدية أيضا رغم تقارب عمرهما، فمنذ بداية سن المراهقة كان عصبيا وقلقا ولا شيء يرضيه، كنا نتجنبه أنا وهناء وإن كنت أشعر أن هناء تتعاطف معه إذا ما تعرض للانتقاد من قبل شقيقته، ولكنها أبدا لم تعترف بتلك المشاعر البكر.

حاولت أن أتابع ابتسام في الأيام التالية لهذا الحدث؛ وكأنها عملت بنصيحتي واستمرت حياتها كأن شيء لم يكن وكأنه كان على حق. لم أر ابتسام منذ طفولتنا بتلك الحالة؛ وما رأيتُ يوما ما وجهها بذلك الانتفاخ إثر البكاء! أذكر أنها بكت عندما رسبت بأحد المواد أثناء الجامعة، ولكنه أبدا لم يكن مثل ذلك البكاء...وعلى أي حال فكل ما قدرت عليه هو إنشاء صفحة على الفيسبوك هي وهناء وأيضا تحت أسماء وصور رمزية ودون أن تخبر هناء بشيء عن السبب وراء إنشائها.

الربيع العربي

أنهت أمي والخالة هدى مشروعهن؛ وتم نشر وطباعة عدد محدود من النسخ؛ وتم شراء أغلب النسخ من قبل صديقاتهن وصديقات الصديقات، فظهر المشروع كمشروع ناجح خاصة أنه ظهر بتنسيق وغلاف جميلين. وبدأن بالتفكير بالخطوة التالية وهي فتح محل حلويات والذي تحمست له سامية؛ وتكفلت مقدما بعمل الديكور والتأثيث. ولكن المشروع كان يسير ببطء وتردد فالبلد تضج بمشاكل تجعل من عمل أي شيء فاقد لأهميته، حيث كنا في العام 2011م – ذلك العام الذي ساهم بعمل بداية النفق الذي بدأ يتشكل– فالخيام تكتسح الشوارع وتعيق الحركة والغليان يزيد؛ ولم أعد أجد سلاما داخليا، وأشعر أني متوترة وكأني مترقبة لشيء كبير قد يحدث.

تلك المشاكل والخيام في الساحات والشوارع كانت جديدة علينا ومخيفة، ومع ذلك أطلقوا عليها وصف (الربيع العربي) ولا أدري كيف يمكن للربيع أن يكون مخيفا هكذا وهائجا يموج بالغضب المشروع وغير المشروع. أقام الكثير من الشباب والبعض من الشابات خيام على قارعة الطريق وسدوا منافذ بعض الشوارع دون مبالاة، لم أستطع وأنا التي أحلل شرائح المجتمع وأصب تحليلاتي على شكل قصص فهم ما يجرى! تخبطتُ كثيرا فحِينا أكون معهم قلبا وقالبا وحِينا آخر ينتابني الفزع وأنا أشاهد ما يحدث في الدول العربية الأخرى؛ فالشعب كان ينفس عن غضبه من الوضع بشكل عام؛ فضعف فرص العمل وانتشار البطالة بين الخريجين والمؤهلين، والفساد الذي ساد الحياة في اليمن حتى صار هو الأساس وما غيره شاذ وسمح لشريحة من المجتمع ببناء القصور والتهام كافة المشاريع الاقتصادية الكبيرة

والضخمة، وتنحية أي منافس، وعجزت شريحة كبيرة من المجتمع أن تستظل ولو بظل جدار من بيت تمتلكه، أو أن تحقق ربع أحلامها، وبقاء الشريحة الوسطى في خانة المستورين وبين صعود وهبوط؛ كل تلك الأوضاع بدت مبررات معقولة للثورة والرفض.

وفي منتصف 2011 م وبالتحديد في يونيو هز البلد انفجار قوي، وقبل أن نتساءل أو نستفسر وصلنا الخبر عبر كل وسائل التواصل وعبر التلفاز من مختلف القنوات أن الانفجار استهدف مسجد الرئاسة حيث كانت تُقام صلاة الجمعة وأن الكثيرين قد سقطوا قتلى وجرحي ومنهم الرئيس وتم نقل الرئيس إلى خارج البلد. ساد البلد خوف كبير وحزن وألم ورعب لما سيترتب على الحادث من الأمور؛ لزم الناس منازلهم وزادت أزمة البترول حدة وتوقفت السيارات على جانبي الطريق المؤدي إلى المحطات في طوابير طويلة تنتظر القادم. مرت الشهور ثقيلة، وتناقلت شاشات التلفزيون أخبار تأكد سلامة الرئيس مع إصابات بالغة وخضوعه للمعالجة، فبدأت الحياة تعيد دبيبها على الأرض وظهرت الأخبار مطمئنة أكثر، فعاد الناس إلى أعمالهم على أمل أن الأمور ستسير إلى الخير.

مع بداية العام 2012م توقعنا أننا نفذنا من مصيدة الربيع العربي، وتم تنازل الرئيس صالح عن رئاسة الدولة وانتخبنا رئيسا جديدا متوقعين أنها فاتحة خير. ولكن البلد ظلت رهينة المشاكل التي كانت تقود إلى مستنقع الفوضى، ومع ذلك ظلت الحياة تصارع الظروف وكنا نواصل أعمالنا وحياتنا رغم كل تلك الأزمات الطويلة من انقطاع الكهرباء إلى اختفاء البترول حتى يعود بحلة جديدة وأسعار خيالية، وغيرها من المشاكل.

تقرير عمل

ذات يوم جاءت زميلتي بلقيس وقالت لي:

- لقد طلب مني المدير عمل تقرير عن ساكني أحد الأحياء العشوائية.

نظرت إليّ فرحة وأضافت:

- هل ترغبين بمرافقتي؟

تحمستُ وأجبتُها:

- أكيد سنذهب معا.

وهكذا ذهبنا في سيارة تابعة للمجلة مع سامي المصور في المجلة وهو شاب قارب الثلاثين من العمر؛ أخذنا طريقنا إلى مكان الحي الذي لم يكن ببعيد، ولكنه مخفٍ في منخفض من حي الشيراتون؛ ودخلنا مع المصور وسائق السيارة الحي سيرا على أقدامنا، هالني – وإن كنت أعرف من قبل – تكدس العشش المبنية من كل ما يمكن من المواد باستثناء الحجر الذي يعتبر مادة البناء الأساسية في صنعاء! كان الأطفال قد تجمعوا حولنا بمجرد توقف السيارة وقاموا بمرافقتنا بملابسهم البالية ووجوههم الضاحكة فرحين بزوار كأننا سياح، دخلنا أول مسكن – إذا صحت التسمية – وكان لأسرة مكونة من أم شابة وخمس أطفال أحدهم مازال رضيعا في يدها، جلست بلقيس تتحدث معها، ورغم أني تحمست للحضور لمتابعة هذه

الأسئلة إلا إن المنظر العام سرقني من أي اهتمام آخر... كان الأطفال منتظرين لنا بفرحة في باب العشة والذي كان مصنوعا من بقايا سيارة كما يبدو، تأملتُ العشة فوجدتها مفروشة بفراش بالٍ وبداخلها موقد صغير فوقه حلة طبخ باردة. سمعتُ صاحبة العشة تذكر أن زوجها ذهب لطلب الرزق لكنه لم يعد منذ شهرين، وأن أمه تسكن معهم وأشارت إليها، فتنبهتُ إلى المرأة العجوز –التي لم ألحظ وجودها رغم أني مررت بنظري على تلك العشة الصغيرة – ترقد في أحد الزوايا.

شكت الأم الشابة صعوبة الحياة وعدم قدرتها على العمل بوجود هؤلاء الأطفال، كانت عيناها تبرق بالدمع، ولكن –أبدا– لم تنزل دمعة. أعطت بلقيس للمرأة بمجرد إكمال المقابلة مظروف يحتوي على مبلغ بسيط من المجلة، وانتقلت للعشة الأخرى، وكانت لإمرة متوسطة العمر حولها ثلاث بنات صبايا، قصت لنا قصتها التي ما زالت حديثة، حيث كانت تعمل لسنيين طويلة عاملة نظافة في أحد المؤسسات وذات يوم فقدت أحد الموظفات نقود من داخل حقيبتها، وكانت التهمة مؤكدة على العاملة المسكينة وتم طردها دون إثبات التهمة، وما زالت تبحث عن عمل يكفيها هي وبناتها، وكان زوجها متوفي. كانت العشة الثالثة لأب عامل بناء كبير بالعمر لديه زوجة أصغر منه بكثير وعدد من الأطفال من أعمار مختلفة، حدثنا أن الأكبر سناً من الأولاد من زوجته التي توفيت منذ سنوات والباقي من الجديدة وأنهم كلهم يعيشون في هذه العشة الصغيرة وهو الراعي الوحيد لهم، مع ما يجلبه أبناؤه من مبالغ صدقة من الناس – ففهمت أنهم يشحتون – تحدثت معهم بلقيس، وسمعتُها تسألهم أين كانوا قبل أن يأتوا إلى هذه المنطقة، فأخبرها أنه كان في قريته، يزرع ويأكل مما يزرع من أرض والد زوجته السابقة، ولكن عندما توفت طرده

والدها مع أولاده دون رحمة ولا شفقة ولا احترام للأبناء المتوفية، فجاء إلى صنعاء لا يعرف ماذا يمكن أن يعمل حتى عثر على من أخذه للعمل ضمن عمال البناء، وقد صار له بهذا العمل سنوات – ينقطع أحيانا بسبب إصابة في العمل– ولكنه على أي حال لا يدر عليهم بما يسمح لهم بحياة لائقة. وهكذا انتهت المقابلة بتسليم الظرف بينما المصور يلتقط بعض الصور فيظهر فيها الأطفال مبتهجين بالحركة الجديدة في حيهُم، وتقدم صبي ربما في الخامسة عشر من العمر من زميلنا المصور وطلب منه لمس الكاميرا، وبعد أن تأملها بإعجاب كبير قال:

- عندما أكبر سأكون مصورا مثلك، هل يستدعي هذا الدراسة؟ فأنا لا أذهب إلى المدرسة!

رد عليه زميلنا سامي:

- ربما، وربما عليك الدراسة بكل الأحول.

ترقرقت في عينيي الصبي نظرة حيرة كأنه يسأل كيف؟ وعاد ينظر للكاميرا بشغف، فمكنه سامي منها وسمح له أخذ بعض الصور للأطفال من حوله، فقام بالمهمة بفرحة عارمة وبهجة من حقق حلم.

وهكذا قضينا ثلاث ساعات وسلمت بلقيس العشر مظاريف لعشر أسر، شاهدنا خلالها نماذج لمعاناة البشر في بلد لم تستطع تقديم أي مساعدة ترفعهم من هذا الفقر، وكنتُ أفكر مع كل حكاية بأن لو كان هناك تنمية وحركة في القرى لظل أهلها فيها يعملون ويعمرون ولوفرا على أنفسهم وعلى أولادهم هذه الحياة التعيسة، فأغلب سكان هذا الحي نزحوا من القرى بهدف حياة أفضل، فهل هذه هي الحياة

الأفضل؟ يضجُ الشارع بالناقمين على الفساد وعدم وجود وظائف وهم بالطبع الأفضل ظروفا، فماذا لو قرر سكان العشش الثورة أيضا؟ أي شارع سيكفيهم، وأي مطالب متواضعة سيطالبون بها! وعلى أي حال أعلم أن هذه التجمعات الجديدة – الخيام – في الشوارع قد وجدها الفقراء مكانا مناسب لتناول الطعام والقات مجانا، بمول لا يعلمون من هو؟ ولا يهمهم ذلك!؟

وفي السيارة ونحن في طريق العودة قالت لنا بلقيس:

- كنتُ أحلم أن أكون محامية لهؤلاء الذين يعانون من ظلم ولا يستطيعون أخذ حقهم؛ عامل يصاب إصابة عمل فيُعطى ألف ريال ويطرد من العمل دون أن يحصل على تعويض مناسب؛ وعاملة تُطرد من عملها في شركة لأنها اُتهمت بالسرقة دون أن يجدوا دليل على تلك السرقة فتخسر عملها وتحصل على سمعة سيئة.

ساد الصمت بيننا قليلا، وعادت بلقيس للكلام بعد تنهيدة من قلبها وقالت:

- تخرجتُ من كلية الحقوق بامتياز، لماذا لا نستطيع أن نحقق أحلامنا رغم أنها حق طبيعي؟ لماذا نتعثر دون سبب رغم صغر أمنياتنا؟

وكما يبدو أن كلامها لامس جرحا يشعر به أيضا المصور سامي، فقال:

- لأن حقوقنا ليست من حقنا! أنا مثلا التصوير هواية عندي، ولكني كنت أتمنى دراسة تكنولوجيا المعلومات وكان شغفي الحقيقي، ولكن لم يُسمح لي بدخول القسم بالجامعات الحكومية لاستيفاء العدد المطلوب من المقبولين، وبالطبع

رسوم هذا القسم مرتفعة جدا في الجامعات الخاصة؛ فاضطررتُ لدخول كلية الإعلام ولا أشعر أني أعيش الحياة التي أتمناها.

سكتنا كلنا فكلمات المواساة أحيانا لا تناسب الموقف، وبعد قليل قال بصوت خافت خجلا:

- حتى الزواج لم أستطع إتمامه رغم فترة الخطوبة الطويلة، وبت أخشى أن يمل مني أهل خطيبتي.

مازحه السائق وكان كبيرا في العمر قائلا:

- تقصد أن تمل خطيبتك؟

فرد سامي بحزم:

- لا، لن تغير خطيبتي رأيها أنا متأكد، الخوف من أهلها.

ضحك خجلا وضحكنا كلنا، ثم دار الحديث عن هؤلاء الناس الذين زرناهم وكيف يتخيل أهل القرى وخاصة الشباب منهم أن الحياة بالمدينة هي الحياة الحقيقية.

قلت لقاءاتي مع هناء وابتسام بسبب انشغالهن بالأطفال وتشابه اهتماماتهن مع بعضهن البعض واختلاف طريقي عنهن، ولكن الصغيرة سوسن ظلت محل اهتمامي؛ لذا كنت أزور أمها من أجل رؤيتها وقد قاربت العام فظهرت طفلة جميلة وذكية، وكانت ابتسام تستعد لمولودها الجديد بخبرة أفضل وبقرار أن تبقى في بيتها عند الولادة؛ وبكل الأحوال كانت الزيارات تتقلص مع تفاقم مشاكل البلد إثر انفجار الوضع وتخبط البلد وسط متاهات مفزعة.

بعد أسبوعين من زيارتنا الأولى، جاءت بلقيس إلى حجرة مكتبي التي تحتوي على عدة مكاتب أخرى، وشدتني خارج الحجرة، وقالت لي بصوت خافت وهي تبتسم:

- لدينا مهمة جديدة، هل ترغين بالذهاب معنا؟

فقلت مبتهجة:

- نعم ولما لا؟ لا أعرف إلى أين؟، ولكني أود وبشدة مرافقتكِ.

قالت:

- لقد ط

- طلب المدير من كوثر عمل تقرير عن السياحة في دار الحجر، ولكنها اعتذرت بسبب قرب ولادتها وخوفها من جهد الصعود لدار الحجر، فطلبت مني أن أتقدم للمدير بطلب تولي هذه المهمة، وقد أبلغته أنك ستكونين مرافقة لنا فلم يعترض.

سررتُ بهذه المهمة فقد كان عملي بالمجلة مملا ومحصورا بمراجعة كتابات الزملاء للأعمدة الخاصة بهم؛ أو كتابة عمود صغير عن المواضيع التي تشغل المجتمع وقتها مثل العودة للمدارس أو المخيمات الصيفية للشباب وغيرها. انطلقنا مباشرة مع نفس الفريق (سامي المصور وسائق السيارة). وصلنا إلى دار الحجر بعد قرابة الساعة أو أكثر قليلا حيث يقع في منطقة اسمها الوادي لا تبعد كثيرا عن قلب العاصمة، ويعتبر دار الحجر من أهم المعالم السياحية في صنعاء، هالني الزحام الموجود على مدخله من الباعة بعرباتهم أو ممن يفترشون الأرض ويعرضون بضاعة

متنوعة؛ وعلى أي حال كان مصدر الزحام من الباعة وليس حركة سياحة لا من أجانب ولا من المواطنين فلم يكن هناك سياح مع زيادة الاضطراب بالبلد.

ظهر أمامنا القصر شامخا فوق الصخرة الكبيرة، وكان مكونا من سبعة أدوار متناسقة بتصميمها مع التكوين الطبيعي للصخرة (أساس البنيان) وعند بوابته توجد شجرة (الطالوقة) المعمرة التي يقدر عمرها ب 700 عام (بحسب ما قرأتُ في تقرير عن دار الحجر) صعدنا إلى أعلى مارين من البوابة بعد أن قطعنا تذاكر الدخول، ووصلنا إلى الدار عبر ممر واسع مرصوف بأحجار ضخمة توصل إلى استراحة، ويقع المفرج (مجلس)على الجهة الشمالية ويطل على حوض مائي دائري مبني من حجر الحبش الأسود. أخذ سامي بعض الصور، وأجرت بلقيس لقاءات سريعة مع أسرة يمنية جاءت لزيارة دار الحجر، ومن ثم مع مجموعة من الأجانب يصحبهم مترجمون وحراس اكتشفنا أنهم بعثة سياسية جاءت للمساعدة في إزالة الخلافات المتصاعدة في 2013 وبالطبع لديهم وقت للتجوال والسياحة، إذ يُعتبر دار الحجر من الأماكن التي ينشدها السواح وخاصة الأجانب فهو من أشهر المعالم في صنعاء. فكانت المجموعة محفوفة بحرس لم يسمحوا لبلقيس بالاقتراب إلا بعد موافقة رئيس المجموعة، ولم يُسمح بالطبع بأخذ صور لهم.

كان الصبية يحاولون إيجاد رزق بالترجمة للأجانب، وقد تعلموا مع الوقت الكثير من العبارات الإنجليزية والروسية من الأجانب الذين يمرون على المكان، ولكن الحرس كانوا لهم بالمرصاد، وقد صاح أحد الحراس بكل غلاظة " هؤلاء ليسوا سواحا لم يعُد هناك سواح! أبعدوا من هنا".

وكان محقا؛ فلم يعد هناك سواح كانت فترة ركود كبيرة، تتضح ملامحها وسط الانشغال اليومي بأمور الحياة. أنهت بلقيس تقريرها ولم تكن راضية عنه لما يحمله من صورة قاتمة عن موت السياحة في اليمن، والتي كانت ضعيفة بطبيعتها، فهذا دار الحجر يقع في الوادي الذي تنتشر فيه مزارع العنب، وكان يمكن ترميم الكثير من بيوته القديمة وتحويلها إلى فنادق جميلة ذات طابع قروي للسواح وطالبي الراحة من المواطنين وسيكون مورد دخل لأهل الوادي الذين ما زالوا يعيشون فيه ويصدرون العنب للمدينة، ولكن أبدا لم تحض السياحة في اليمن بأيدي مخلصة، وفكر متقد، وحماس، وتقدير. لم يكن التقرير الذي أعدته بلقيس تقريرا متفائلا، ولم يعجب الجهات المسئولة عن السياحة عندما تم نشره في عدد المجلة، ولكنه كان الواقع الذي تعيشه اليمن.

وذات يوم وبعد مرور عام على عملي بالجريدة، قدمتُ لرئيس التحرير مقترحا أن نعد إعلان عن استقبال مشاكل الفتيات عبر بريدي تحت اسم (مشكلتي) ونطلب من الفتيات مراسلتنا على بريدي الخاص عن مشاكلهن فأعيد صياغتها بطريقة جيدة مع تقديم مقترح الحل وننشرها في المجلة المطبوعة، وكنتُ قد شاهدتُ هذا العمل في مجلات عربية عديدة. وافق المدير وشدد على التدقيق بأنواع المشاكل والأكثر على نوع الحل المقترح قبل النشر.

لم يمض أسبوع حتى انهالت الرسائل على بريدي الالكتروني، رسائل طويلة – رغم طلبنا اختصار السرد – تحكي كلٌ منها حكاية معقدة ومشاكل متشابكة وتغوص بعضها بمشاكل مخلة بعاداتنا ومخلة بالآداب العامة، فزعتُ من وجود هذه المشاكل داخل مجتمعنا المحافظ واحترتُ بكيفية إعادة صياغتها والأهم ما هو الحل؟

سردت أحد النساء قصتها وكانت فحواها "إنها زوجة لرجل يعمل حارسا طوال اليوم، وقد عشقت صاحب البقالة المقابلة لبيتها الصغير، ولم تجد مانعا أن تنتظر خروج زوجها وتلبس عبايتها ونقابها وتنطلق خارجة، تركب الحافلة حتى تضمن أن لا يتبعها أحد أو يلاحظها من سكان حيها، وتنزل بأول وقفة للباص عائدة إلى حارتها وتتوجه إلى البقالة حسب الاتفاق. بررت فعلتها على أنه حب لا تشعر به مع زوجها وتشعر به مع عشيقها، وتسألني هل تطلب الطلاق؟ هل سيتزوجها صاحب البقالة المتزوج أصلا؟ وتحذرني أن لا اطلب منها أن تتركه لأنها لا تستطيع وأن سرها أمانة عندي وعند بنت الجيران الصبية التي تكفلت بإرسال الرسالة عبر بريد المجلة الإلكتروني". وبالطبع لم أنشر هذه المشكلة ولم يكن لدي حل لها على أي حال.

أما المشكلة الأخرى التي أفزعتني فكانت من صبية تقترب من السابعة عشر من العمر – كما كتبت– " أمي عليها ديون كثيرة تم حبسها على ذمة الدين وأعيش مع جدتي، أبي تركنا منذ زمن ولا ندري عنه أي شيء، أحب ابن الجيران وهو سائق تكسي أخرج من بيتي دون علم جدتي متغطية بعبايتي والنقاب وأذهب معه إلى منطقة جميلة نقضي وقتا مع بعض ونتحدث عن مستقبلنا معا، لم أعطيه أكثر من قبلات وعناق ولكن مؤخرا تقدم لخطبتي شخص آخر وعندما أخبرت حبيبي أني لا أريد أن أقبل بالعريس، نصحني ان أقبل، لأنه ما زال شابا وغير قادر على التقدم لي، على أن تظل علاقتنا كما هي ويمكن أن نطورها دون خوف، ما رأيك هل هذا حل؟" وأيضا لم أنشرها.

لم أفهم كيف يمكن للنساء البسيطات أن ينحرفن عن الأخلاق والقيم إلى هذه الدرجة وهن لم يُؤثر عليهن متابعة قصص الأفلام أو الروايات؛ لأن بيئتهن بسيطة ومحدودة ولا يتعاملن مع هذه الوسائل الحديثة وحتى التلفاز لا يملك إلا قنوات محلية محدودة كما أعرف عن هذه الأسر.

بدأتُ اختار القصص الأكثر شيوعا بالمجتمع وأعيد صياغتها حيث كانت أغلبها تحتوي على أخطاء إملائية ومطبعية رهيبة وأحاول أن أجد لها حلا مقيدة بتوجيهات مدير التحرير، لكن ورغم أنها مشاكل من واقعنا ورغم حياد إجابتي إلا أن المقال عندما نُشر حصد انتقادات كبيرة، شكك البعض بصدق هذه المشاكل واتهم البعض أني اختلقتها حتى أعطي لكتبي دعاية جديدة، وأني أحرض الفتيات على الشكوى ونشر أسرار الأسر... الخ، فتوقف الموضوع وبدأتُ اشعر بعدم رغبة مدير المجلة ببقائي فيها؛ فتركتُ غير آسفة على عام ونصف العام قضيته بكتابة إلزامية وتصحيح مسودات الآخرين ولم أستطع أن أجد الوقت والراحة للعودة للكتابة. حزنت زميلتي بلقيس على مغادرتي للمجلة واتفقنا على البقاء على تواصل، وهكذا تركتُ أول عملي لي دون أسف.

وبعد شهر من تركي للعمل بالمجلة، تقدم لخطبتي زميل كان معي في المجلة، ولم أشعر عندما كنت بالمجلة بأي اهتمام منه، فرحت أمي بالخطيب الجديد واحترتُ أنا! فهو جيد، ولكني لا أتخيل نفسي زوجة له. ذكرتني أمي أن صديقاتي أصبحن أمهات وأن عليّ أن أوافق. ولكني جهزتُ أعذار جديدة ومبررات قوية فلم يكن يهمني الزواج ولم أشعر بارتياح لهذا القادم، ولكن الله أعفاني من كل هذا حيث أكتشف أبي بالتحري عن الخطيب أن له زوجة وأولاد في القرية، وقد لا يكون هذا جرم بحد

ذاته، ولكن الجرم أنه أخفى هذه الحقيقة مبررا بعد اكتشافها أنها زوجة قروية ولا يوجد انسجام بينهما، فتم رفضه من قبل أبي.

عندما ناقشنا أنا وصديقاتي موضوع إخفاء العريس لزواجه السابق، وكيف يعتقد البعض ان من حقهم محو الماضي والبدء بحياة مختلفة دون وضع اعتبار لمشاعر تلك الزوجة التي لا ذنب لها في وجودها في القرية – وهو ليس ذنب أصلا – أو عدم دراستها. كثير من الشباب الذين يتزوجون في عمر مبكرا ثم يأتون إلى المدن لإكمال دراستهم ومن ثم يواصلون العمل في المدينة، فبدل من احتضان أسرهم ورفعها معهم للحياة الجديدة، يتنكرون ببساطة لتلك الأسر ويرمون مسئوليتها على الأهل.

بقيتُ فترة دون عمل حتى أخبرتني صديقتي بلقيس أن أحد المدارس تحتاج لأخصائية اجتماعية، وأن الراتب جيد جدا وللمدرسة عدة فروع كما أنهم يوفرون المواصلات. فرحتُ بهذه الفرصة وخاصة أنه عمل سيتيح لي التعرف على نماذج من مشاكل الفتيات في المجتمع، وفرحتُ أيضا بموضوع المواصلات وخاصة أن المواصلات العامة في تلك الفترة أصبحت مخاطرة ورغم أني وُفقت بالحصول على موافقة أبي وحصلت على سيارتي الخاصة، إلا أني لم أكن أقودها دائما فقد انتشرت في الشوارع فوضى غريبة وكنا ندخل نفق دون أن نعرف، وكان أخي الذي كان يقوم بتوصيلي أحيانا قد انشغل أكثر بعد التخرج بفتح مكتب هندسي مع أبي وأحد زملائه، وأمي قد بدأت مشوارها بالبحث له عن عروس.

أحلام الأمهات

في منتصف 2014م انشغلتُ بحرصٍ أكبر مع ولادة ابتسام تعويضا لها عما كان لا يزال يرقد بأعماقها من حديث زوجها رغم مرور الوقت! قابلتُ زوجها بالمستشفى فأحسستُ أني لا أوده ولا أحترمه ووجدت الفرحة التي على وجهه لا يستحقها بعد أن جرح الأم بالأعماق، وأهانها واليوم يتلقى هديته دون أي معاناة وبكل أريحية، عجبي!!!

كانت ولادة ابتسام صعبة وخاصة أنها كانت حامل بتوأم، ولكنها تحملت وجاهدت وأخرجت للحياة طفلين عماد وعمر فصار لديها ثلاثة أولاد. ولأننا لم نخبر هناء بتلك الحكاية؛ فقد راحت تصف لي – وهي تشاهد زوج ابتسام يطبع على جبينها قبلة – عن روعة الأسرة عندما يزيد أفرادها وكيف يُرسخ هذا أسمى المعاني الجميلة، وعندما لم تجد مني تجاوب صمتت معتقدة أني ولا شك أفكر بنفسي وأنها أخطأت بذلك التعبير.

مرت فترة ولادة ابتسام مرورا جميلا؛ وعادت لقاءاتنا وحديثنا يتخلله لعب وبكاء الأطفال، وكانت كل منهن ترشح لي صديق من أصدقاء زوجها أو من أصدقاء شقيقها فنضحك متخيلات لو أن الفتاة هي من تذهب لخطبة الرجل! وعندها خطر ببالي هذه الفكرة، سألتهن لو كان هذا مسموح هل كانت كل منكن تقدمت لزوجها؟ ردت هناء بسرعة ودون تفكير وهي تجاري المزاح الذي بيننا نعم لما لا، بينما ردت ابتسام بحدة قائلة بالطبع لا. تفاجأت هناء وشعرت أن في الأمر حدثا

ما، فلفتت إليّ متسائلة بعيونها عن السبب؟ أغلقت باب الحجرة تجنبا لتسرب القصة للخارج، وقصت ابتسام قصة الفيسبوك والمقارنة بينها وبين زميلاته؛ وجمت هناء وتغير لونها، ولم تعاتبنا لأننا لم نخبرها كما توقعنا، ولكنها قالت لنا بصوت ضعيف:

- أن من يريد الخيانة أو الزواج الثاني لا يصعب عليه الأمر ولا يحتاج لفيسبوك.

ثم أخبرتنا بسر مفاده أن أخاها جهاد قد تزوج من ابنة جيرانهم قبل أسبوع علنا ودون مقدمات وبحفل قاصر على أهل العروس وفي منزلهم، ولم يأبه بزوجته سامية أو أمه أو خالته (أم سامية) أو رأي الأسرة متعللا أن الشرع أحل له ذلك، وأنه أحبها، لم يتم الإعلان عن هذا الزواج من قبل أهل جهاد أملا ان تكون نزوة عابرة وأضافت:

- لم تقبل سامية زوجة أخي هذا الوضع من شريكها وابن خالتها فطلبت الطلاق، وعادت مع ابنتها الطفلة إلى بيت أهلها تاركة خلفها بيتها الجميل، ومازالت المفاوضات جارية بين أهلي وأهلها ودون تدخل أو اهتمام من أخي، ولكنه هدد إذا طلبت الطلاق فعليها ترك الطفلة.

تفاجأنا أنا وابتسام وخاصة أن سامية شابة مرحة جميلة ولأنها درست فنون جميلة فهي تطبق ما تعلمته على منزلها فأصبح رمزا ومثالا للجمال إلى جانب أنها ابنة خالته وقد تزوجا عن حب وتفاهم.. تخلت سامية عن حياتها مع زوجها وعن عشها الجميل؛ لأن قلبها لم يستطع تحمل الغدر والخيانة. كان هذا الخبر صدمة لنا، فنحن نعرف سامية وجهاد وكانا رمزا للأزواج المتفاهمين السعيدين، فلما حدث هذا؟

شارفتُ على الانتهاء من النسخة الأولية لكتابي الثالث ولم أعط له اسما بعد، ولكن محوره كان مستمدا من تلك القصص التي وصلتني ولم يُجز لي نشرها. أرسلت النسخة المبدئية للكلية كالمعتاد حتى تعطيني الدكتورة ابتهال رأيها وتجيز النشر. تفاجأت بعد عدة أيام برسالة رسمية من الكلية أن الكتاب مرفوض وإن تم نشره من قبل جهة أخرى سوف أتعرض للمساءلة، فمحتوى الكتاب غير لائق ولا ينطبق على المجتمع اليمني المحافظ والقصص المكتوبة فيه مستوحاة من خيال الكاتبة المريض! استغربتُ ليس فقط للرفض لكن للأسلوب غير المعتاد بالرد! لم يطل استغرابي فقد وصلت بعد الرسالة الأولى مباشرة رسالة من بريد أستاذتي الشخصي تبلغني بضرورة المرور عليها غدا في الكلية.

ذهبتُ في اليوم التالي إلى الكلية وأنا آمل أن أجد تفسير طبيعي لتلك الرسالة، ولكن فور دخولي الكلية أحسستُ أن هناك شيئا غير طبيعي؛ وتأكدتُ عندما دخلتُ مكتب الدكتورة، فوجدتها تجمع أغراضها الشخصية، جلست هي على الكرسي بمجرد أن شاهدتني أدخل وطلبت مني الجلوس؛ وقالت لي:

- اليوم آخر يوم لي بالكلية لقد أُجبرت على الاستقالة! وغدا ستأتي دكتورة جديدة لتأخذ منصبي فلم أعد شخصا مرغوبا فيه لأني رفضت الكثير من القوانين التي يودون فرضها في الكلية.

ثم أخفضت صوتها وقالت لي:

- أنصحك أن تخفي كتابك؛ مع الأسف أنك أرسلتِه لبريد الكلية وليس لبريدي، ولكن من الأفضل لك أن تنسي موضوعه.

سكتُ وأحسستُ أني لم أعد في البلد الذي أعرف، نهضت أستاذتي وطلبت مني عندما علمت أني جئت بسيارتي أن أوصلها للبيت لأن زوجها قد يتأخر وهي لم تعد ترغب بالبقاء دقيقة واحدة في هذا المكان الذي عملت فيه مدة عشرين عاما منذ أن كانت معيدة. وهكذا خرجنا من الكلية صامتات، يمر بخيالي مراحل دراستي في هذه الكلية ولا شك ان خيال الدكتورة كان مزدحما بأكثر من عشرين سنة من الذكريات.

درستنا دكتورة ابتهال مقررات كثيرة أثناء دراستنا الجامعية، ربطتنا معها علاقة جميلة ربما لأنها كانت لطيفة متفهمة تحسن الاستماع وتحسن النصح صافية القلب والنية؛ ترقت إلى عميدة في الكلية بعد تخرجنا، وكانت تقرأ رواياتي وتقدم لي النصح، كما أقامت لي فعالية لمناقشة روايتي الأخيرة، ودعمت إصدار كتبي التي صدرت بدعم من الكلية بتوجيه منها. وكان زوجها أستاذا في قسم التاريخ وله مؤلفات كثيرة، وابنتها نجوى دخلت نفس كليتنا في العام الأخير لدراستنا، وهي مخطوبة لابن عمها سعيد، وتستعد للزواج مباشرة بعد التخرج، تتحدث عن خطيبها بمحبة وترسم أجمل الصور لمنزلها المستقبلي، كانت رقيقة المشاعر طيبة الخلق، وللدكتورة أيضا ولدان سليم يدرس في الجامعة وسالم مازال في المدرسة.

طلبت مننا هناء اللقاء بها في أي مكان خارج منازلنا، ولأن قبل بضعة أيام حدث انفجار كبير لم نعرف مصدره؛ فعم الحزن البلد لعدد الضحايا الذين لم يعلموا لما قُتلوا، زادت القيود على الخروج، فاخترنا مكان قهوة من تلك التي انتشرت حديثا في اليمن وصُممت بشكل حديث وجميل، وكانت قريبة من منزل هناء. جاءت هناء

مع ابنتها كما جاءت ابتسام مع ابنها الكبير فقط، طلبنا القهوة وجلسنا منتظرين ما ستقوله هناء.

أُغرقت عيناها بالدموع – قبل أن تتكلم – فمسحت دموعها ابنتها الصغيرة بحب وحركة عفوية، قالت هناء بصوت مخنوق:

- سامية أخذت ابنتها ورحلت إلى أمريكا حيث يعيش عمها، لم نعرف مطلقا عن الخبر أو التجهيز، إن أمي تبكي ليل ونهار وتفتقد حفيدتها كثيرا وتحزن على سامية أكثر.

سكتت قليلا ومسحت دموعها التي تتسرب من النقاب وقالت:

- كيف استطاعت أن تفعل هذا؟

ردت عليها ابتسام بعبارة واحدة وبصوت حاد:

- ما شاء الله، قوية، هكذا يجب أن تكون النساء قويات لا يقبلن الذل.

سكتنا كلنا وساد صمت طويل، كنا نعلم ان سامية ولدت في أمريكا عندما كان أبيها مغتربا هناك، ومن ثم قرر ان يعود لليمن عندما كانت سامية لا تزال طفلة، وبالتالي كان لدى سامية الجنسية الأمريكية وجواز السفر الأمريكي، التي لم تتخيل أنها ستحتاج لهما في يوما ما، بالعكس كنا نمازحها أحيانا أنها ليست يمنية أنما أمريكية، فتغضب وتأكد لنا عدم اهتمامها بهذه الجنسية وعدم انتماءها لأمريكا باي شكل من الأشكال وخاصة أنها غادرتها طفلة. شربنا القهوة كيفما كان دون تذوقها ودون أن نستمتع بالمكان الجميل الذي نجلس فيه. وكنتُ أتفكر كيف يخلق

القهر قوة! فسامية الفتاة الرقيقة تنطلق إلى أمريكا مع ابنة صغيرة، حتى وإن كان عمها هناك، فهي لا تعلم ما ينتظرها ولا هل ستستطيع التأقلم أم لا؟ أي قهر هذا الذي جعلها تنطلق دون أن تلقي نظرة خلفها، وكيف شعر أهلها بمعاناتها ووافقوا لها على هذه الخطوة غير المعتادة في مجتمعنا.

لم يكن لقاءنا التالي بأفضل من الأول، ولكنه كان في منزل ابتسام لأن المشاكل كانت قد زادت واكتسحت البلد فوضى كبيرة، اجتمعنا هذه المرة بطلب من ابتسام وعندما ضمتنا حجرة المعيشة في منزلها، وكان زوجها في الخارج، أعطينا الأطفال طبق حلويات؛ والتفتنا نحو ابتسام منتظرات الأخبار التي كانت تبدو غير سارة، فقالت:

- أخي نبيل يحضر جلسات يسميها بجلسات توعية ليس هذا فقط، ولكنه سحب شقيقاتي التوأم معه وقد بدأن بلبس نقاب وعباية عريضة جدا.

سكتنا نحاول أن نستوعب الأمر... أكملت ابتسام حديثها:

- هل تصدقن أنه يكفرنا ويقول إن صلاتنا غير صحيحة وكلام كثير غريب لم نسمع عنه من قبل! أما شقيقاتي اللاتي لم يكملن السابعة عشر، فقد قررن عدم ضرورة الالتحاق بالجامعة وقررن الانضمام لجمعية نسائية تقوم بتدريب النساء على حمل السلاح! إن أمي لم تعد تتوقف عن البكاء ولا تعرف كيف تثنيهن عن قرارهن.

عاد الصمت يلفنا ولم نستطع بالطبع مواساتها؛ ولم أستطع أن أتخيل ما يحدث وما الذي أثر على نبيل والتوأم بهذه المهارة! تبادلنا مخاوفنا وظهر أمامنا المستقبل

مخيفا...كانت كلمات وحديث مُحَمَّد وسوسن مع بعضهم البعض الحديث الطفولي يزيدنا خوفا عما ينتظرهما؟

عدتُ إلى المنزل وأنا أتأمل طريقي؛ وكيف بدا كأن كل شيء يتغير؛ هناك شيء غامض يتحرك خفية حولنا، ولكننا لا نراه. وصلتُ المنزل وقصصتُ لأمي ما حدث؛ فلزمت الصمت فقد علمت هذا الخبر من صديقتها؛ ثم قالت لي متأملة الوقائع التي تحدث ولم نألفها من قبل:

- إن أم ابتسام تمر بفترة صعبة ورغم ان الفتيات لم ينضموا للجمعية بعد، فأنها باتت تخشى ان لا تستطيع هي أو زوجها منعهما. وكذلك أم هناء ومقاطعة شقيقتها – أم سامية – لها سبب لها حزنا كبيرا، وكذلك خلاف الزوجة الجديدة مع جهاد عندما انتقلوا إلى منزل سامية فقد بدأت تنشر صور بالفيسبوك للوحات وتصاميم سامية مدعية أنها لها ومتباهية بذوقها، ولم يعجب هذا جهاد وزادت الخلافات حدة عندما رفض طلبها لتطليق سامية رغم سفرها.

قيدت المشاكل في البلاد في 2014م جلسات ولقاءات الجميع وخاصة –النساء– بالطبع، واقتصرت على المتقاربين سكنيا وضمن مجموعات قليلة، لذا كان اجتماع أمي والخالة هدى والخالة ليلى فقط فرصة لنا كلنا أنا وهناء وابتسام وشقيقاتها التوأم أن نجتمع معهن.

كانت الاجتماع في بيت أهل ابتسام، وكان مقصور علينا فقط، جلسنا في الديوان – مجلس أرضي خاص بالضيوف – كانا الأمهات يتناولن القات وأمامهن زجاجات الماء وشراب الشعير، والغرفة تعبق برائحة البخور من مبخرة فوق الطاولة، وكنا كلنا

البقية محتلات زاوية ونتحدث مع بعضنا البعض ونحاول ان نتفاءل بأنها مرحلة وستمر، بينما انشغلت التؤام بملاعبة الأطفال تارة وتارة بهواتفهن.

امتد حديثنا عن الأوضاع الحالية إلى الأمهات وبدأت جلستنا بحديث مشترك عن مشاكل البلد وكل واحدة تدلوا بدلوها – ماعدا التوأم يلزمن الصمت– وناقشنا الأمور كأفضل محللي السياسة ما بين جدية وضحك؛ وتحدثنا كيف أصبحت الأخبار في التلفاز كلها عن سوريا واليمن ومصر، وكيف تناقش المذيعات والمذيعون الضيوف ويحاوروهم كأنهم على علم ودراية بما يحدث في الربيع العربي... وعندما سكتنا كلنا للحظات، قالت لنا الخالة ليلى وكأن الحديث عن المذيعات أعاد لها ذكرى ما:

- عندما كنتُ شابة صغيرة كنت أحلم أن أكون مذيعة.

ثم عدلت صوتها وبدأت تقلد نشر الأخبار بصوت قوي جهوري؛ وتسرد الأحداث الأخيرة مثلما يتم على شاشة التلفاز؛ وعندما أنهت نشرتها ضحكت وصفقنا لها بحماس؛ وكان المدخل الذي قادنا لأحلام الأمهات... ضحكت الخالة ليلى وقالت:

- عندما تزوجتُ رافقتُ زوجي إلى مصر حيث كان ينهي عامه الأخير في جامعة القاهرة؛ وهناك تفاجأتُ بالحياة المختلفة عن اليمن تماما؛ خلعتُ العباية والحجاب واكتفيتُ بوضع وشاح خفيف على شعري، وكثير من النساء اليمنيات فعلن هذا أيضا تشبها بالمصريات.

أكملت الخالة ليلى حديثها وقد حمستها الذكريات فبدت مختلفة عن الوجه الصموت المعتاد:

- أحببتُ عمل المذيعات وانبهرت به جدا؛ وأحببت أناقتهن وجمالهن وقدرتهن على المحادثة وإدارة الحوار؛ وتمنيتُ أن أكون مثلهن وأن أعمل مذيعة في التلفاز كمقدمة لنشرات الأخبار والتقارير المتنوعة، أو حتى برامج المقابلات، هل تصدقين!؟

سكتت مسترجعة ذكرياتها ثم قالت:

- هل تصدقين ان جارتي المصرية شجعتني وذهبت معها وأجريت اختبار للصوت في مبنى الإذاعة والتلفزيون، وأنهم أشادوا بصوتي، وطلبوا مني أن أدخل معهد للحصول على دبلوم يؤهلني للعمل.

سألناها وبعد ماذا حدث؟، ضحكت وقالت:

- أعلن نبيل –ابنها البكر– عن قدومه فتوقفت كافة المشاريع وعلى أي حال عدنا لليمن قبل أن أنجب نبيل؛ فقد أنهي أحمد دراسته.

سألتها ابنتها ابتسام:

- وهل نسيتِ الحلم يا أمي؟

سرحت أمها قليلا وقالت:

- ليس تماما فذكرى ذلك الاختبار والإشادة بقوة صوتي تمر عليّ بين حين وأخر، فأتخيل نفسي مقدمة برامج، ولكني لم أعد أتخيل أن بإمكان هذا الحلم أن يتحقق؛ فنحن جيل بلا أحلام.

لفتنا إلى الخالة هدى نحثها على استرجاع الذكريات والاعتراف بحلمها هي الأخرى؛ وكنا نعرف أنها حصلت على درجة اللسانس من كلية الآداب (لغة عربية) ضحكت الخالة هدى وقالت:

- نعم، كنتُ أتمنى أن أكون صحفية وأن أتخصص برصد أخبار الجرائم في المجتمع وتحليل أسبابها، والتوعية بأخذ الحيطة منها.

ضحكت وضحكنا معها وأكملت:

- في الواقع لقد تحدثتُ عن هذه الأمنية مع زوجي بعد أن أنجبت جهاد، ولكنه رفض فكرة العمل برمتها حتى كأستاذة في مدرسة؛ لذا لم أعد أحلم بأي شيء، واكتفيتُ بالبيت وتربية الأولاد.

كان ضروريا أن يكون الدور على أمي؛ فتوجهت نظراتنا الضاحكة نحوها، فقالت:

- كما يبدو أن أحلامي تأخرت.

ضحكنا كلنا على إشارتها لكتاب الحلويات، ثم أضافت:

- ولكن بما أن اليوم جلسة اعتراف، فأود أن اعترف بأني كنت أحب الغناء وكان صوتي جميلا، وعندما كنتُ طفلة كنتُ أعبر بحرية أني أود أن أكون مطربة، وكان الكل في الأسرة يشيد بجمال صوتي وبإتقان أداء ألحان الأغنيات التي أغنيها، وعندما وصلتُ لبداية سن الشباب كنتُ أغني لصديقاتي في المدرسة وفي حفلاتنا الخاصة بنا نحن البنات، ولكن عندما خُطبت حذرتني أمي من هذه

الهواية، وقالت لي أن الغناء محرم، وأنها لا تود مني أن أمارس هذه الهواية أمام أهل زوجي نهائيا، ففهمت قصدها ولم أعد للهواية.

هالني هذا الاكتشاف وتذكرتُ خالتي هاجر وصوتها، وحدثتُ نفسي هل هي موهبة وراثية!؟ وهل تعلم أمي عن خالتي هاجر؟

ضحكت الخالة ليلي وقالت ممازحة صديقتها:

- ومع ذلك نريد الآن أن نسمع يا سميرة، على الأقل لنعرف ماذا خسرت البشرية.

وضحكنا كلنا لكننا شاركنا طلب الخالة ليلى وطالبنا بسماع صوت أمي. لم تتردد أمي كثيرا على العكس كأنها سعدت بذلك، سكتنا كلنا ومرت ثوانٍ وبدأت أمي بالغناء لنجاة الصغيرة

"القريب منك بعيد والبعيد منك قريب
كل ده وقلبي اللي حبَّك، لسه بيسميك حبيب.
حبيب عينيّا، حبيب أحلامي، حبيب دموعي وألم أيامي
حبيب عينيا. حبيب أحلامي. حبيب دموعي وهنا أيامي
أهون عليك أسهر بآلامي وتِتوه نجوم الليل في ظلامي"

أنساب صوتها بشكل سحري وجمدنا كلنا ونحن نسمع لها، حتى التوأم توقفتا عما كانتا تطالعاه في هواتفهن واستمعن لأمي بذهول! واصلت أمي غناءها وكأنها نسيتنا

وتعيش في عالم آخر، ثم توقفت فجأة ولم تكمل الأغنية، ولكن قطعتها بضحكة ثم قالت:

- لم يعد نفسي طويل، تلك أيام وانقضت.

ذُهلت! كان صوت أمي شجيا جدا وعميقا يصل للقلب مباشرة، سرحتُ قليلا وأنا أذكر أمي في طفولتي وهي تمزق دفتري الصغير، لماذا نكرر ما عانينا منه على الآخرين؟، لماذا نُسقط ما عرقل أحلامنا على الآخرين وبنفس الطريقة؟ قطعت علىّ ذكرى الماضي إشادة الجميع بصوت أمي، وكانت الخالة هدى تقول:

- ولما لم تشاركينا في جلساتنا الصغيرة؟

فردت أمي ضاحكة:

- عملت بنصيحة أمي.

ضحكت ابتسام، وسمعتها تقول بمرارة:

- رغم أننا جيل جديد عن الأمهات وقد تميزنا بدخولنا الجامعة، ولكننا لم نحقق أحلاما، بل ولم نحسن حتى الحلم، لا أذكر أني كنتُ أحلم إلا بالانتهاء من الكلية بأي صورة كانت.

صمتت قليلا ثم قالت:

- الحقيقة أني كنتُ أحلم أن أكون مثل دكتورة ابتهال، كنتُ أتمنى أن أجد نفسي جالسة على مكتب مثل مكتبها لكني لم أحلم بمزاولة عمل معين.

فضحكنا كلنا وعلقت أمها:

- نعم، لا وقت لديكِ للعمل ولا تحبينه منذ صغرك.

قالت هناء:

- أنا أيضا لم أهتم بالعمل، ولكن عندما تابعتُ عمل سامية أحسستُ أنه كان عليّ دخول كلية الفنون الجميلة فكل ما تفعله سامية كنتُ أحبه جدا وكنت أساعدها بشغف.

صمتت قليل ثم أكملت:

- ربما دخلت كلية خطأ، أو لم نحسن الحلم كما قالت ابتسام.

لفتت إليّ أمي وقالت:

- على الأقل أنتِ يا نادية مشروع كاتبة فهل هذا هو حلمك؟

أجبتُ:

- نعم كاتبة، ولكن في زمن آخر ليس مثل الزمن الذي نعيشه، كاتبة تعبُر كتبها المسافات وتسافر إلى أيدي الناس وعقولهم، أحلم أن أكون كاتبة قادرة على أحداث تغيير، ولكن بهذا الزمن أعتقد أني سأتحول إلى موظفة في مكانٍ ما وتنتهي كتبي على رفوف مكتبات لا يدخلها أحد!

كان على التوأم أن تشاركا، ولكنهما رفضا ولم تتكلما! فقالت الخالة ليلى والدتهن:

- عليكن دخول الجامعة وبعدها احلمن حلما مقبولا.

ضحكنا كلنا وعدنا نتبادل الحديث المتفرق عن العادات والتقاليد وتطرق الحديث إلى صراع 1994م وكيف كان صراعا قصيرا وسريعا، وتذكرت أمهاتنا كيف بدأت صداقاتهن عندما كن في ذلك الزمن...جارات عشن ظروف متشابهة، ثم تباعدت البيوت عندما انتقلت كلٌ منهن إلى منطقة أخرى، ولكن ظلت صداقتهن دائمة وانتقلت الصداقة لنا بشكل مباشر. كانت جلسة جميلة جدا تواعدنا بتكرارها لكني في أعماقي شعرتُ أنها لن تتكرر.

رعب الحرب

كان المحتجين في الخيام يتسربوا من الخيام إلى كافة مؤسسات الدولة، لم نستوعب إلا وهم بالقصر الجمهوري. لم أداوم في العمل الجديد إلا شهر فقط ووجدنا الحرب تهبط علينا مفاجأة رغم كل المؤشرات التي تغابينا عنها! ومنها تغير كل شيء حولي وحول الجميع فالكل حصل على نصيبه من التغيير.. كان ذلك في بداية عام 2015 م عندما استيقظت صنعاء فجر ذات يوم على أزيز طائرات حربية، وكانت بداية الحرب.. مرت الأيام التالية بغرابة لم نعرف هل نتوقف عن عمل أي شيء أم نستمر؟! توالت الأيام مصحوبة بانفجارات وضحايا هنا وهناك. قررنا أن يتم زواج أخي سمير كما هو مقرر، ولكن في منزل العروس وبحضور عدد محدود من الضيوف، وانتقلت العروس إلى منزلنا بجو يمثل الفرح، ولكنه كان أبعد ما يكون عنه، وذهبت أدراج الرياح كل الأموال التي دُفعت لحجز الصالة ومطربة الحفل وحجز طعام الضيافة الذي كان سيُقدم للضيوف. ومثل ما خسرنا نحن وأهل العروس، خسرت الكثير من الأسر التي كانت تستعد لحفل زواج أحد بناتها أو أبنائها، ولكن الخسارة الحقيقية كانت تحدث لليمن يوما وراء يوم.

الانفجارات كانت تتوالى علينا يوميا بشكل شرس، وبضراوة عدو خزن حقد لعقود كثيرة، لم تسلم من الضربات – والتي كانت تستهدف مواقع عسكرية معينة كما كانوا يعلنون– مساكن المواطنين والمساجد وقاعات الأفراح وصالات العزاء

والجامعات والمستشفيات، وكانت الحجة الدائمة أن الأسلحة مخزنة بين تلك البيوت والأماكن السكنية... ويا لعجبي!!

كانت أصوات الانفجارات تهز بيتنا وبيوت الآخرين وتتهشم الكثير من النوافذ في أفضل الحالات، لم أشعر بالعجز ولا بالغضب ولا بالإهانة ولا بالخوف كما كنتُ أشعر مع كل انفجار! كنا نتابع أخبار الانفجارات ونعدد الضحايا المدنيين ويكتب من يكتب ويصرخ من يستطيع الصراخ عبر الوسائل الاجتماعية علّ أحد يسمعنا في العالم، ولكن لا حياة لمن تنادي.

تكسرت نوافذ أغلب البيوت وتدمرت محلات البعض وانهارت عمارات ورحل الكثير من الابرياء، ونحن بين هذا وذاك نحلم بأنها أيام وستمضي، وإن كنا ندفع ثمن لا نعرف من أجل ماذا؟

مرت الأيام والأسابيع والشهر الأول ولم تتوقف الحرب كما اعتقدنا، بل زادت عنفا وشراسة، وهطلت القنابل والصواريخ على تلك الأرض المسالمة دون رحمة أو شفقة ودون حتى تبرير، وبدأت بعض الأسر بالرحيل عبر المنافذ المتوفرة وبمشقة كبيرة، رحلت أسرة ابتسام عبر المنفذ الوحيد إلى السعودية ومنها إلى تركيا مع الشقيقات التوأم وأمجد الذي كان يمر بحالة نفسية سيئة نتيجة ما حدث من شقيقه الأكبر وأفكاره الجديدة، بينما انضم نبيل للجبهة. ورحلت ابتسام معهم ومع أبنائها على أن يلحق بهم زوجها حسب الاتفاق، رحلت أسرة هناء أيضا، ولكن إلى مصر ومعهم الأولاد حسام وجهاد وزوجته الجديدة، ورحلت كذلك أسرة زوج هناء ومعهم هناء – وكانت حامل– وزوجها وابنتها.

قرر أبي كما قررت الكثير من العائلات الرحيل إلى الداخل – إلى قريتنا ومسقط رأس أبي– حزمنا القليل من أمتعتنا، ورحلنا على أمل أن تكون الحرب فترة قصيرة نعود بعدها لأعمالنا وحياتنا.

وصلنا القرية التي كانت ساكنة فوق أحد الجبال الشاهقة وقت الظهيرة والشمس ساطعة بقوة، ولكن الجو يميل للبرودة. كان منزل جدي لأبي كبيرا وحديث أو بمعنى أدق تم تحديثه بحيث أصبحت كافة مرافقه حديثة وجيدة، رأيتُ من حولي جمال منقطع النظير، واستغربت أن تلهونا الحياة فلا نأتي إلى هنا إلا فيما ندر.

كانت بعض من نساء القرية قد قمن بالواجب وحضرن الطعام المعتاد بالقرية؛ فأكلنا وجلسنا بالأخير في المقيل الخاص بنا نحن ونساء القرية بينما نزل أبي وأخوتي إلى المقيل بالطابق الأسفل مع بعض من رجال القرية وبعض النازحين من المدينة.

جلستُ أتابع حديث النساء وسردهن للأخبار العامة وأخبار القرية وأهم الأحداث فيها من زواج، أو ولاد أو موت أو غيرها من أمور الحياة العامة؛ جاءت إليّ بعض صبايا القرية وقد جمعن كمية كبيرة من الزهور التي تنمو بين الجبال، وقدمنها هدية لي ولزوجة أخي، وهن يتضاحكن مسرورات بوجودنا؛ واقترحت إحداهن أن نذهب إلى الخارج حتى نتعرف على القرية طالما نحن لا نتناول القات كبقية النسوة؛ كنّ تقريبا عشر فتيات تتراوح أعمارهن ما بين العشر والخمسة عشر تقريبا. خرجنا معهن ومشينا فوق الجبال – وقد صار الجو أكثر برودة – جميعهن يرتدين الحجابات القروية ووجوههن مكشوفة، وفوق أحد الجبال جلسنا نتبادل أطراف الحديث. قالت إحداهن:

- مريم متزوجة حديثا.

وضحكن البقية خجلا بينما غطت مريم وجهها فميزتُ أياً منهن هي مريم، يبدو سنها تقريبا في الخامسة عشر طويلة وقوية البنية. صرّحت أحداهن بصوت خافت:

- ولكنهم لم يتفقوا بعد.

لم أفهم، فنظرت إلى مريم مشجعة لها على الحديث فقالت:

- أنها تقصد أننا لم نصبح زوجين فعليا.

فكان ان عليّ السؤال عن السبب رغم أنه شأن خاص جدا، ولكنهن يتحدثن عنه كأنه شأن عام، ردت مريم وهي تبتسم خجلا:

- مازال صغيرا.

لم أفهم أيضا سألتها:

- من هو؟

ردت ببساطة:

- زوجي إنه في العاشرة من عمره لذا لم نتفق بعد.

وأكملت دون سؤال:

- إنه ابن عمي وكان لازما أن نتزوج، ولا يوجد لعمي أبناء أكبر منه لذا قرروا تزويجنا.

لم أعرف ماذا أعلق، ووجدتُ نفسي أسال سؤال ساذج:

- وهل تحبينه؟

فضحكت وغطت وجهها مرة أخرى! بدا لي الموضوع طبيعيا فمريم كانت مسرورة ولا شك أن الطفل زوجها أيضا كان مسرورا...فلم أعلق.

وفي اليوم التالي أصرت أمي أن أرافقها لزيارة أحد النساء التي وضعت مولودا حديثا، وكان على أمي الذهاب لزيارتها مجاملة لأم الزوج. ذهبتُ مع أمي ووصلنا إلى حجرة الولاد وكانت مكتظة بالنساء الجالسات أرضا – دار ما دار– في الحجرة ويلي الصف الأول صفا آخر وتبقى من الحجرة منطقة صغيرة خالية ترتكز فيها المداعة (نارجيلة كبيرة) وتمتد قصبتها الطويلة وتمر على أغلب النساء الجالسات جلسة تخزين – تناول القات – صدمني الجو المشبع بالدخان والمزدحم إلى درجة كبيرة، بينما تم عمل فرش عالٍ جلست عليه النفاس التي يظهر على وجهها الإرهاق مع طفلها المولود.

- تم مجاملتنا وإفساح مكان قريب من الوالدة لي ولأمي، نظرتُ إلى المرأة كانت تقارب الثلاثين من العمر أو أقل، جميلة ملامحها باهتة من أثر التعب وبحضنها طفلها المولود، وبجانبها بالزاوية طفلان، سألتُها:

- هل هؤلاء أطفالك أيضا؟

أجابت بصوت واهن:

- نعم، ولدي اثنان آخران أكبر سناً.

لم استوعب ما قالت، فهي تبدو صغيرة وأعمار الأطفال متقاربة، ولكني ابتسمتُ لها وسكتُ... وما إن اقترب المغرب حتى نهضن النساء مرة واحدة مغادرات ونهضت معهن صاحبة البيت وأمي لتوديعهن، هدأ الضجيج وساد صمت في الحجرة وتنفست المرأة الوالدة الصعداء وقد تدفق هواء نقي من نافذة صغيرة استطاع أن يشق طريقه عندما خف الزحام.

ابتسمت لي المرأة ولا أدري لماذا فتحت لي قلبها كأنها تخفف من ضغط بداخلها، فقالت لي:

- هل تعلمين؟ منذ زمن زُفت أمي عروسا من اليمن إلى أمريكا حيث كان أبي مهاجرا هناك، فوُلدتُ وعشتُ في أمريكا مع عائلتي إلى أن بلغتُ سن السابع عشر قبل أن تتكرر الدورة بشكل عكسي.

سكتت قليلا ناقلة نظرها بين صغارها وقالت:

- تم تزويجي وزفي من أمريكا إلى اليمن وبالتحديد إلى القرية عروسا.

وأكملت:

- لا أدري كيف وجدت أمي حياتها في أمريكا، فنحن نعيش حياة بسيطة وضمن بيئة يمنية، لم أكن أعيش الحياة كما هي في أمريكا إلا أثناء وجودي في المدرسة، كان لي أحلامي، ولكن لم يكن وضعي الحالي أحدهم بالتأكيد، لم يكن لي أي حرية في اتخاذ القرارات وتحقيقها، لم أكن أحلم بهذه الحياة، ولكن..

وقبل أن تكمل حديثها دخل ولدان أكبر من الآخرين وجلسوا بطرف فراش أمهم صامتين.

لم تعاود الكلام فسألتُها في محاولة لتبديد الصمت:

- كيف كانت ولادتكِ؟

وكأن سؤالي لامس جرحا آخرا داخلها، تنهدت ونظرت مليا لأولادها ثم إلى الباب كأنها تخشى دخول أحد وقالت:

- لم تكن ولادتي لطفلي هذا سهلة، بل شاقة ومتعبة جدا، كل ولاداتي السابقة متعبة.

سألتُها:

- لماذا لا ترتاحين فترات مناسبة بين الولادات؟

فأجابت:

- زوجي مسرور جدا وهو دائما يقول ببهجة بأنه يرغب بتكوين قبيلة.

أخفضت صوتها وهمست بألم:

- يتجاهل تماما الثمن الذي أدفعه وحدي، وتأثير هذه الولادات المتكررة على صحتي وجسدي ونفسيتي لا يهم عنده التعب الذي أشعر به مع كل ولادة، المهم القبيلة التي لا أدري كم سيكون عددها قبل أن انهار! منذ أن تزوجته تحولت إلى أم وأم فقط، لم يهتم بي زوجي إلا من أجل مزيد من الأطفال، لا

حديث يدور بيننا، لا نخطط معا لحياتنا، ليس لدي صوت نهائيا، فقط صوتي مع أطفالي، حتى أهلي لم أرهم منذ سنوات وغير مسموح لي بزيارتهم في أمريكا.

وأكملت:

- أم زوجي تهتم بي بعد كل ولادة وتحرص على تغذيتي من أجل أن أستطيع أن أكمل القبيلة.

سكتت مع عودة أمي مع أم زوجها وهن يتحدثن كما يبدو عن الحرب، فسكتنا ونهضتُ بإشارة من أمي وغادرنا وأنا أودعها وهي تنظر إليّ معتذرة عن عدم إكمال حديثها أو شكواها، وقد شعرتُ بحجم معاناتها، وتخيلتُ أحلامها البكر في ذلك العمر الفتي في الأرض البعيدة.

مرت الأيام في القرية بطيئة، وجاء أبي ليلا في رابع يوم لنا في القرية وأخبرنا أن محلات بيع المستلزمات اليومية بدأت تخلو يوما بعد يوم وأن الإمدادات لا تصلهم من المدينة، وهذا يعني أن الطريق قد يُقطع تماما فلا نستطيع العودة. كما أن المشاكل وصلت إلى قرى أخرى لجأ إليها بعض من رجال السياسة، فحدثت مواجهات هنا وهناك وتفجير لبيوت عدد من الأشخاص المعارضين، لذا قرر أبي أن علينا العودة فجر اليوم التالي دون تأخير.

رحلنا قبل الفجر وقبل أن يستيقظ الناس، حملنا أغراضنا إلى السيارة وخرجنا والقرية مازالت متلحفة برداء آخر الليل؛ صاحبتنا كلاب القرية بنباح جماعي كأنها تستغرب الحركة في ذلك الوقت، ودع أبي بعض الرجال الذين أتوا للمساعدة وكان على وجههم الكآبة والقلق فالأخبار من المدينة لم تكن تسر أحد، ولم أستطع توديع

المرأة الوالدة ولا مريم وصديقاتها وتمنيتُ أن تبتعد عنهن وعن القرية الحرب وبشاعتها وتتركهن لحياتهن البسيطة التي هن سعيدات بها ولا يرغبن بشيء غير السلام.

أشرقت الشمس بعد أن كنا قد قطعنا شوطا كبيرا، توقفنا لتناول الفطور، ولكننا في الواقع لم نشرب غير الشاي ولم نستطع أن نأكل شيئا مما طلبناه من المطعم في ظل هذا الجو الغامض المشحون بالموت والانفجارات والطائرات.

وصلنا إلى منزلنا وقبل أن نضع أغراضنا في مكانها كان أبي يبلغنا بضرورة التجهيز للسفر إلى مصر عبر المنفذ الوحيد حيث أغُلق مطار صنعاء وكافة مطارات اليمن، وعُلق الكثير ممكن كانوا في مهام خارج الوطن، وعاني من عانى في سبيل العودة، ولم يستطع البعض إلا أن يفترش صالات المطار وينتظر الفرج.

قرر أخي البقاء في صنعاء لإدارة شئون المكتب الجديد وأصرت زوجته على البقاء معه، بينما مشروع أمي وصديقتها بفتح محل حلويات والذي لم يكتمل بعد تم بيعه بثمن بخس ورحل الحلم مع من رحلوا.

النزوح إلى الخارج

وهكذا أقترب العام 2015م من الانتهاء ونحن في بقاع مختلفة وأجواء غريبة لم نتوقعها ولم نألفها ولا تشبهنا؛ وما كان لنا من تواصل مع الذين في اليمن إلا عبر الفيسبوك ورسائل التلفونات.

كان سفرنا إلى مصر أول سفر لي خارج بلادي، ورغم أني كنت دائما أحلم بأن تتاح لي الفرصة لزيارة مصر التي أعرفها من الأفلام والمسلسلات إلا إني وجدت نفسي غريبة لا أنتمي لشيء ولا اعتاد على شيء وكذلك كان أمي وأبي وأخي الصغير، الشيء الوحيد الجيد أننا كنا نشعر بالأمان.

كنت أفزع من أي صوت عالٍ يحمل لي ذكرى صوت الانفجارات التي أصبحت مصاحبة لأيام وليال بلادنا، وأشاهد الحياة الطبيعية تسير أمامي فلا أشعر أني أنتمي لها، بقي جزءاً مني ومن قلبي هناك في اليمن... توقف عقلي عن التفكير وجدتُ نفسي أفقد القدرة على تحديد موقعي في هذا العالم، غريبة أنا وغريب تاريخي! كان لدي حلم صغير أن أصبح كاتبة معروفة في بلدي وكنت أسعى لتحقيقه، ولكن هنا... من أنا؟ مع الأسف أصبح الأمان فقط هو ما نريد مع وقف الأحلام.

فكرت ماذا أعمل هنا!! كم سيطول بقائنا؟ ماذا نعتبر أنفسنا هنا في مصر، هل مهاجرون؟ لا، ان الهجرة قرار واستعداد ورحيل نهائي عن الوطن ومعاملة طويلة، ما زالت أغراضنا في منزلنا في اليمن كما هي، ثيابي في الخزنة، الرواية التي كنت أقرأها فوق مكتبي الصغير مقلوبة على الصفحة التي وصلت لها، مفتاح سيارتي موضوع في

مكانه على الطاولة، ربما ستائر حجرتي ما زالت مفتوحة، كشف أسماء طالباتي اللاتي لم أتعرف عليهن بعد ما زال فوق المكتب يحتضن القلم بانتظاري، ولكن أين أنا وأين هم!!!. تداخلت أفكاري مع قلقي وشعرت أني بلا هوية، هل نحن ضيوف؟ ربما! وبكل الأحوال لا أدري ما هي الصفة الصحيحة لوجودنا هنا.

رغم أننا سكنا بعيداً عن قلب القاهرة إلا أني كنتُ أحرص إذا ما ذهبنا إلى داخلها أن أترك الجميع وأمشي وحدي على كورنيش نهر النيل أتأمل السائرين فيه مثلي وأتخيل أحلامهم، أمنياتهم، همومهم، وأظل شاخصة نحو نهر النيل فاقدة القدرة على محادثته، قلبي كان مدفونا تحت تراكم الأخبار السيئة اليومية التي تصلنا عن اليمن وتلك التي تصلنا عن أهلي وأصدقائي وحتى تلك الأخبار التي تصلني عن العائلات التي انطلقت دون هدى فعلقت هنا أو هناك... لم أستطع أن أتحدث مع نهر النيل لا أدري لماذا؟ ولكني شعرتُ أنه محمل بهموم بشر باحوا له بهمومهم على مر الزمن، حملها وأستمر بالتدفق رغم ثقل الهموم، وهل نتعلم منه!؟

كان نهر النيل جميلا رائعا تنساب القوارب فوق سطحه بسلاسة والأعلام ترفرف فوقها والبشر داخلها يرقصون ويغنون، وعندما يقترب الليل يضئ بأضواء المنازل والأماكن التي تجاوره فتنساب الأضواء فوقه تؤنس من وحشة الظلام وتشكل منه مهرجانا جميلا يأسر القلب قبل العين.

مصر! ها أنا أحققُ حلمي بلقائك، ولكن هل هذا اللقاء الذي كنتُ أنشده؟ لم أستطع أن أمنع دموعي من الانسياب ليس حزنا فقط، ولكن حيرة... حيرة كبيرة؛ فأنا لا أستطيع تخيُل الآتي، يفزعني هذا الشعور يرمي بي إلى قاع مظلم فلا أستطيع

رؤية أو أدراك أي شيء، ماذا بعد؟ إلى متى سنظل بحالة انتظار؟ يصل لمسامعي حديث الناس من حولي على الكورنيش، وأميز اختلاف اللهجات، يا إلهي! لقد تجمع كل المطحونين، كل فاقدي الأوطان هنا في مصر أم الدنيا.

لم أكن ألتقي بهناء كثيرا لبعد بيتها عنا ولانشغالها مع الحمل الثاني الذي كان صعبا بسبب حالتها النفسية، فانتقلت للإقامة ببيت أهلها ولم تتوافق مع زوجة أخيها الجديدة، فكانت على خلاف دائم معها، وكان جهاد يقف مع شقيقته وينتقد زوجته التي اعتبرت وجودها بالقاهرة إجازة جميلة وليس ظروف حرب.

كانت صور ابنته نادلين تظهر على صفحة أمها على الفيسبوك في أول يوم مدرسي لها هناك، فيطيل النظر إليها ويعود ويشاهد منشورات زوجته سامية – لم يتم الطلاق – وهي تكتب أخبارها بأنها التحقت بمعهد لتعلُم الرسم وتنشر صور لها دون عباية وبملابس جميلة وحجاب أنيق، لم تكن تلك الصور والمنشورات إلا مصدر ندم كبير له وهو يكنُ لها في الأصل حبا عميق.

وهكذا كانت تمر الأيام في فراغ كبير وملل قاتل وكآبة لم أعهدها من قبل، كنت أشعر ان حياتي انتهت وأن السنيين ستمر عليّ تاركة بصماتها المخيفة على مستقبلي، قاتم، أسود دون أمل.

كان هناك معهد قريب من مسكننا لتعليم اللغة الإنجليزية –يبدو جيدا– أبي هو أول من لمحه وشجعني للالتحاق به ودراسة اللغة لتحسينها وتقويتها بدلا من البقاء في البيت دون أي عمل. سررتُ كثيرا بالمقترح خاصة أني فعلا تركتُ نفسي للفراغ بشكل كبير فيومي ينقضي ما بين مساعدة أمي بأعمال المنزل وما بين قراءة

القصص بعقل شارد فلا أتنبه إلا عندما أجد نفسي رحلتُ بعيدا ورحلت أحداث القصة بعدا آخر فأتوقف وأتأمل ما حولي في محاولة لإيجاد حافز يخرجني من الأفكار المتضاربة في عقلي التي لا علاقة منطقية بينها ويلفها القلق والخوف وشيء من الفزع من المستقبل. أخرجني المعهد فعلا من الضياع الذي كنت أشعر به، وبنفس الوقت أعاد لي الرغبة بتقوية اللغة الإنجليزية فبدأتُ متابعة الدروس في المعهد وبعض الدورات وفيديوهات اللغة الإنجليزية في المنزل، فوجدت مبتغاي في الاستفادة من الوقت.

حصل أخي نادر على معدل جيد ولم يكن يرغب بدراسة الهندسة كما كان يأمل أبي وأختار دراسة العلوم السياسية، وبرر ذلك وهو يحدث أبي قائلا:

- أريد أن أفهم اللعبة السياسية التي جرفت الكثير من الدول ومن ضمنهم اليمن إلى الهاوية، وشردت أهلها إلى كل بقاع العالم فتقاسمهم الدول الكبرى كأنهم بضائع متروكة.

سكت قليل قبل ان يكمل حديثه:

- لا أقصد أني سوف أتمكن مما لم يتمكن منه غيري، ولكني أريد أن أحرص على الفهم وعدم ترك نفسي رهينا لمخططات الآخرين الخبيثة.

قبل أبي باقتناع ما رغب فيه أخي، كما سُررت أمي لأنه أخبرهم بأنه حصل على قبول بأحد جامعات القاهرة وبذا ضمنت أنه لن يرحل بعيدا. وعرفنا فيما بعد أن حسام جمال شقيق صديقتي هناء سوف يسير بنفس الطريق، وسوف يكملان تزاملهما الطويل منذ المدرسة.

مثلما كان الفيسبوك المنفذ الوحيد للقائي مع صديقاتي ابتسام وهناء، كان أيضا النافذة الوحيدة المطلة على بلدي. لم تعد الحياة باليمن حياة طبيعية حتى بعد أن خفت الهجمات، بدأ الشعب يتعثر كل يوم بموضوع غريب تصدره تلك التي حكمت بلد دون أن تسن دولة، وكانت الكارثة الكبرى هي انقطاع الرواتب وإلزام الجميع بالعمل على أي حال، ثم بدأ قطاع الصحة ومعه قطاع التعليم بالتدهور بشكل مخزٍ بسبب الحرب والصراعات.

كانت تصلني رسائل من بعض الصديقات يتساءلن فيما إذا كان هناك مجال للعمل في مصر؟ والبعض تسألني هل يمكن سؤال سامية إذا كان هناك مجال للهجرة إلى أمريكا!! الكل أصيب برعب استمرار الحرب وخوفا من المستقبل القاتم الذي يقترب وخصوصا لمن لديهم أطفال لا يستطيعون ضمان مستقبل مقبول على الأقل لهم.

هالني الوضع، فاليمن لم تعد اليمن التي نعرف، وكل الأخبار التي أسمعها من مجموعات الواتساب تبدو غريبة ولم نعتد عليها، كثير وكثير من الأسر تركت البلد وتوجهت إلى دول العالم دون هدف أو سند فقط محاولة لإمكانية الدخول، ومن لديه ابن أو ابنة يدرس في مكانا ما في العالم فهي فرصته لدعوة الأسرة للدخول لهذه البلد أو تلك ومن ثم التفكير بالمصير وإمكانية البقاء.

لم امتلك أي إمكانية لمساعدة طالبي النصح أو بمعنى أدق طالبات النصح، ولكن الرسالة التي وصلتني وجعلتني أبكي عندما قرأتها وأبكي عندما أتذكرها، هي التي وصلتني من أستاذتي الدكتورة ابتهال عبر الإيميل...

" عزيزتي نادية كما تعرفين أني أُجبرت على الاستقالة من الكلية وليس فقط من منصب العميد، وعلى أي حال ليس هناك رواتب وأعيش أنا وزوجي والأولاد من مدخراتنا البسيطة، وأنا لا أمانع أن أعاني مع هذا البلد المسكين إلى أن يفرجها الله، ولكن ابني الكبير سينهي الجامعة هذا العام والثاني سينهي الثانوية – وان كنت لا أدري ماذا درسوا في هذين العامين – وكلاهما مهددان أن يتم سحبهم للجبهة، وهذا ما حدث لخطيب ابنتي الذي عاد جثة هامدة قبل شهر، حرب يا نادية بين أشقاء أما العدو الحقيقي فيكتفي بأرسال طائراته من بعيد، وأنا لا أريد إلا أن يخرج أولادي من هذه البلد، فهل لديك مخرج؟".

لم أستطع أن أحبس دموعي وأنا أتخيل صدمة ابنة أستاذتي وانهيار أحلامها بموت خطيبها وابن عمها الذي كان حب حياتها منذ الطفولة، كيف ستستطيع أن تواصل حياتها وكأن ما حدث هو حدث عابر! تذكرتُ وهي تحكي لنا أنا وابتسام وهناء عندما كنا في الكلية، كيف ستختار منزلها وكيف ستؤثثه! وتذكرتُ وهي ترصد عددا من دول العالم تلك التي ستزورها مع زوجها ومن ثم تعود لعشها في اليمن.

أدركتُ أن الحرب لا تدمر فقط بنيان وعمارات وانجازات سنوات طويلة، ولا تدمر جيلا لا يجد التعليم الجيد والوظيفة والأمان، ولكنها تدمر البشر وأحلامهم وحياتهم، فلا يجدون المتنفس للأحلام! والمخيف أننا كلنا إلى الآن لا نعرف ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ وكيف سينتهي؟

المساواة بالخيانة

تواصلت هناء معي وألحت عليّ أن أقابلها في مقهى قريب من بيت أهلها حيث كانت تقيم تلك الأيام؛ ورغم بعد المقهى إلا أني ذهبت لأن رجاءها لي كان يحمل شيئا ما بدو غريبا... وصلتُ إلى المقهى فوجدتُ هناء في أحد الطاولات وقد كبرت بطنها أمامها ويبدو التعب والإرهاق عليها، وتحت عينيها هالة سوداء كما كانت شفتاها ناشفة وتميل للون الأبيض، وبدت أكبر من عمرها بشكل غريب! لم أسلم عليها بالحرارة المتوقعة لغيابنا عن بعض فترة طويلة لأنها كانت بملامح لم أستطع تفسيرها، جلستُ أمامها وانتظرتُ حدوث الكارثة، وفعلا كانت كارثة!!

أشارت إلى طاولة خلفي فلفتُ خلفي لأجد نهاد زوجة أخيها الجديدة جالسة مع شاب مصري وشابكة يدها بيده ويتهامسان كما نشاهد في الأفلام... صعقتُ! عدتُ برأسي للأمام مذهولة وقلتُ لهناء:

- ما هذا؟

قالت:

- كما ترين! سمعتُ الإشاعة من بواب العمارة، فأحببت أن أتأكد بنفسي وعندما تأكدتُ قررت أن أواجهها ولكني رغبت بأن تكوني معي؛ فحددتُ اليوم الذي كنت متأكدة أن هناك موعد لأنه نفس اليوم الذي يذهب أخي مع أبي لبعض المشاوير الطويلة.

وقبل أن نقرر كيف ننادي نهاد كانت هي تقف أمام طاولتنا مبتسمة بشكل مريب! جلست بالكرسي الثالث وقالت موجهة حديثها إليّ بالتحديد:

- أنتِ كاتبة وتنادين بالحرية والحب، لماذا تستخدمينه شعارات فقط وعندما يتم التنفيذ يصيبك هذا الذهول الغبي.

استغربتُ من جراءتها ورددتُ:

- هل نسيتِ أنك متزوجة؟

فضحكت بصوت عالٍ وردت:

- ألم يكن جهاد متزوج عندما أحبني؟ لما نغفر للرجال فعلتهم ونحاسب النساء؟ على الأقل أنا لن أتزوجه أنه حب فقط.

ونهضت عائدة بكل جراءة لرفيقها، بينما كانت هناء تعاني الأمرين! ساعدتها على العودة للمنزل والذي كان مقابلا للمقهى، رحبت بي الخالة هدى وأصرت عليّ البقاء على الغداء وهذا ما كان. عادت نهاد بشكل طبيعي للمنزل قبل عودة زوجها، وتوجهت قائلة لهناء همسا في إذنها:

- أعتقد أنك لا تريدين أن تخربي بيت أخيك للمرة الثانية ؟! احتفظي بالسر فليس من مصلحة أحد معرفته.

وذهبت إلى غرفتها مدندنة بأحد الأغاني الشائعة تلك الفترة.

تواصلت معي هناء في اليوم التالي وقالت لي أنها أخبرت أخاها بالموضوع كاملا، وأنه سكت ولم يحرك ساكن وأنها لم تتخيل أن يسكت أخاها عن موضوع كهذا! لابد أنها عملت له سحر حتى يتخلى عن سامية ويصمت عن موضوع الخيانة بهذا الشكل.

وبعد أسبوع أخبرتني هناء برسالة على الهاتف أن أم نهاد بحالة حرجة في اليمن وأن أخاها طلب منها أن تحضر لتوديع أمها وأن حالة نهاد صعبة للغاية فهي تبكي طوال اليوم وسوف تسافر مع جهاد غدا إلى اليمن.

انشغلت بأموري الخاصة ودراسة اللغة، وأنا أحاول أن أجد عملا مناسبا في أي مكان، وذات يوم وصلني طلب صداقة وعندما تأملتُه عرفتُ اسم صاحبة الطلب فهي صديقتي المصرية سهير التي درست في اليمن في نفس كليتي عندما كان والدها يعمل هناك أستاذ جامعي ووالدتها أيضا. ولأني أضع اسمي كاملا على الفيسبوك فقد وجدتني بسهولة وكانت المفاجأة لها أني في مصر. تواعدنا على اللقاء والتقينا بها أنا وهناء، ووجدتُ أنها أصبحت تدير دار النشر والمجلة الأدبية التي يمتلكها والدها، وهالني كيف تغيرت فبدت بشخصية سيدات الأعمال، سعدتُ كثيرا بلقائها وعرفتني لاحقا على زوجها وابنتها الصغيرة، وكانت سعيدة وتعمل جاهدة لإسعاد الآخرين وأنا منهم.

قرأت كتابي الثالث –المرفوض سابقا– في اليمن، وانبهرت به وبأسلوبه الرائع حسب تعبيرها وأصرت أن تُصدره على حساب دار النشر الخاص بها، وأنها سوف تعمل أمسية عند صدوره بما أسمته "توقيع الكتاب". فرحتُ كثيرا بذلك وشعرتُ أن حلمي القديم سيتحقق ولو بشكل جزئي، شاركتُ فرحتي مع هناء وابتسام على

الماسنجر والواتساب فقد أصبحت لقاءاتنا هناك فقط على الرغم من وجود هناء معي بنفس البلد.

كانت ولادة هناء مناسبة لإعادة اجتماعنا، اشترينا الهدايا للمولود الجديد الذي أسمته محمود، وذهبتُ مع أمي إلى منزلهم في وقت مبكر حتى نعمل على تقديم المساعدة من ناحية ولأنه بعيد من ناحية أخرى؛ وقد قررنا أن نبقى هناك اليوم كاملا. كانت هناء بحالة جيدة وكذلك الخالة هدى ولم تكن نهاد موجودة فسألتُ هناء:

- ألم تعد نهاد من اليمن؟ كيف حال أمها؟

فضحكت هناء بانشراح وكذلك الخالة هدى، وقالت هناء:

- الحمد لله أمها بخير ولم تصب بأي مكروه، ولكن أخي تأكد من تهورها وتصرفها المشين فأبلغ أخاها واتفقا على الكذب عليها بخصوص أمها حتى تعود لليمن.

وأكملت الخالة هدى:

- لم يخبرنا بالكذبة نهائيا حتى أني بكيتُ مع بكائها على أمها، ولكن في يوم سفرهما وعندما غادرا إلى المطار، عاد جهاد فتوجستُ شرا واعتقدتُ أن مكروه قد حدث لأم نهاد وأنهما ألغوا السفر! ولكن جهاد أخبرنا أنه فقط أوصل نهاد للمطار ثم تحجج أنه مضطر للعودة لأن هناء على وشك الولادة، وتركها تصعد الطائرة وتعود لليمن بمفردها، وبعدها أرسل لأخيها ورقة الطلاق حسب الاتفاق حيث كان شقيقها متفهما للموقف تماما.

وهكذا إذن كانت نهاية حب نهاد للشاب المصري ونهاية حب جهاد لنهاد الذي دفع ثمنه غاليا.. فكرتُ بين وبين نفسي وتذكرتُ كلماتها "جهاد أحبني وهو متزوج ما الفرق؟".

قضينا اليوم مع الضيفات اللاتي حضرن للزيارة؛ وقضيتُ أنا وقتا أطول مع سوسن الصغيرة، التي كنت أحبها حبا كبير، وكانت تلمس أعماق قلبي وتدغدغ شعور الأمومة داخلي.

كان يوما هادئا انتهي بجلسة عائلية حيث انضم لنا بعد خروج النساء أبو هناء وأخويها وقد صاروا شبابا وكذلك أبي الذي جاء يقلنا للمنزل ويقضي وقتا مع صديقه أبو هناء، وتحدثنا معا عن الظروف واليمن وأخبر أبي صديقه أن المكتب الهندسي الذي أنشأه قبل الحرب يعمل بشكل جيد، وأن حركة العمارة رائجة جدا رغم الظروف المادية السيئة جدا للشعب ككل؛ فأيده أبو هناء وقال له أن كثيرا من الأسر جاءت إلى مصر وقامت بشراء أفخم الشقق في أفخم المناطق رغم ظروف الحرب الطاحنة، وظهرت فجأة ثروات لعائلات لم يُعرف عنها هذا الثراء!، وحدثنا جهاد عن عدم توفقه في الحصول على أي عمل في مصر ولو كان في غير تخصصه كمهندس معماري، وتحدث بصراحة عن رغبته بإقناع سامية بعودتهما لحياتهما المشتركة، وترحيبه بالذهاب إليها إذا استطاعت دعوته، ما لم فأنه سيعود لليمن. وهكذا مضت السهرة بشكل جميل جعلني أتأمل كيف ينقسم المجتمع في اليمن إلى قسم رجال وقسم نساء وقسم بنات وقسم أطفال وكل قسم يعيش مستقلا عن الآخر بينما من الطبيعي لأسر تتعارف منذ سنوات طويلة أن تجتمع كأسر صديقة على الأقل في بعض اللقاءات كما حدث اليوم.

لعنات الحروب

طلب منا الأستاذ في أحد فصول اللغة التي كنتُ أحضرها في المعهد أن نتحدث باللغة الإنجليزية عن ما نخطط له مستقبلا، فأعددت محادثتي وذكرتُ أن ما أخطط له مستقبلا هو أن أكون كاتبة لها قلم مميز ومؤثر في المجتمع، وطرح بقية الطلاب أحلامهم المتنوعة، ولكن المحادثة التي أثرت بي وبنا كلنا هو ما تحدث عنه طالب سوري اسمه أنس يبدو في أواخر الثلاثين أو بداية الأربعين من العمر، طويل، قوي البنية والملامح، صوته عميق وحاد، قال:

- أنا اخطط مستقبلا لأكون طبيبا.

ثم ضحك ضحكة مفتعلة، ساخرة وقال:

- لا تفكروا أني سأدرس الطب في هذا العمر فأنا تجاوزت الأربعين، أنا لا أنوي دراسة الطب، فقد درسته منذ زمن، ولكني أحلم فقط بالعودة لبلدي سوريا ولعيادتي ولزبائني.

سكت قليل وأكمل محادثته بالإنجليزية:

- أنا طبيب منذ أكثر من عشر سنوات، ولكني عدتُ إلى نقطة البداية عندما اضطررت لمغادرة سوريا وتحولت شهادتي إلى مجرد ورقة، وكل خبرتي إلى شيء غير معترف به، لذا أعود وأحلم مرة أخرى نفس الحلم الذي حلمت به عندما تخرجت من الثانوية وهو أن أصبح طبيبا أو أعود طبيبا.

ثم ضحك بألم وقال:

- تحقيقه سهل، لا يحتاج أن أدرس، فقط أريد العودة إلى سوريا، وتحديدا إلى مدينتي حلب عندما تعود لها أبسط مقومات الحياة الآمنة لي ولأولادي، عندما تعود منارة مرفأنا للعمل، سترشدنا نحو العودة لوطنا.

نالت محادثته التصفيق الحار وعاد إلى مقعده وهو يبتسم بألم! غادرتُ الفصل ونظرت إلى أنس وقد تجمع بعض الزملاء حوله، بالتأكيد سوف يسألونه تلك الأسئلة التي لا يحب الرد عليها تلك التي تجرح بعمق وبحسن نية، غادرتُ الفصل وأنا أشعر بألم وحزن كبيرين، تبعثر البشر وشُردوا من أوطانهم دون أن يعرفوا لماذا؟ تخيلتُ أنس وهو في عيادته بالروب الأبيض والمرضى منتظرين في صالة الانتظار وهو مشغول يعالج أحد المرضى، ودون شك لم يخطر بباله أن يجد نفسه خارج هذا المشهد.

جلستُ على أحد كراسي حديقة المعهد الصغيرة والتي تحتوي على عدد محدود من الطاولات والكراسي وكانت ممتلئة بالطلبة يتحدثون ويتناقشون، كنتُ غارقة بتفكيري بأهوال الحرب وبما سيكون مصيرنا! تنبهتُ على صوت سكرتيرة المعهد العراقية وهي تستأذن أن تجلس على الكرسي الخالي على طاولتي، رحبتُ بها وجلست وهي تشرب القهوة من فنجانها.

كنت أعرفها بالطبع وهي تعرفني وتعرف كل الطلبة في المعهد، كانت سيدة تقترب من الخمسين من العمر عراقية الأصل جميلة ورشيقة دائمة الحركة والنشاط؛ وتوزع ابتسامتها وترحيباتها وخدماتها للجميع دون ملل أو كدر. سألتني بلهجتها العراقية

المحبة لما أنا شاردة فقصصتُ عليها حكاية الطبيب السوري، فسكتت وبدأت ترشف القهوة، وفجأة تغيرت ملامح وجهها المنشرح عادة، وطاف حزنٌ عليه وبدأت حديثها بكل صراحة وكأننا صديقات منذ عمر طويل، وقالت:

- الحرب ذلك الغول، الحرب ذلك المجرم الذي يتعاون معه الكثير، أنه لا يقتل ما بنيناه فقط، مثل قصة الطالب أنس، بل يقتل أيضا حقنا في الحياة، ما نعتبره حق طبيعي لا يحتاج حتى أن نحلم به! كان لي حلم وكنت أعتبره حلما طبيعيا وسيتحقق بمجرد أن أجد الشاب المناسب وهو ان أكون أسرة وأرزق بالأطفال الذين تخيلتهم في خيالي وسميتهم قبل أن تظهر صورة أبيهم في حياتي، ولكن الحرب بقدر ما اغتالت البشر فقد اغتالت الأحلام حتى العفوية والطبيعية، لم تُبق شيئا على طبيعته.

سكتُ وأنا أنظر إليها مشجعة لها على الحديث –الذي كما يبدو تود قوله– وفعلاً رشفت من فنجانها وأكملت:

- الحرب يا عزيزتي تلتهم أجيال وأجيال وحربنا الطويلة مع إيران التهمت أجيال من الشباب الذكور بالكامل ومنهم شباب جيلي إلا القليل منهم الذين تمكنت أسرهم من تهريبهم إلى المجهول، وجدتُ نفسي أمر بمرحلة الصبا والشباب وسط أجواء متوحشة ولا وجود لحياة طبيعية ولقاءات الشباب مع بعضهم البعض، لقد ذهبت أجيال في محرقة الحرب!

نظرت إلى وفي عينيها ذكرى مؤلمة تغلفها بدمعة حرصت أن تظل داخل حدقة عينيها وقالت:

- اختلت الحياة يا عزيزتي، سنة الله على الأرض دمروها. هاجرنا بعدها إلى الأردن وبقينا فيها فترة لا أدري إذا كنا نأمل بعودة العراق وعودتنا، ولكن أبي وأمي لم يطيلا الأمل ورحلا أحدهما بإثر الآخر، ولم أعد احتمل البقاء في الأردن فرحلتُ إلى مصر بمقترح من صديقتي المصرية صاحبة هذا المعهد ومنذ ذلك الحين وأنا أعمل هنا واعتبر المعهد حياتي.

نظرت إليّ وهي تبتسم وقالت:

- أعتذر كدرت يومك لا أدري لماذا؟ لقد فتحتُ لك قلبي دون مقدمات، ولكن لا تقلقين أنا الآن سعيدة ولا تزعجني حياتي الحالية ولدي كثير من الصديقات.

سألتُها:

- الم تجدي بعد رجلا مناسبا لكِ ولو غير عراقي؟

ضحكت وردت:

- نعم، صادفتُ رجالا تقربوا مني بهدف الزواج، ولكنهم متزوجون؛ منهم من يريدني زوجة بالخفاء، ومنهم من يريد صداقة غير شريفة –مع الأسف– يتوقعون أني سأكون تلك المرأة المستسلمة، لا، لستُ بحاجة لهم.

رشفت أخر رشفة من فنجانها وقامت مودعة وبخطوات رشيقة انطلقت وهي ترسل ابتساماتها وتحياتها للطلبة الجالسين وقد عاد لوجهها ملامح ذلك الوجه المبتهج...ترى كم من الوجوه ترتدي أقنعة زاهية تخفي مرارة التجارب التي مرت فيها، ترى كم من أشخاص يمثلون أدوار ليس أدوارهم –مثل أنس يمثل دور طالب

بينما هو طبيب– ترى كم من بشر يسيرون في الحياة دون وجود حقيقي. طاف الحزن بقلبي وتأملتُ قسوة الحياة وشراسة الحرب، وأي مستقبل ينتظرنا؟ وكم زوجات ترملت وأطفال تيتمت وأمهات فقدن أولادهن في هذه الحروب القاسية. أرعبني تصور مستقبل اليمن فالآن قد قتلت وشردت وقضت على كل مظاهر الحياة الطبيعية، فكيف سيكون الحال لو طالت؟؟؟

إبراهيم الصحفي اليمني

انقطعت أخبار أستاذتي ابتهال عني تماما، لم أجدها على الواتساب ولا الفيسبوك ولا وجدتُ تواصل مع ابنتها. قلقت كثيرا عليها، أعلم أنها بخير لأن الأخبار السيئة تصل سريعة، ولكن أين هي؟

أوفت سهير صديقتي المصرية بوعدها، عند الانتهاء من طباعة روايتي والتي أسميتها "على هامش المجتمع" فأقامت أمسية أدبية تضم مجموعة متميزة من الأدباء –أغلبهم من الشباب– مصريين ويمنيين وقليل من دول عربية متنوعة، سعدتُ بذلك اللقاء جدا ووجدت جزءا من حلمي يتحقق، جلستُ على كرسي وأمامي طاولة طويلة تشاركني فيها صديقتي سهير واثنان آخران ألقى فقرات من كتابي وأشرح معاناة شريحة من المجتمع قتل فيها الجهل والفقر أهم معايير الأخلاق... سُعدتُ بحضور صديقتي هناء مع والدتها وصغيرتي سوسن، التي ربطتني بها علاقة جميلة واسميها دائما "صديقتي الصغيرة"، مرت الأمسية بشكل طيب، طرحت أفكار الرواية، وكيف تتغافل الجهات المسئولة في أغلب الدول معاناة تلك الطبقة من المجتمع ولا تتذكرهم إلا عندما يظهروا على السطح كخاطئات أو قتلة أو لصوص، وقتها يتم محاكمتهم ومعاقبتهم بكل صرامة دون السؤال عن من المسئول عن حالة الجهل والفقر والمعاناة التي يعيشونها.

انتهت تلك الأمسية وغادر معظم الحاضرين بما في ذلك هناء التي غادرت مع طفلتها وأمها وتجمع من تبقى من الحضور على طاولات متناثرة في الحديقة الصغيرة

الخاصة بمبنى المجلة يتناقشون شتى المواضيع والاهتمامات ويتناولون الضيافة الخفيفة التي قدمتها لهم صديقتي.

جلست إلى طاولة صديقتي المصرية، والتي قالت لي أنها معجبة بمداخلات مدام هدى –تقصد الخالة هدى– وأنها تجدُ أن لديها عمق في استيعاب الرواية، فأخبرتُها أني فعلا أناقش معها الكثير من الأفكار. تعرفتُ في تلك الأمسية على الصحفي اليمني إبراهيم الذي كان ضمن الحضور وكان على معرفة وثيقة بصديقتي سهير حيث كان يعمل معها في المجلة سابقا ومازال بشكل متقطع يشارك في إعداد بعض المواضيع أو اللقاءات للمجلة، وهو شاب يمني طويل القامة، بشرته تميل إلى السمار بشكل خفيف، شعره كثيف وله عينان تتسم بالوداعة وتلمع أحيانا بحدة عندما يتحدث بموضوع شيق، تحدثنا بشكل جانبي عن اليمن ومشاكلها وحدثته عن انقطاع أخبار أستاذتي وعن قلقي عليها؛ فوعدني أن يحاول من مصادره الخاصة معرفة أخبارها بعد أن اخذ اسمها واسم زوجها كاملا.

تواصلت معي ابتسام تلفونيا، أخبرتني أن شقيقها هرب وتمكن بمساعدة من أصدقائه النافذين في البلد من الوصول بأمان إلى تركيا، فرحت العائلة فرحا كبيرة بعودة نبيل وإن كانت حالته النفسية سيئة.

وأضافت ابتسام بصوت هامس:

- ولكنه جاء لي بخبر هام من اليمن، أخبرني أن زوجي تزوج بحجة أني لم أبق في اليمن متناسيا أنها كانت خطتنا المتفق عليها أن أفر بالأولاد على أن يلحق بي.

صمتُ... تعجبتُ! بدا صوتها كأنها تسرد خبر عن زواج زوج أحد الصديقات وليس زوجها،، سألتُها:

- وهل هذا الخبر صحيح؟

قالت:

- نعم، لقد تأكد، فتحتُ صفحة الفيسبوك الخاص بالزوجة الجديدة التي أخبرني شقيقي باسمها، والتي تلقبُ نفسها بأم المجد وهي مطلقة منذ وقت قريب، فوجدت التهاني تهل عليها؛ فباركتُ لها أنا أيضا متمنية لها حياة سعيدة.

أحسستُ بخوف من رد فعل صديقتي وسألتُها:

- هل تحدثتِ معه؟

أجابت بصوت بدا مرحا:

- مع من؟ العريس؟

ثم ضحكت وقالت:

- لا تخافي أنا بخير لدي مُحَمَّد وعمر وعمار ولدي سنوات العمر القادمة بإذن الله.

ثم أضافت:

- وهو لديه حياة جديدة وثروة ومنصب هبطت عليه مع الزوجة الجديدة فأعمت بصيرته وقلبه.

حزنتُ على ابتسام كثيرا، لقد كانت متفانية في دور الزوجة والأم، ولم ترتكب خطأ في حق أسرتها، حتى التحاقها بأسرتها كان بالاتفاق مع الزوج لحماية الأولاد من ظروف لا نعلم كيف ستكون، وبكل الأحوال كنا كلنا نعتقد أنها لن تتجاوز بضعة شهور، وتذكرتُ بحزن كبير كيف كانت تعتبر نفسها محظوظة بزواجها من عبد الله في بداية زوجها، لأنه حسب تعبيرها –وقتها– حنون وطيب إلى درجة كبيرة.

أوفى الصحفي إبراهيم بوعده، وأخبرني أنه عُلم أن أستاذتي في جيبوتي–كمحطة انتقال– إلى مكان ما لم يعرفه. تأثرتُ كثير من هذا الخبر رغم أنه يبدو خبرا مطمئنا إلا أني تخيلتُ حجم المعاناة التي تعيشها أستاذتي وأسرتها وقد كانت في بلدها محل تقدير كبير.

بعد مرور أيام على أمسية الكتاب، طلبت صديقتي سهير أن يُقام لي لقاء صحفي حول أدب القصص في اليمن يقيمه إبراهيم؛ فوافقتُ على الموضوع بكل سرور، وتمت المقابلة بشكل جيد في مقر المجلة، سألني إبراهيم أسئلة متنوعة عن الأديبات اليمنيات والأدباء اليمنيين وعن الأنشطة الثقافية التي تقام في اليمن، كما سألني عن الوضع الحالي مع الحرب وكيف ألت الثقافة في البلد والتي لا شك فيها تأثرت بالأحداث والثقافة الجديدة التي غزت اليمن مع استمرار الحرب. كانت ردودي واضحة، مقتضبة، لم أستطع سرد الحقيقة كاملة، شعرت أني ربما أبكي وأنا أتذكر مصير روايتي التي فقط رصدت قاع المجتمع فقوبلت بالرفض، خشيت ان أبكي وأنا أذكر الدكتورة ابتهال وهي تجمع حاجاتها الشخصية من المكتب، وهي تندب عمر ضاع كل منجزاته.

تمت المقابلة، وقبل أن أغادر أصرت سهير على تناول طعام الغداء في بوفية المجلة مع إبراهيم والمصور الذي رافقنا في المقابلة لأخذ بعض الصور، تحدثنا أثناء الطعام عن الأدب والصحافة وعرفتُ أن إبراهيم يحضر الدكتوراه في لبنان وأنه حاليا في إجازة، وتحدثتُ عن كتبي السابقة وعن أحلامي ككاتبة؛ ثم شاركناهما أنا وسهير ذكريات أيام الجامعة وحدثتنا سهير عن حبها لليمن وكيف كانت الخمس السنوات التي عاشتها فيها منذ أخر فصل في الثانوية العامة وحتى انتهاء دراستها في الجامعة ثم مغادرتها لها عائدة إلى بلدها بينما عاد والدها ووالدتها بعدها بسنة.

تم نشر اللقاء بجريدة صديقتي وعلى صفحة الفيسبوك الخاصة بالمجلة وكذلك على صفحة الصحفي إبراهيم؛ فقمتُ بمشاركة المنشور على صفحتي وأصبح إبراهيم أول يمني ضمن أصدقاء الفيسبوك.

مر أسبوعان على تلك المقابلة وبقيت علاقتي مع إبراهيم ضمن الفيسبوك فقط، ولكني تفاجأتُ أنه تواصل مع أبي وحضر مع والديه وتقدم لخطبتي، دون سابق تلميح! رحب أبي وأمي بالخبر وقالت لي أمي وهي تكاد أن ترقص فرحا:

- أني مشتاقة هذه المرة لسماع تبريراتك للرفض إن وجِدت!

وضحكت ناظرة إلى أبي وقالت:

- أنه يبدو شابا جيدا ومن أسرة طيبة، أعتقد أنكِ محظوظة يا نادية.

فرد أبي مبتسما لي:

- هو المحظوظ وهل نادية أي فتاة! أنها فتاة متميزة.

ثم أكمل وهو ينظر إلينا:

- لقد رفضتِ الكثير، ولكنه المكتوب فنصيبكِ هنا، أنا متأكد أنكِ ستوافقين هذه المرة.

تابعتُ حديثهم ونقاشهم بعقل غائب، استغربت! فقد كنت أعلم من صفحته على الفيسبوك أنه أصغر مني بعامين وكان لابد لي من لقاء معه بمفردنا حتى أوضح له تلك الحقيقة دون أن أُعلم أبي وأمي بذلك، لا أستطيع أن أقول أنى اعتبرت إبراهيم زميلا فنحن لا نعمل معا، لقد تقاربنا وتحدثنا أحيانا من خلال رسائل الماسنجر أحاديث عامة، فكنت اعتبر أني حصلت على صديق لأول مرة.

وعندما التقينا في أحد المقاهي مثلما طلبتُ منه، أحسستُ لأول مرة بالخجل من مقابلته، لم أعرف ماذا أقول؟ ولا كيف أوضح له أنى غير مناسبة له كزوجة؟. تذكرتُ كلام صديقتي ابتسام عندما أخبرتها بالموضوع "من هو الشخص هو الأهم ليس العمر ولا الجنسية ولا العمل ولا شيء، أنتِ محظوظة جدا أن لديك الإمكانية ان تقيسي مشاعرك قبل الزواج". لم أوافق صديقتي رأيها فقررتُ أن التقي به وأخبره عن سبب رفضي –الذي لم يتم بعد– بدأتُ حديثي معه بعد السلام وعبارات الترحيب المعتادة، قائلة بكثير من التوتر الذي لم أألفه سابقا:

- أريد ان أخبرك بموضوع هام.

نظر إليّ نظرة هادئة ولف وجهه مسحة من القلق وقال:

- كلي أذنا صاغية، وان كنت أتمنى ان اسمع خبرا جيدا.

سكتُ ونظرت إليه وكأني سألقي قنبلة وقلت:

- هل تعلم أنك بعمر أخي سمير الأصغر مني؟

فرد بكل ثقة وهو يبتسم:

- ولكني لستُ أخاك.

استغربتُ لعدم تفاجئه من كلمة الأصغر، فقلتُ للتوضيح:

- أقصد أنك أصغر مني.

فرد وهو محتفظ بابتسامته:

- لو كنتٌ صغيرا بالسن بحيث لا تثقين بقدرتي على تحمل المسئولية فلكِ الحق، ولكني بعمر أخيك، وأخوك متزوج فما الفرق؟

وقبل أن أرد أكمل:

- هذا ليس سبب للرفض من إنسانة واعية وكاتبة تغوص بأعماق النفس البشرية، إذا لم تجديني مناسبا لكِ لسبب آخر، أو مرتبطة عاطفيا بأحد فأرجوك أخبريني، أما هذا السبب فأني غير مقتنع به.

اعترفتُ قائلة:

- إنه السبب الوحيد.

وسكتُ... أطلق إبراهيم تنهيدة راحة وابتسم قائلا:

- الحمد لله.

تحدث إبراهيم بعدها حديثا هادئا موضحا إن كلينا ناضجان بما يكفي لنعلم مصلحتنا، وأنه وجد في شخصيتي ما يبحث عنه، ويريد أن نتعارف في إطار رسمي حتى أتمكن من التعرف عليه بشكل يسمح لي باتخاذ قرار مشاركته لحياتي ومشاركتي لحياته كما قال. كان حديثه مقنعا، سرب الفرح إلى قلبي ببطء، تأملته وهو يتحدث وشعرت ان إبراهيم ليس كأي شاب قابلته، وأنه يشبه تلك الصورة الضبابية التي كانت تخطر ببالي أحيانا.

اجتمعنا أنا وابتسام وهناء هذه المرة على زووم نرى وجوه بعضنا البعض، لأول مرة؛ وكان لقاءً رائعا جدا، حدثتهن عن بدء اهتمامي بإبراهيم ذلك الاهتمام الجديد في حياتي، وأخبرتنا ابتسام عن والدها الذي بدأ استثمار ناجح في تركيا عاد عليه بربح وفير؛ وأنها دخلت دورات في التنمية الذاتية أفادتها كثيرا وأعادت لها التوازن لحياتها وساعدتها على أن تهتم بنفسها ولا تنتظر عون أحد إلا عون خالقها، وأنها ألغت حسابها القديم على الفيسبوك وأنشئت حسابا جديدا باسمها الحقيقي وصورتها على الفيسبوك – دون النقاب– وبدء صفحة جديدة في حياتها فيها شيء من التحدي عن ما كان مألوف في حياتها، كما أنها أصبحت تشارك منشورات إيجابية على الفيسبوك تحاول بها أن تزرع أمل وتضيف بهجة وقبس من نور لمن يقرأ منشوراتها.

وأخبرتنا هناء أن أخاها جهاد تصرف برجولة اتجاه زوجته سامية رغم أنها فرت بابنته دون استئذان، وكيف كان يعطي والدتها شهريا مبلغ مناسب يمكن أن يساعد هناء في غربتها، كما أنه طلب من صديقه في اليمن أن يعيد مقتنيات سامية إلى بيت

أهلها ويبيع كل الأثاث في شقته باليمن، ثم أخذ المبلغ وأرسله كاملا إلى سامية مع أحد من أصدقائه المسافرين إلى هناك. كما أخبرتنا أنه تمكن من إقناع سامية بالعودة لحياتهما معا؛ وأنه يكمل معاملاته للانتقال إلى أمريكا والاجتماع بزوجته وابنته. وقررنا أن نؤسس لقاءات دورية على زووم لنبقى على علم دائم بأخبار بعضنا.

تعرفتُ على إبراهيم أكثر ضمن لقاءات متنوعة وضمن أجواء مختلفة فهو أحيانا ضيفا في بيتنا وقد تعرف على أخي الذي جاء مع زوجته لزيارتنا، أو عبر لقاءاتنا مع أسرته التي كانت مقيمة في القاهرة منذ 2011م فكونت علاقة جيدة معهم وخاصة مع أخته ليلى التي تكبرني بعام والتي كانت مخطوبة وتنوي العودة مع زوجها بعد الزواج لليمن؛ لأنهما لم يجدا عملا مناسبا يبقيهما في مصر رغم أن كليهما متخرجان من الجامعات المصرية، وأحيانا أخرى كانت لقاءاتي مع إبراهيم مع صديقتي المصرية وأسرتها، أو لقاء في مقهى بمفردنا ولكن الأجمل هو تلك اللقاءات مع صديقتي هناء وزوجها وأولادهما... لم يسبق لعائلة هناء وابتسام أن التقتا عائليا ضمن لقاءاتهن ببعضهن البعض في اليمن، وربما طبيعة المجتمع في مصر جعل من هذه اللقاءات شيئا طبيعيا وعفويا. كان شعوري اتجاه إبراهيم يكبر يوما بعد يوم وكنتُ أسال نفسي هل كان هذا شعور ابتسام وهناء اتجاه أزواجهن في بداية حياتهن ولم يشركانني بهذا الشعور مراعاة لي؟

قص عليّ إبراهيم كيف رحل مع أبيه وأمه من اليمن منذ حادثة مسجد الرئاسة في 2011م وقال لي:

- شعر أبي أن ما حدث سيأخذ اليمن إلى طريق وعر، ولأن له استثمار هنا في مصر، قرر أن ننتقل ونستقر فيها.

نظر إليّ مبتسما وقال:

- سررتُ أنا بذلك كثيرا؛ فقد كنتُ أحب مصر وكنا نأتي إلى هنا دائما ولدينا شقتنا الخاصة، ومنها التحقتُ بكلية الأعلام وكونتُ صداقات جديدة ومتنوعة، وبعد أن أنهيتُ الجامعة عملتُ في مكتب أبي وهو عبارة عن شركة سياحية، وواصلتُ دراسة الماجستير في نفس الوقت.

سألته:

- ولماذا قررت أن تدرس الدكتوراه في لبنان؟

سرح قليلا ثم قال:

- لقد أخبرني أبي أن تنوع الخبرات ضروري، وأني قد حصرت حياتي في مصر وآن الأوان أن أخرج قليلا، حاولت أن احصل على منحة للدراسة في أمريكا أو بريطانيا كما كنتُ أحلم، ولكني لم أوفق، وعندما أخبرني أحد أصدقائي بوجود منح إلى لبنان، قدمنا لها وحصلنا عليها معا.

أبتسم ونكس رأسه قليلا وقال:

- الآن يجب أن أبدا المعاملة لكِ، حتى تتمكني من السفر معي عند نهاية الإجازة، لذا علينا عقد القران بأسرع وقت.

لم أعترض عندما طلب إبراهيم أن يتم العقد بشكل سريع حتى يتمكن من إكمال المعاملة الخاصة بي لمرافقته إلى لبنان، وكان هذا الخبر مبهج بالنسبة لي وفي نفس الوقت مخيف أن أبدأ حياة جديدة بعيدة عن أسرتي وصديقاتي، ولكنه كان خبر صادما لأمي.. وبسبب موعد بدء دراسة إبراهيم، اضطررنا لتحديد حفل الزواج بنفس اليوم الذي يجب أن نسافر فيه.

أستاذتي الدكتورة ابتهال

ظهرت أخبار أستاذتي الدكتورة ابتهال بالبنط العريض، كما يُقال، حيث ظهر فيديو لابنتها دون نقاب أو حجاب تحت مقالة عنيفة تنتقد الكل من يحكم اليمن داخليا وتلك الحكومة التي تحكم اليمن خارجيا، والتي تمثل يمن غير موجود وانتقدت الشعب الذي يرضخ للكل دون رأي ودون احتجاج.

انتشر الفيديو بسرعة رهيبة كالشهب عبر مشاركات من أناس كثيرين، نشرت نجوى ابنة أستاذتي ذلك من كندا حيث أستقر بهم الرحيل، وبدت كأنها قد خرجت من إعصار وسنوات عمرها تبدو مضاعفة عن الحقيقة.

كانت تصرخ بصوت عالٍ، وتنعي بلد يقوم بقتل شبابه من أجل مصلحة ضيقة، ولكن مع الأسف كل التعليقات على خطابها الطويل والمُدعّم بأدلة انصبت على شكلها! فمنهم من يتغزل بجمالها الحزين، ومنهم من يطلب منها التستر ومخافة الله، ومنهم من يتهمها أنها تبحث عن شهرة ونصيب من بيع الوطن، ويطلب البعض منها الزواج بشكل مستفز حتى يستطيع الدخول إلى كندا! وهكذا قوبلت كل مقالاتها والفيديوهات بردود ساذجة، خارجة عن الأدب بطريقة جعلتني أفزع من شعب أنا أحد أفراده، أفزع من شباب ورجال يستطيعون أن يكتبوا تلك العبارات الرذيلة دون إحراج او خجل، وأدركتُ أنه ينقصني الكثير حتى أفهم وأكتب عن مجتمعي بكل فئاته.

حزنتُ من أجل الغضب العارم التي تعيشه نجوى وسررتُ أني وجدت أخبار عن أستاذتي، فتواصلت مع نجوى بالخاص وأخذت رقم والدتها واكتشفت أنه صار لديها صفحة باسمها على الفيسبوك. حدثتني أستاذتي تلفونيا بالمأساة التي عاشتها مع أسرتها وقالت:

- لقد تم تسكيننا في مخيم لمدة ما يقارب الستة أشهر في جيبوتي بظروف سيئة للغاية، كنت أنا وزوجي نسهر الليل نفكر هل أخطانا؟ هل رمينا أولادنا إلى الهاوية حتى نحافظ على حياتهم؟ أين سنذهب؟ وأي مصير ينتظرنا؟!

سمعتها تأخذ شهيق عميق ثم قالت:

- لا أستطيع أن اسرد عليكِ أحداث تلك الأيام فأنا لا أحب أن أتذكرها؛ لقد كانت صعبة جدا وعانت نجوى منها كثيرا مع حالتها النفسية السيئة.

ومع تنهيدة أكملت:

- الحمد لله نحن الآن في كندا وأمورنا تسير بشكل طيب، لم يعد يهمني ماذا سأعمل ولا ماذا سيعمل زوجي في هذه الأرض الغريبة؟ يكفي أن أبنائي مطمئنون وقد هدأ الخوف الذي سكن أعماقهم ويحاولون حاليا ان يعيشوا حياة طبيعية.

وطمأنتني أن نجوى سوف تتجاوز الغضب العاصف في قلبها الصغير يوما بعد يوم وهي الآن تعبر بشتى الطرق عن ألمها وحزنها على فقدان خطيبها وهذا سيساعدها على تجاوز الألم والخروج إلى طريق جديد.

لم تكن نجوى وحدها من نزع النقاب والحجاب مرة واحدة، فالتوأم شقيقات ابتسام أيضا تخلصن من النقاب والحجاب رغم تجربتهن المتطرفة أثناء الفترة الأخيرة من وجودهن في اليمن؛ وقد سلكن طريق العلم بتميُز أذهل الجميع حيث حصدن النجاح الساحق في عامهن الأول والثاني في كلية الحاسوب واتجهن إلى تخصص الذكاء الاصطناعي مع تقدير كبير من أساتذتهن لتفوق لم يتوقعه أحد.

نهضتُ في أحد الأيام على جلبة غريبة في المنزل وكأني أسمع بكاءً، خرجتُ مسرعة من حجرتي لأفاجئ بوالدتي وهي تبكي وأبي بجانبها يحاول تهدئتها ودون أن أسال طغت صورة جدتي على مخيلتي ونظرتُ إلى أبي، فقال:

- جدتك في ذمة الله.

احتضنتُ أمي لا لتهدئتها، ولكن لمشاركتها البكاء وصور جدتي تعبر أمام عيناي المغمضتان والدمع لا يتوقف، ووجدتُ نفسي أشهق بالبكاء أكثر وصورة خالتي هاجر تمر أمام عيناي.

لم ينته ذلك اليوم إلا وأبي وأمي قد توجهوا للمطار مغادرين إلى اليمن؛ وبقيت مع أخي نادر نسحب الأيام التي تمر برتابة مخيفة، حاولت أن أواسي نفسي وأخي وأتجنب إظهار الحزن حتى يستطيع أخي الاهتمام بدراسته. تواصلتُ مع خالتي بعدها بعدة أيام أعزيها وأشد من عزيمتها، فوجدتها غارقة في حزنها لا رغبة لديها بأي شيء على الإطلاق ولا تعبر عن أي شعور، صامتة متوقفة عن البكاء، نطقت كلمات قليلة معي تعبر عن حمدها وشكرها لله على كل حال... تواصلتُ مع أمي

للاطمئنان أكثر على خالتي فأخبرتني أنها أفضل حالا الآن وستكون أفضل في الأيام القادمة وأنها ستحاول أقناعها بالحضور معها إلى مصر.

مر أسبوعان وعاد أبي وأمي، وأخبرتني أمي أن أختها هاجر رفضت القدوم إلى مصر والانضمام لنا وأصرت على ترك الدار– وكان لها ما أرادت– فتم بيعه وأخذت خالتي هاجر نصيبها واشترت منزل صغير في نفس منطقة أخويها، ولحقت بها تقية التي قررت العيش مع خالتي وطلبت من أمي شراء ماكينة خياطة لها لتقوم بخياطة ملابس الأطفال أو خياطة ما تحتاجه النساء في الحي من تقصير ملابس وغيرها من أمور الخياطة البسيطة، وذلك حتى تستكفي بنفسها وتستغل الوقت الطويل عندما تكون خالتي في المدرسة، وخاصة أنها أصرت أن لا تأخذ أي مبلغ منها نظير عملها في المنزل من تنظيف أو إعداد الطعام. تأملت ما حدث وكيف خطت خالتي أول خطوة عملية بعد وفاة جدي وهي الدراسة والعمل، وثاني خطوة بعد وفاة جدتي وهي الانتقال إلى منزل حديث، رغم بساطة هذه الأمنيات ومشروعيتها، فأنها تبدو تحدي وتمرد وكل هذا بسبب الخوف مما سيقوله الآخرون.

قال لي أبي عندما سألته عن شقيقي أن أموره جيدة وكذا المكتب الذي يديره أخي سمير يسير بشكل جيد وان حياته مع زوجته جيدة تمر بأقل إمكانيات الأمن والسلامة، ولكنها مع ذلك تمر.. ثم أضاف:

- لكن السفر إلى اليمن أصبح صعبا ليس بسبب طول المسافة المختلقة، ولكن التوقف في مطار بيشة السعودي دون مبرر كان متعبا جدا، شعر به كل

المسافرين بشعور الذل والهوان، ثم تلاه مشقة السفر في الطريق البري وسط احتمالات مصادفة اشتباكات بالطريق من عدن إلى صنعاء.

تواصلت مع خالتي هاجر بعد مرور شهر على وفاة جدتي، وجدتها متقبلة لقضاء الله وقدره وأخبرتني أن لديها منزل جميل وأنها وجدت مدرسة مناسبة ليست قريبة ولذا فسوف تتعلم قيادة السيارة وتعتمد على نفسها أكثر، وأنها محتفظة بصديقاتها من المدرسة السابقة وكذلك حصلت على صديقات من المدرسة الجديدة، ثم ضحكت بصوت قارب على البكاء وقالت لي:

- لم يعُد العود مخبأ!

ثم انفجرت ببكاء مرير.. واسيتها وأخبرتها أن العود كان مخبأ دون مبرر وأنها لا تعمل ما يخالف رغبة أمها وأنها فقط لم تخبرها عن هوايتها لذا لا تعلم ما هو رأيها وخاصة أنها تغني بالدرجة الأولى للترفيه عن نفسها، من يدري ربما كانت ستشاركها جلسات الطرب.

بينما كنتُ اكتب كتابي الجديد – وهو عبارة عن رواية تروي عن "لعنات الحرب" كانت صديقتي سهير تشجعني وكنا نناقش بعض الفقرات فيه معا، وأحيانا بحضور أحد كُتاب المجلة. وهي لقاءات مثمرة يتم مناقشة فقرات الرواية تلك التي تحتاج لإغناء أو توضيح أو غيرها من ملاحظات المناقشين. وذات يوم طلبت مني أن نعقد لقاء جديد لأنهاء مراجعة روايتي – وبدا لي هذا شيئا طبيعيا– ولكن غير الطبيعي أنها قالت لي:

- ما رأيك ندعو مدام هدى لحضور اللقاء ونستفيد من تحليلها.

سررتُ بالخبر بالطبع، واتصلت للخالة هدى أبلغها بالموضوع؛ فرحبت وجاءت إلى المجلة في اللقاء التالي لمراجعة روايتي.

بعد هذا اللقاء بأسبوع اتصلت لي صديقتي سهير وقالت لي:

- هل تعتقدين أن مدام هدى ممكن أن تقبل ان تنضم للقاءات مراجعة الروايات التي ينشرها الدار؟ وبالطبع سوف تأخذ مقابل جهدها.

انعقد لساني من الدهشة للحظات! فواصلت سهير:

- فقط ستحضر لقاءات المراجعة لكل كتاب ننوي طباعته، بحضور الكاتب وأحد أدباء المجلة، سوف يساعد نقدها وتحليلها في تحسين الرواية قبل إصدارها.

لم تتخيل صديقتي سهير أن خبرا مثل هذا قد يكون جميلا أو رائعا في مجتمع آخر؛ فعلى الرغم أنه خبر عادي إلا أنه خبر غريب في مجتمعنا؛ فلم نتعود أن نجد من جيل أمهاتنا الكثير ممن سلكن طريق العمل وخاصة بهذا العمر، وكنتُ أعلم أن أم صديقتي سهير دكتورة بالجامعة وصاحبة مؤلفات في علم الآثار، ولكن في مجتمعنا القليل جدا من النساء بأعمار أمهاتنا من انخرطن في العمل من وقت مبكر.

ذهبتُ خصيصا لمنزل الخالة هدى، ونقلتُ لها الخبر ببهجة، اندهشت قليلا! ثم قالت:

- لا يمكن؛ هذه مخاطرة! إن صديقتك حسنة النية وتأمل مني ما هو غير موجود لدي.

شجعتها ووضحت لها أن العمل سيتم مع كل رواية، ويمكن أن تقرأ الرواية في المنزل ثم مع المؤلف أو المؤلفة في مقر المجلة؛ تركتُ الخالة هدى تفكر وتناقش الموضوع مع زوجها ووعدتني أن تبلغني في اليوم التالي بقرارها؛ وفعلا أبلغتني بموافقتها في اليوم التالي، وبدأت بالعمل بداية جميلة لشغفها في قراءة الروايات وتحليلها، وكونت علاقة جميلة مع صديقتي ومع أمها. أنهيتُ تنقيح روايتي "لعنات الحرب" ولكني طلبتُ من صديقتي تأجيل نشرها؛ لانشغالي بأمور الزواج.

قررنا أنا وابتسام وهناء أن نعقد اجتماع على تطبيق زووم على الأقل مرة ما بين فترة وأخرى نناقش فيه أخبارنا كما تعودنا ونظل على صلة ولا نخفي أي خبر مهم في حياتنا عن بعضنا؛ وكان لقاؤنا التالي مخصصا لموضوع زواجي.

اعتذرت ابتسام عن الحضور بسبب استلامها عمل جديد –تدريس اللغة العربية في مدرسة عربية– لا تريد أن تخسره لما ستناله من الاستقلال والاكتفاء المالي، تقبلتُ اعتذارها بحزن وخاصة أن أخي أيضا أعتذر عن الحضور بحجة أن زوجته لا تستطيع الحضور مع طفلتهما الصغيرة ريا عبر طريق وعر وخطير حتى يصلوا إلى عدن ومنها إلى مصر.

ناقشنا تفاصيل العرس الذي أحاول أن أجعله صغيرا محدودا؛ ويحاولن صديقاتي أن يعشن الفرح الذي حرمنا منه كلنا منذ رحلنا عن اليمن وربما قبل ذلك، ومع الشد مني والشد منهن ومن خطيبي رتبنا العرس بشكل جميل، وبدأتُ أجهز نفسي مع اقتراب يوم العرس.

وقبل موعد حفل العرس بأيام قليلة كانت المفاجأة! ظهرت صديقتي ابتسام أمامي، لم أستوعب المفاجأة ونظرت طويلا إلى صديقتي قبل أن أرمي نفسي في حضنها ونحن نبكي بكاء شديدا، جاء على إثره كل من في المنزل مفزوعا، ضحكنا وبكينا بنفس الوقت وبكت معنا أمي وهناء والخالة هدى.

حضرت ابتسام مع أولادها ووالدها ووالدتها وشقيقاتها، وكانت المفاجأة الثانية هي حضور أخي وزوجته وابنتهما فقد كان اعتذارهما فقط من أجل مفاجأة الحضور.

لم أسعد مثل تلك السعادة في حياتي منذ زمن، وأخيرا اجتمعنا فعليا بعد طول الفراق وبعد تلك اللقاءات على شاشات الحاسوب أو الهاتف التي مهما كانت جميلة فهي ليست حقيقية، كما سعدتُ أن يكون شقيقي بجانبي في هذا اليوم المهم في حياة كل فتاة.

جلستُ مع أخي سمير وزوجته بينما تفرق البقية في مشاغلهم المختلفة، بدا سمير أكثر نضوجا ولاحت على ملامحه الجدية – ولم يعد ذلك الشاب الذي يريد من الجميع خدمته لأنه يدرس الهندسة، تحدثنا عن اليمن والظروف الصعبة وبدا سمير واعيا للظروف ولمتطلبات الحياة وضرورياتها، وسألتُه إذا ما كان يود البقاء في مصر، فرد:

- بالطبع لا، أنا أعلم بأني لن أجد عمل في مصر كما أن المكتب يدر علينا دخلا جيدا، وكما تعلمين بأن الرواتب إلى الآن منقطعة ولا يحصل على راتب إلا الذين يعملون في قطاعات خاصة ومع ذلك الكل يذهب لعمله ما عدا من غادر إلى الخارج.

وأيدته زوجته وقالت:

- الحياة باليمن تسير لمن معه القليل من المال، نحن محظوظون فلدينا بيتنا ولدينا الكثير من الأهل والأصدقاء ودخل المكتب يسمح لنا بحياة كريمة.

أكد سمير كلامها وقال:

- لا أريد أن أكون أنا وأسرتي عالة على مدخرات أبي، وبنفس الوقت تعلمين أن دخل المكتب يدعمنا ويدعمكم هنا حتى تبقى مدخرات الوالد في أمان لأي طارئ، أني حزين لان أحد مهندسي المكتب الممتازين غادرنا للعمل في الخارج، ولا ألومه فالكل يبحث عن الأمان، ولكن ما زلنا نعمل بشكل جيد في المكتب.

شعرتُ إلى أي مدى أنضجت سنين الحرب أخي سمير ولم أجد ردا على حديثهما إلا بقولي:

- بإذن الله تعود الأمور لطبيعتها ونعود لليمن.

فضحك أخي وقال:

- وهل سيعود إبراهيم لليمن؟

فقلت:

- بالتأكيد، سنعود لليمن، وبأذن الله ستكون عودة قريبة.

فنظر إليّ سمير طويلا ثم قال:

- بإذن الله وهل للوطن بديل.

وعدنا إلى الحديث عن لبنان وعن السفر وتجهيزات العرس، ولكن ظل تسأل شقيقي يؤجج عقلي بين حينا وأخر "وهل سيعود إبراهيم لليمن".

حفل الزفاف

نسيتُ كل إجراءات العرس، وقضينا أنا وابتسام وهناء – دون أطفالهن– اليوم التالي كاملا بالخارج مثل تلك الأيام الخوالي، تحدثنا وضحكنا وبكينا، اختلطت مشاعرنا مع ذكرياتنا عن أخبار الصديقات اللاتي أما بعثرتهن الحرب في بقاع العالم أو اللاتي ما زلن يُجدفن في بحر المشاكل في اليمن ويعتدن حياة مع وقف التنفيذ، ذهبنا إلى الأهرام وفقا لطلب ملح من ابتسام وكان الجو جميلا وقد خفّت شمس الصيف الحارقة، ومن ثم ذهبنا إلى خان الخليلي والذي لم أزوره أنا نفسي من قبل ولا هناء، وجلسنا في مقهي الفيشاوي، وقضينا وقتا ممتعا جدا – لا أذكر أني قد استمتعتُ في مصر هكذا مطلقا– وبعدها أخذنا مركبا لنا فقط، فسرنا على نهر النيل نغني تلك الأغاني التي تذكرنا بمرحلة الصبا وأيام الكلية؛ وقبل أن نقترح مطعم لتناول وجبة رئيسية –لا أدري ما إذا كانت غداء أو عشاء فقد كانت الساعة تقارب السادسة مساءً – كان الاتفاق مع سهير أن نتواصل معها في هذا الوقت، فدعتنا إلى مطعم أسماك قدورة الشهير للاحتفال بقدوم ابتسام، وهكذا ذهبنا إلى هناك وتناولنا ألذ وجبة سمك في مصر، وتذكرنا مطعم الشيباني في اليمن الذي يقدم ألذ وجبات الأسماك وكان المكان المفضل أيضا لدى سهير وعائلتها عندما كانوا في اليمن، فلأنهم من الإسكندرية كان السمك دائما وجبتهم المفضلة.

قررت سهير، بل أصرت أن يكون اليوم التالي مسؤوليتها فقط؛ فهي من تحدد أين نذهب وماذا نأكل؛ وكان برنامج سهير في اليوم التالي أكثر من رائع، حيث ذهبنا

إلى القرية الفرعونية ثم انطلقنا إلى البرج، وبعدها كانت قد حجزت لنا في السفينة الفرعونية التي تقدم العشاء وتسير على نهر النيل ضمن برنامج رائع وانضم إلينا إبراهيم وزوج هناء وأخي وزوجته وكذلك زوج سهير فكان لقاء تعارفي جميل، وعلمتُ فيما بعد أن دعوتها كانت شاملة أهالينا جميعا، ولكنهم اعتذروا.

كان أول تعارف بين ابتسام وإبراهيم وقد تبادلا حديثا مطولا فيما بينهم على طاولة الطعام ولأني لم أكن أجلس بالقرب من إبراهيم فلم أستطع استراق السمع وشعرت بالفضول لفحوى حديثهما الذي لا شك فيه سيكون لي نصيب كبير، ولكني حرصتُ على دعوة ابتسام لرؤية منظر نهر النيل من شرفة السفينة، وجذبتها من يدها وصحبتها إلى أعلى وقبل أن تعبر عن روعة المنظر قمتُ باستجوابها عما دار بينها وبين إبراهيم وماذا أخبرته عني، ضحكت وقالت:

- أخبرته كم أنتِ صديقة رائعة وصادقة، وكم أنتِ مجهدة وتحبين عملك ولا تقبلين بعمل بديل أو القبوع بالمنزل دون عمل مهما كانت الأسباب، أخبرته أنك رسمتِ فتى أحلامك ولم تقبلي عنه بديلا، وأنه كان هو حتى قبل أن تلتقي به، قلتُ له أنكِ تريدِين شريك وليس رجلا تلوذين به من صروف الحياة ولا تستطيعين تقديم عون أو دعم له، قلتُ له أنه محظوظ بكِ.

احتضنتُ صديقتي ووجدت دموعي تعبر لها عن امتناني وخاصة أنها كانت بالواقع تبكي وهي تحدثني وقالت لي أن الزواج يعني أن تنشغل الصديقة بحياة جديدة، ولكنه في وضعنا الحالي يعني أيضا افتراق أكثر مما نحن عليه فعليا.

كنت حريصة على أن تظل ابتسام وهناء معي في الأيام الأخيرة لتجهيزات العرس؛ لأني كنت في نفس اليوم ومع نهاية الحفلة مسافرة مع إبراهيم إلى لبنان، كما أن المفاجأة التي أسرتنا بها هناء أن زوجها أستطاع أن يحظى بقبول لدراسة الماجستير في السويد وأنهم سيرحلون بعد حفل عرسي بأسبوع؛ وقد اعتذرت هناء عن عدم أخبارنا بذلك لطلب زوجها منها حتى يتم الموضوع بشكل نهائي وكان له ما أراد. ولم تكن هناء مسرورة بفراق أهلها، ولكنها وجدت أن البقاء في مصر يستحيل أن يستمر إلى الأبد مع عدم قدرة زوجها الحصول على عمل وعودة أهله إلى اليمن كما عادت أغلب العائلات التي فطنت إلى أن الحرب لن تنتهي قريبا وان بقاءها كضيوف في بلد ليس بها فرص عمل لن يكون خيارا جيدا.

كان العرس كما خططنا له جميلا أنيقا، حضره معارفنا وأصدقاؤنا المقربون وبالطبع حضرته صديقتي سهير–التي كانت تعتز بدورها في التقائي بإبراهيم– وزوجها ووالديها. جلستُ أنا وإبراهيم على ما يسمى "الكوشة" وتأملتُ من مكاني المرتفع، القاعة وهي تضم بين جوانبها خليط من الأهل والأصدقاء والمعارف، تأملتُ أبي وهو على طاولة مع بعض من أصدقائه، هل كان يتخيل أنه سيكون موجودا في قاعة عرسي! مستحيل –مع الأسف– فهذا ليس مقبولا في بلدنا، لأن حفلات العرس للنساء فقط، ويمكن لبعض الأسر السماح للأب والأخ بالدخول تزامننا مع دخول العريس وارتداء النساء لعبايتهن وحجاباتهن؛ تأملتُ أخوتي، أمي، أصدقاء إبراهيم، تأملتُ صديقاتي وهن يتهامسن بالتأكيد عني! وكنتُ فعلا سعيدة بهذا الجو المبهج، سعيدة لأني منحتُ أهلي هذه السعادة في وقت قل فيه الفرح.

وهكذا وجدتُ نفسي في نهاية اليوم في الطائرة وبجانبي إبراهيم، وسارت الطائرة على أرض المطار متمهلة ثم اسرعت تلتهم الطريق بشراهة ثم أقلعت مرتفعة إلى الأعلى محدثة ضجيجا ضخما، نظرتُ من النافذة فوجدت المناظر ترحل من أمامي إلى الخلف، وجدتُ وجه أمي وعينيها تطلقان الدموع توديعا لي يرحل للخلف، وأبي أخوتي وهم يبادلوني الابتسامة مسحوبة بحرقة الفراق وصديقاتي متألقات مع أولادهن فرحات لي أيضا الكل يرحل للخلف، ووجدت وطني اليمن بكل سنوات عمري فيه يمر إلى الخلف، ومصر الأرض التي احتضنتنا وأعطتنا الأمان.. كلهم يرحلون للخلف! وبقيت أمام عيناي السماء زرقاء واسعة وشاسعة، تحتوي على الفراغ، فوجدتُ نفسي أجهش بالبكاء بحرقة، أبكي كما لم أبكِ عمري كله! بكاءً كما يبدو أنه كان محبوسا في أعماقي منذ أن رحلنا من اليمن.

تخبط إبراهيم في ردة الفعل وارتبك بعد أن كان مبتسما سعيدا يبحث في تلفونه عن صور عرسنا تلك التي أرسلها له أصدقاؤه لمشاهدتها معا، فلم يتوقع أن يجدني أبكي بتلك الحرقة وبصوت محبوس قدر الإمكان! سمعتُه يقول لي "هل أنتِ بخير؟"، ثم سمعتُه يطلب لي ماء، رغم محاولتي لم أستطع التوقف عن البكاء ولم أستطع شرب الماء؛ فوضع إبراهيم رأسي على صدره وضمني إليه –ولأول مرة– أجد نفسي في صدر رجل ما زال غريبا نوعا ما، ولكني استرحتُ وهدأتُ وكما يبدو أني غفوت.

تسلل إلى سمعي صوت المضيفة وهي تسأل إبراهيم ماذا تضع لي لحم أم دجاج، فتحتُ عيناي وأنا أشعر بالإحراج والخجل من البداية السعيدة التي أعطيتها لإبراهيم، وطلبتُ طبق الدجاج وذهبتُ إلى الحمام اغسل وجهي وأعدل ما تبقى من مكياج العرس وتنهدت بصوت عالٍ محاولة أن أخرج ذلك الإحساس بالفراق.

لبيروت من قلبي سلام... عادت كلمات أغنية فيروز تهمس لي:

" لبيروت
من قلبي سلامٌ لبيروت
و قُبلٌ للبحر و البيوت
لصخرةٍ كأنها وجه بحارٍ قديمِ
هي من روحِ الشعب خمرٌ
هي من عرقِهِ خبزٌ و ياسمين
فكيف صار طعمها طعم نارٍ و دخانِ"

بيروت لطالما سمعتُ وقرأتُ عنها، والأهم عشتُ معها من خلال أغاني فيروز منذ أن وعيتُ على الحياة... لبنان ذلك البلد الذي يتعثر وينهض ويعود ويتعثر! وما زال الشعب يغني ويتظاهر ويحلم كما نحلم كلنا بغدٍ أفضل.

لأن إبراهيم كان سابقا يسكن مع زميل له ضمن شقة مشتركة؛ حرص أصدقاء إبراهيم على وصولنا إلى شقة مؤثثة بطريقة تسمح لنا بالبقاء فيها لأيام قبل أن نبدأ نحن بإكمال تجهيزاتها بذوقنا الخاص؛ فوجدتُ نفسي في شقة جميلة لها إطلالة من بعيد على البحر فعشقته من أول نظرة!

كان البحر هو أول مفاجآتي في لبنان، ذهلتُ وأنا أتأمله في أول لقاء بيني وبينه! فلم أذهب يوما ما إلى عدن أو الحديدة حيث يرقد بحرنا، كما لم أذهب في مصر إلى أي مدينة بحرية فكان هذا أول لقاء لي مع البحر.

وعندما ذهبنا إلى أحد المطاعم المطلة على البحر، تركتُ إبراهيم جالسا على الطاولة وذهبت مشيا للقاء البحر، جلست على الرمال قريبة منه فأتت الموجات الصغيرة واحدة تلو الأخرى تعانق قدماي؛ فرحتُ كطفل يكتشف ما هي هديته في العيد!

مهيبٌ هو البحر، كريمٌ يعطي نفسه للبشر فيشقون عبابه ويصلون إلى أطرافه، بخيلٌ هو البحر يحتوي على هذا الكم الهائل من الماء ولا يروي عطش أحد، ومع ذلك اتخذته صديقا واتفقنا أن أشاركه أسراري فلا يبوح بها لمسافر ولا يخبر بها أحدا من سكانه في الأعماق. تذكرتُ نهر النيل وكيف وجدتُ صعوبة في أن أخاطبه وأبوح له بهمومي، عرفت الآن لماذا؟! لأني قابلتُ نهر النيل وأنا ما زلت طرية الجرح، ما زالت أعماقي تبكي ألما وحرقة، شعرتُ في مصر وخاصة في بداية وصولي لها بأني ضيفة؛ فهل تشكو الضيفة همومها لمضيفها؟

كان شهر العسل أسبوع فقط جميل رائع وسريع؛ لأن إبراهيم يجب أن يعود لدراسته، ولأن إبراهيم يعرف بيروت جيدا فقد كان خير دليل، تجولنا وسط بيروت وجلسنا في المطاعم الجميلة المرصوصة فيه، حضرنا الحفلات الموسيقية المقامة في الشارع، كما سرنا على الكورنيش وتعرفنا على خليج زيتونة والروشة الشهيرة خصصنا يوما كاملا لزيارة مغارة جعيتا الشهيرة وأذهلتني كثير، شعرت أني اسير في أحد كهوف الأحلام والخيال، ويوما آخر ذهبنا لزيارة قرية إهدن التي تقع على أحد

جبال لبنان المكسوة باللون الأخضر، الطريق إليها خلاب ويحسب السائر فيه أنه قد خرج من العالم المعتاد وصعد درجات إلى حيث يقترب من جمال الجنة.

انتهى الأسبوع وقد عشتُ فيه حياة مختلفة عما أنا معتادة عليه، كل شيء حولي كان جميلا ورائعا ومختلفا، صور مبهجة تحيط بي، أناس يغنون ويرقصون بكل عفوية في الشوارع، أسر تتنزه مع أطفالها وهم يدورون حول أبويهم وكأنهم يغنون للحياة، صورة جميلة تعبق برائحة البهجة. أعترف لي إبراهيم أنه لم يستكشف بيروت كما استكشفها معي، وأنه لم يحب بيروت كما أحبها معي، فاعترفت له أنا أيضا أني لم أسعد في حياتي كلها كما سعدت في هذه الأيام.

أحسستُ أني في بداية مرحلة ومحتاجة لإعادة التفكير فيما يجب أن أعمله؛ وقررت أن انعزل لمدة شهر أُعيد ترتيب حياتي، حاولت قدر الإمكان أن أبقى بمفردي في الصباح وأعطي إبراهيم بقية اليوم بطيبة خاطر، ولكن أيضا بمفردنا دون ضجيج من الآخرين.

حوار مع نفسي

عملتُ بنصيحة ابتسام قلصتُ كل اتصالاتي مع أهلي وصديقاتي حتى بها هي وبهناء، لأني كنت بحاجة أن اجلس مع نفسي وأعيد ترتيب حياتي التي جاءت جديدة تماما كزوجة وكبلد غريب دون أي من أهلي أو صديقاتي؛ وطلبت من إبراهيم أن لا نجتمع مع أحد في هذا الشهر؛ لا أريد أن أجد نفسي أرد على أسئلة لا أعرف إجابتها بعد، ماذا ستفعلين الآن؟ هل ستشتغلين؟ ماذا؟ وماذا!؟ ولا أريد أن أرد على أسئلة تتعبني الإجابة عليها...كيف اليمن؟ كيف الحرب؟، كيف الحياة في مصر؟ كيف؟ كيف؟. حتى الفيسبوك توقفتُ عنه، كنت أريد أن أفرغ نفسي من كل تدخلات البشر –بحسن نية– في حياتي، أريد أن أكون مع نفسي أحاورها وأغوص في أعماقها في وقت يكون فيه المنزل صامتا يساعدني على الإبحار نحو ذاتي، كنتُ أقترب من الثلاثين من عمري واعتبرها نقطة بداية، أنا فقط المسؤولة عن أحداثها.

ماذا أريد؟ هل أنا قادرة على الاستمرار بكتابة الروايات؟ هل هذه الروايات جيدة فعلا؟ كيف سأدبر أمور حياتي مع مسؤولياتي الجديدة؟ ما هو المستقبل الذي أريده لنفسي؟ لم يكن سهلا أن أحدد نقطة بداية، ولكني شعرتُ أن هناك نقص بثقتي بنفسي واستحقاقي للحلم الذي أحلم به، شعرتُ بشيء من الضعف، شيء ما ينقصني؛ لا أدري ما هو؟ شعرتُ أن في قلبي أكواما من الحزن؛ في عقلي يرن أزيز الطائرات في سماء بلادي، ويصل إلى أعماقي صوت الانفجارات وصراخ القهر

والظلم وأنين الفاقدين لأحبائهم، اكتشفت أن أعماقي مدمرة لا تسمح لي بفرح حقيقي، وتُشعرني بتأنيب الضمير لو شعرتُ أن الحياة جميلة! وكيف لا أشعر بذلك وكل ما أنا فيه الآن فاق أحلامي وخيالي؟ كيف لا أشعر بالسعادة وقد وجدت شريك لحياتي لم يطابق أحلامي، بل فاقها؟ فلما لا أستطيع أن أفرح فعلا؟ لا أستطيع أن أتفاءل بالقادم؟

خاطبتُ نفسي طويلا وسمحت لها بالبكاء بصوت عالٍ، قدرتُ حزنها على بلدها... أتفهم شعورها، وأخيرا توصلت إلى أن الله يهب من يشاء ما يشاء، وهذه هبة الله لي يجب أن أحمده عليها وأشكره، وأقدر هذا القدر المكتوب لي وأسمح لنفسي بالفرح وبالتفكير بشكل إيجابي فيما أرغب بتحقيقه في المستقبل القادم.

وكانت نتيجة شهر الاعتكاف، قرارا اتخذته وهو دراسة الماجستير حتى أقف على أرض صلبة في طريقي لتحقيق هدفي ككاتبة وروائية، وأقوي من إمكانياتي الأدبية واللغوية، وقرارا لم اتخذه وهو الجنين الذي احتل داخلي مصحوبا بكل الأمومة التي اختزنتُها له، وهكذا كانت بدايتي في بيروت.

ضحك إبراهيم حتى ترقرقت عيناه بالدموع عندما أخبرته أني قد أكون حامل، فرح بشكل كبير وقال لي "لقد تخيلتُ ابنتي وماذا ستأخذ مني وماذا ستأخذ منك، رسمت لها صورة بقلبي ولم أتخيلُ أنها ستأتي بهذه السرعة والكرم!". وهكذا اتفقنا على خطتنا وهي الدراسة وانتظار المولود القادم والتعاون فيما بيننا حتى نحصل على شهاداتنا والطفل بإذن الله.

كان يفصلني عن موعد الدراسة التي سجلت فيها – شهران كاملان– قررت أن استغل جزءاً من الوقت في القراءة والاطلاع على الأدب العالمي، وجزءاً أداوي نفسي وأسمع لها؛ البحر كان هو الصديق الذي اتخذته وسمحتُ لنفسي بمناجاته والحديث معه بصوت عالٍ كلما خطرت لي خاطرة أو كلما داهمتني ارتدادات الحزن في داخلي.

ذهبتُ إليه... مشيتُ حافية القدمين عند شاطئه، ناجيته عن قرب، همستُ له "هل تعلم أيها البحر أننا نحلم دائما، لا نتوقف عن الحلم، وهل تعلم أن قتل الحلم أسوأ من قتل النفس، لأن قتل النفس نهاية تعود بها إلى بارئها، ولكن قتل الحلم هو عبارة عن موت بطيء أو حياة مع وقف التنفيذ!.

أعَلمُ أيها البحر أنك تخفي في أعماقك الكثير من الأسرار؛ وأعَلم أنك مثلك مثل الحياة، تكون أحيانا هائجا غاضبا وأحيانا هادئا لطيفا، وأنك تترك لنفسك حرية التعبير عن مشاعرك وفرحك وحزنك ولا تأبه لما يريده منك البشر، ومنك سأتعلم أن أعبر عما يزعجني وأن أفرح بكل ما يهبه الله لي".

كان أول لقاءنا أنا وابتسام وهناء بعد شهر الاعتكاف الذي عشته، لقاءً متميزا اتسم بالشوق وامتلأ بالأخبار الجديدة التي بدأت أنا بسردها، فقلت:

- أموري طيبة مع إبراهيم وكل يوم اكتشف جانب رائع من شخصيته.

واعترفتُ بشيء من الخجل:

- أنه ما كنتُ أحلم به واستبعدت أن أجده.

ونقلتُ خبر انتظاري للمولود الذي يتكون داخلي الذي قوبل بصراخ الفرحة والبهجة، وخبر تسجيلي للماجستير لأني شعرت أني يجب ان اطور مقدرتي الأدبية وفهمي اللغة بشكل عميق، وكذلك مبادئ وأسس كتابة الروايات.

وأخبرتنا ابتسام أنها بدأت العمل في المدرسة، وقررت في نفس الوقت تعلّم اللغة التركية حتى تضع أساس سليم لبقائها في تركيا، والخبر المثير هو انتقالها مع أولادها إلى شقة مستقلة بجانب عمارة أهلها – فهذا التصرف غير مألوف في مجتمعنا– ولكنها أصرت عليه حتى تكسب استقلال أكبر في حياتها وطريقة تربيتها لأولادها، كما أصرت على الطلاق وخاصة أن زوجها لم يكن ينفق عليها ولا على أولاده منذ أن رحلت من اليمن رغم أنه الان يكسب الكثير.

وقالت:

- يا للغرابة! رغم تحسُن حالته المادية إلى درجة كبيرة فأنه لم يصرف علينا ولا مرة حتى قبل أن يتزوج، ودون حياء يرسل لي رسائل أن علىّ أن أحسن اختيار مدرسة الأولاد مهما كلفت!

ثم أضافت:

- ولكني اعتقد أنه سيرضخ لطلب الطلاق فأنا أضع صوري مع أولادي وصديقاتي على صفحتي، هل تتخيلين؟؟ لقد تواصل مع أبي يخبره أن ما أعمله يعتبر فضيحة لأني أظهر دون نقاب، فقال له أبي إذا أردت أن تتجنب الفضيحة فطلقها.

وجاء دور هناء التي بدأت حديثها بضحكة مخنوقة بعبرات فرت إلى عينيها وقالت:

- لقد حبستُ دموعي وقتا طويلا وكنتُ مقررة أن اذرفها هنا معكن، ولكن لا أريد أن أكون أضعف منكن! أنتِ يا نادية واجهتِ حياتكِ الجديدة وحيدة تماما دون أحد من أهلك، ومع ذلك رتبتِ أمورِكِ بشكل طيب، بل ممتاز، وأنتِ أيضا يا ابتسام وجدتِ نفسك مع ثلاث أطفال دون أبيهم، ومع ذلك رتبتِ نفسكِ ولم تعتمدي على أهلك رغم قدرتهم على إعالتك أنتِ وأولادكِ، لذا سأكونُ مثلكن.

وبدأت تذرف دموعها وتمسحهن بقدر الإمكان وأكملت:

- لم أتكيف وحدي هنا في السويد؛ أشتاق لأمي كثيرا واتصل لها يوميا أبكي وتبكي معي، اشتقت للقاءاتنا الفعلية وليس خلف الشاشات، اشتقتُ لليمن، لأحلامنا البسيطة، لأيام الكلية حيث كان النجاح في موادنا هو أكبر أمنياتنا والرسوب أكبر همنا، اشتقتُ لنفسي دون هذه المسئولية الكبيرة الملقاة فوق أكتافي.

سكتت ومسحت دموعها وأضافت:

- نديم يذهب صباحا للجامعة وفي المساء يبحث عن شقة أفضل من هذه التي تبدو قديمة مظلمة لم نشعر بالارتياح فيها وأولادي لم يتقبلوها، كما يبحث عن عمل لدعم احتياجاتنا.

وعادت تقول:

- لا أدري كيف يمكن أن أساعد أو على الأقل أخفف ضغط الحياة عن زوجي، أنه لا يسمح لي حتى بالشكوى من الواقع الذي نعيش فيه ويتجاهل الضيق الذي يشعر فيه أولاده، ويردد أن مشاكله كافية له، ولا يريد هموم فوق همومه.

حاولنا أن نهدئ هناء واقترحنا عدة اقتراحات يمكن لها من خلالها أن تساعد نفسها وزوجها، وشاركتنا هي أيضا بطرح الاقتراحات، وقالت لها ابتسام أن الحزن والبكاء لا يحل أي قضية، بل يحجب ظهور أي فرصة ممكنة وطلبت منها أن تعطي للأيام وقتها وأن تدعم زوجها على الأقل ببقائها إيجابية وتحسين أجواء المنزل وخلق الفرح والبهجة من أجله ومن أجل أولادها، نصحتها وبشدة بقضاء –على الأقل– أحد أيام الإجازة الأسبوعية بالتنزه والخروج من جو القلق والترقب الذي يعيشون فيه والذي تساهم هناء بفرضه كواقع لا مجال للتخلص منه.

وهكذا هدأت هناء واستمر لقاؤنا نشجع به بعضنا ونستمد من ابتسام بعض التوعية من كتب التنمية الذاتية والتصالح مع النفس التي تداوم على قراءتها، لتحسين نفسيتها المحطمة من الغدر والخيانة والتخلي واللامبالاة من زوجها، وتواعدنا على لقاء أقرب وخاصة من أجل هناء، وبالطبع نحن نتواصل على الواتساب في أغلب الأيام، ولكننا نترك الأخبار الكبيرة للقاءات الزووم.

سجلتُ في الجامعة وبدأتُ أعود لمقاعد الدراسة من جديد، لم أكن أتوقع ذلك نهائيا، أخذتُ نفسا طويلا واستعددت للمرحلة القادمة بحافز قوي محاولة أن أتناسى احتمالات التعب مع نمو صغيري المستمر داخلي؛ كانت الكلية التي أدرس فيها كبيرة ولها مرافق كثيرة وحدائق ومتنفسات متنوعة لم أتوقع أن تكون في كلية، وكان

الطلبة من الجنسين بينهم زمالة وصداقة يجلسون مع بعضهم البعض في المقاعد في هذه الحدائق، يدرسون مع بعضهم ويتحدثون مع بعضهم بشكل طبيعي وعفوي، علاقات الحب كانت تظهر أيضا فتتلاقي الأيدي وتمشي سويا في ممرات حدائق الكلية –علاقات علنية واضحة – تأخذ طريقها فيما بعد أما للزواج أو للفراق، كيفما سارت تلك العلاقات.

وكان قسم الفنون المسرحية، وقسم الموسيقى ضمن أقسام الكلية فكنا نحضر تدريبات التمثيل للروايات العالمية لطلبة الفنون المسرحية على المسرح، ونستمع لعزف لتدريب طلبة الموسيقى على الآلات الموسيقية المختلفة على مدرج مسرح الكلية المكشوف. شعرتُ أني في عالم مختلف عن ذاك الذي قضيتُ فيه أربع سنوات، أشفقتُ على شُحة الإمكانيات وقيود العادات، واختلاف الثقافات، تذكرتُ زميلتي بالكلية عندما أخبرتني أنها تهوى العزف على العود، فهل كانت تعلم أنه تخصص بحد ذاته؟ وتذكرت كم كنا نضحك من زميلة لنا كانت تهوى التمثيل فكانت تمارس هوايتها بالتمثيل علينا بمواقف متعددة وعندما نصدقها تضحك وتقول لو أتيحت لها الفرصة لصارت أفضل من فاتن حمامة، ماذا لو فعلا أُتيحت لها الفرصة هكذا ببساطة وضمن دراسة، هل كانت فعلا ستتفوق على فاتن حمامة؟ تُرى لو فتحت هذه الأقسام في بلادي وأُجيز دخولها بشكل طبيعي وتحررت من كل قيود العادات والتقاليد، كم من طالب وطالبة سيتركون ما يدرسونه ويلتحقون بهذه الأقسام؟ بالتأكيد عدد كبير.

اختلفت طريقة الدراسة عما اعتدتُ عليه، إذ كانت تعتمد بشكل أساسي على الأبحاث كطبيعة دراسات الماجستير، لم يمثل ذلك مشكلة بالنسبة لي، إنما المشكلة

كانت في اللغة الفرنسية التي وجب عليّ تعلُّمها من أجل مقرر يتضمن تحليل الروايات باللغة الإنجليزية والفرنسية؛ فاجتهدت في تقوية كلتا اللغتين بنشاط وهمة وقد اتضحت الرؤية لي بأهمية الاطلاع على الأدب العالمي وقراءته بلغته الأصلية قدر الإمكان.

الحجة آمنة... نسخة لبنانية

ذات يوم كنتُ أجلس في صالة الطعام في الجامعة وأنا أشعر أني متعبة وكانت أمامي بطني التي بدأت تأخذ ظهورا واضحا، وضعتُ رأسي على الطاولة وأغمضتُ عيني قليلا، سمعتُ صوتها بلهجة لبنانية محببة يقول:

- هل أنتِ بخير أستاذة؟

رفعتُ رأسي ووجدت أنها عاملة النظافة التي تقوم بمسح الطاولات أولا بأول؛ أحسستُ أني فعلا محتاجة للماء، فطلبتُ منها أن تشتري لي زجاجة ماء وأعطيتها المبلغ، ذهبت سريعا وعادت بقارورة الماء مع ما تبقي من النقود، طلبت منها ان تحتفظ بما تبقى من المال؛ وأن تجلس إذا لم يكن لديها عمل، فجلست مبتسمة، كانت امرأة تبدو كأنها تخطت الستين –وأضاف لها الزمن سنوات أكثر– ملامحها تُفشي جمالاً لا شك أنه كان يحتل وجهها في عمرا ما. سألتُها وكنتُ أحب التعرف على الناس:

- ما اسمك؟

أجابت:

- فاتن.

سألتها:

- من أي منطقة أنتِ؟

فوجدتُها فزعت من السؤال! ولفتت يمين وشمال وقالت لي:

- كما يبدو من لهجتك أنكِ لستِ لبنانية؛ لذا سأخبرك بالحقيقة، أنا سورية نزحتُ بسبب الحرب مع زوجي وأبنائي الثلاثة إلى لبنان منذ عدة سنوات وقد أصبحوا شبابا الآن الحمد لله.

سكتت قليلا وظهر على وجهها ألم واضح وكأنها تستعيد ذكرى تؤلمها وقالت:

- عملتُ أنا وزوجي بكل المهن الذي صادفناها ووجدنا اضطهاد لأننا سوريون؛ لذا أحاول دائما أن أتحدثُ باللهجة اللبنانية التي أتقنها من قبل لأن أمي لبنانية، ولا نظهر أننا سوريون.

سألتُها:

- وماذا عملتِ قبل هذا العمل؟

أجابت:

- وما الذي لم أعمله!؟ اشتغلتُ في بيوت، وعملتُ مع زوجي في مصانع تعليب اللحوم وتجميدها، وحملتُ الصناديق الثقيلة وأغلب عملي كان داخل ثلاجات ضخمة لحفظ اللحوم، ولكنها مرحلة وعدت –الحمد لله– العمل الآن خفيف، لقد عشنا في هذه الحياة ولم نلحق أن نستمتع بأي مباهج وسنموت ولا يدري أحد عن معاناتنا.

رنت كلماتها في أذني، ولكن بصوت الحجة آمنة وبنفس التعبير، ابتسمت لي فاتن ونهضت بثقل وقالت:

- يجب أن أذهب؛ سينشغل بال زوجي إذا تأخرت فهو يخاف أن يحدث لي شيء.

ومشت بخطوات بطيئة ولاحظتُ أنها تعرج عرجا خفيفا، لا شك أنه بسبب إصابات أحد الأعمال التي لا تعوض!

عدتُ إلى المنزل وصورة الحجة آمنة تحتل خيالي، وبدأتُ أبحث عن هاتفي القديم الذي يحتوي على الأرقام اليمنية والذي اطلع عليه بين الحين والآخر، وجدتُ رقم بلقيس زميلتي في المجلة التي لم أتواصل معها منذ أن تركتُ اليمن، لا أعرف كيف نسيت! قررتُ أن أتصل بدلا من كتابة رسائل وأسألُها عن الحجة أمنة.

رن هاتفها وعاد خيالي إلى اليمن وشوارعها وصباحاتها، وتخيلتُ صديقتي تلتقط هاتفها من فوق مكتبها في المجلة... قطع عليّ الخيال شهقُتها " نادية "! أي مفاجأة هذه كيف الحال؟ رددتُ عليها بأن أحوالي جيدة وبأني تزوجتُ وأقيم الآن في لبنان، ثم سألتُها عن أخبارها وأخبار العمل وكيف يسير في المجلة، فقالت:

- المجلة؟! لا المجلة لم تصمد أمام التدخلات الجديدة وفرضهم عليها نوعية الكتابة وفصل الموظفات عن الموظفين، وضرورة مرور كل ما تنشر المجلة على رقابة من جهتهم وغيرها من القيود والشروط مما أدى إلى صدام قوي بينهم وبين مالك المجلة، ومنها حضرت شاحنة جيش محملة بأفراد لا ينتمون للجيش بأي صلة ومدججين بالسلاح فكسروا ما كسروا ونهبوا ما نهبوا وطردوا جميع الموظفين والعاملين وأخذوا المدير إلى السجن، ولكنه استطاع الخروج بعد أسبوع بوساطة

مشايخ من قبيلته واختفى تماما ليظهر بعد شهر في ألمانيا يندد بصوت عالي بالتدخلات الصارخة بحياة الناس.

حزنتُ كثيرا لما حدث؛ وسألتها عن أخبارها الآن وأين تعمل، فردت:

- أني محظوظة لأني وجدت عملا في أحد المعاهد، ولكن أغلب الزميلات لم يجدن عمل حتى الآن وبعضهن قررن عدم العمل في هذه الظروف المخيفة.

وجاء وقت السؤال الأساسي من وراء هذه المكالمة، سألتُها:

- هذا يعني أن الحجة آمنة أيضا تركت العمل؟ ترى هل وجدت عملا آخر؟

خيّم الصمت لثوانٍ ثم سمعتُها تقول:

- الحجة آمنة؟ ألم تعلمي؟

سكتُ ودق قلبي بقوة وسمعتُها تقول:

- لقد توفت أول الحرب عندما كنتِ في القرية، كما تعلمين بيتها في أحد حارات فج عطان، ومع سلسلة الانفجارات الضخمة التي انصبت على تلك المنطقة بحجة أنه مخزن أسلحة، وزعزعت الأرض كلها، كان من المستحيل أن يبقى بيتها المتواضع، فدُفن بيتها بمن فيه وتوفت مع ابنتها.

ثم أكملت:

- لقد أقام لها زميلنا جمال عزاءً حضره الكثير من الرجال الذين كانوا يعملون في المجلة، وأقمنا نحن لها العزاء في بيت إحدى بناتها.

استطعتُ أن أرد بعبارة واحدة:

- الله يرحمها.

سكتت بلقيس قليلا! ثم قالت:

- أعتذر على الأخبار المحزنة، ولكن هناك شيء آخر.

وسكتت فترة وسكتُ أنا غير مستعجلة على خبر بالتأكيد حزين ومؤلم! طال الصمت وفهمتُ أنها تستأذن بنقل الخبر؛ فسألتُ بخوف:

- ماذا أيضا؟

قالت بصوت متردد:

- تعلمين بالطبع حادث ضرب القاعة الكبرى في 2016م حيث كان العزاء وأغلب الحضور كانوا من أهم رجالات اليمن؟

أجبتُ:

- نعم، بالطبع لقد كان يوما كئيبا جدا وراح ضحية ذلك الانفجار الغاشم الكثير جدا من الضحايا ومن أهم شخصيات البلد.

قالت بلقيس:

- نعم، ومع الأسف كان زميلنا المصور سامي هناك في مهمة تصوير من عمله الجديد، وراح ضحية ذلك الاستهداف الغاشم، ولم يتعرفوا عليه إلا من الكاميرا

التي احتضنها بقوة كأنه يعلم أنها ستكون هويته التي سيتم التعرف عليه من خلالها!

سكتُ ولم أستطع إلا تذكُر سامي وهو يحكي لنا عن حلمه بيوم زفاف خطيبته إليه، ترى هل تزوج؟

قلتُ بحزنٍ وأسى:

- رحمهم الله جميعا، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأنهيتُ المكالمة قائلة:

- دعينا لا نقطع التواصل بلقيس.

وتوادعنا بعبارات قصيرة، وأغلقتُ هاتفي وأخذتُ حقيبتي وخرجتُ، أسرعت الخطى إلى الحديقة المجاورة مشيتُ بالممر بين الأشجار وأطلقتُ لدموعي العنان... يا الله! كيف لم أعرف؟ كيف لم أسال؟ تذكرتُ الحجة آمنة وابتسامتها الطيبة ونظرة عينيها إليّ تعبر عن الزمن الذي شاهدته، وخطوط تجاعيد الحياة على جانبي عينيها تظهر أكثر مع ابتسامتها، تذكرتُ صوتها الحنون، وفجأة أحسستُ إحساس قوي بأني لا أسير وحيدة، أحسستُ بالحجة أمنة تسير معي وتناهى لي صوتها من بعيد "نحن النساء المجهولات ألا يطلقون لقب الجندي المجهول على من يموت في سبيل الوطن فلا يعرفون له هوية!؟". نعم، ماتت الحجة آمنة وأخذت معها ابنتها التي كانت قلقة ان تتركها وحيدة، رحلت وحرصت أن تُدفن في بيتها علّ الناس تتعرف على هويتها. ثم ظهرت صورة سامي ونظراته الحزينة وهو يندب حظه وعدم قدرته على توفير

تكاليف عرسه واجتماعه مع خطيبته تحت سقف بيت واحد، ترى هل تزوج قبل أن يموت؟ هل ترك أرملة شابة تندب حبيبا ذهب إلى عمله ولم يعود؟ فزاد تدفق الدموع من عيناي ووجدت نفسي أبكي وطن رخصت دماء أبنائه ودفع الكثير حياتهم تحت أنقاض بيوتهم دون أن يعرفوا لماذا؟

عدتُ إلى بيتي لم يكن إبراهيم قد عاد بعد، غسلتُ وجهي من أثر الدموع وجلستُ على حاسوبي وفتحتُ صفحة خالية وكتبتُ العنوان "نساء منسيات " إلى روح الحجة آمنة رحمها الله؛ وبدأتُ أكتب من أعماقي عن الحجة آمنة وعن زميلتها التي حدثتني عنها وعن فاتن ومثيلاتها وكان هذا هو موضوع التقرير التحليلي الذي طلبه منا أستاذنا والذي لم أكن قد وجدت الفكرة له بعد، كما يبدو أن الحجة أمنة أحبت من علياها أن تقدم لي عون! عاد إبراهيم ولاحظ سريعا تورم عيناي فقصصتُ عليه ما كان من يومي كاملا، وعدنا نتحدث عن اليمن موضوعنا الدائم.

شعرت أني أنهيتُ مكالمتي مع بلقيس بطريقة سريعة ربما لم تكن لائقة، فقررتُ أن اتصل لها وأتحدث معها أكثر. وبالفعل اتصلتُ لها وسألتُها عن أخبارها وأخبار اليمن والزميلات، فقالت لي:

- لا تعلمين يا نادية كيف أصبحت اليمن هذه الأيام! كل يوم نستيقظ على حدث ونعيش فيه فترة نتداوله، نحلله، نطلق عليه النكت، ونأمل أن بعده الخلاص، ويمضي ويأتي حدثٌ آخر، نعلق فيه نتحدث عنه نحضر من التاريخ القديم حكايات مماثلة له، نسأل العالم إذا مر عليه كهذا الحدث، ثم يمضي، لم يعد الناس هنا يعيشون حياة طبيعية، لا ندري إذا كنا في حرب أم لا؟ إذا كنا

مُحتلين أم أحرار؟ لا ندري يا نادية ما هي حدود بلدنا؟ التي نتحكم به لقد تبعثرت! هناك بقعة تحكمها دولة، وبقعة تتحكم فيها دولة أخرى، ومكان ما يعيش تحت حكم دولة ثالثة ورابعة... حقيقية يا نادية لم نعد نعرف حدود بلادنا ولا من يحكمنا!؟ ولا ما هو القانون الذي نرجع إليه؟

سكتت قليل ثم أكملت:

- لقد قسمت الحرب والصراعات البلد إلى طبقات وأحدثت شرخا عميقا في المجتمع، أصبح الكل يخشى من الكل، وتم التحكم بالمرأة بشكل كبير، ماذا تلبس؟ وماذا تعمل؟ ومع من تتحرك؟ لم تعُد الحياة طبيعية رغم كل المظاهر التي قد تظهر على الفيسبوك وكل المهرجانات التي تُلمِع الوضع بالداخل، ولكن الحرب والصراع يدمرا البلد من العمق، لا أمن، ولا أمان، ولا صحة، ولا تعليم!

لم أستطع أن أرد عليها إلا بقول لا حول ولا قوة إلا بالله... ومن ثم حدثتني عن المعهد وعن عملها فيه وسعادتها به على أي حال، فهو يقيها شر الحاجة، وأخبرتني أن زوجها حصل على عمل في السعودية وسبقها إلى هناك، وأنها سوف تذهب برا إلى مسقط لإكمال إجراءات الدخول، وأضافت:

- لم يعُد لدينا مطار يا نادية، فأي دولة بالعالم ليس لديها مطار!؟ الطريق إلى عدن والذي كان رحلة جميلة تستغرق ساعات محدودة، أصبح اليوم رحلة عذاب لا تنتهي، إذا تحملها المسافر الصحيح، فكيف يتحملها المريض، حتى مدينة تعز رغبتُ بزيارتها لتوديع أمي، فوجدتُ إني أسير في طريق طويل واخترق جبال وأمر من نقاط عسكرية، لم أعد اعرف ماذا يحدث؟ حتى إني لم اصدق نفسي عندما

وصلتُ ولم اصدق نفسي عندما عدتُ، ولكن تخيلي يا نادية الطريق مزدحم، الكل يسافر ويتحمل ويلعن البشر، ويواصل ويأمل أن كل هذا سيمضي!

لم يكن ما ذكرته لي بلقيس بغائب عن إدراكي، ولكنها فقط عملت لي مراجعة لكل ما هو مدفون في أعماقي، طلبتُ منها رابط صفحتها حتى نبقى على تواصل تحسبا لتغيُّر رقم الهاتف عندما تستقر في السعودية، وودعتُها متمنية لها التوفيق بالوصول مع أولادها إلى حيث استقر زوجها.

المديح مغلف بالاتهام

كانت علاقتي بأمي قد تحسنت كثيرا ربما لأن سبب موقفها مني هو الروايات التي كانت تعتبرهن سببا لعدم زواجي، لكن هذه الروايات هي من سبّب لقائي بإبراهيم وزواجي به؛ ولذا فقد غفرت لهن ولي. كنا نتواصل بين حين وآخر، وكانت تتصل بي لتطمئن على حملي، ولكنها أخفت عني المفاجأة التي كانت تعِدُها! وعرفتُ بعد اكتمال العمل أنها اتفقت مع صديقة يمنية وأخرى مصرية وفتحن محل حلويات له منطقة خلفية جميلة مظللة ببعض الشجر، فوضعن عددا محدودا من الطاولات والكراسي واهتممن بالديكور والتنسيق وخصصنه للنساء فقط ثم جهزن له موقع على الانترنت بطريقة مهنية عالية –توحي بوجود دعم فني لهن– فراجت الفكرة ونالت إعجاب الكثير من النساء؛ وأرسلت لي أمي رابط الموقع دون أي خبر سابق، فكانت مفاجأة لي! ثم تواصلتُ معها على الماسنجر بالفيديو وأخبرتني بالقصة من أولها.

وقالت لي:

- لقد تغير والدك كثيرا، أصبحنا نجلس سوياً أكثر مما كنا نفعل باليمن ونخرج مشاوير مشتركة، نتبادل الآراء والأفكار ويحدثني دائما على المكتب في اليمن –وقد ذهب عدة مرات لمتابعة بعض من شؤونه– وعندما أخبرته برغبتي بإعادة الحياة للمشروع وافق ودعمني وشجعني.

ثم أضافت:

- ولكن تعلمين أن خالتك هدى لم تعُد متفرغة؛ فلقد أصبحت لديها لقاءات في المجلة أغلب الصباحات، لذا قبلتُ اعتذارها.

وكانت رواية أبي مؤثرة أكثر، حيث قال لي:

- لقد وجدتُ والدتكِ في يوما ما بعد وصولنا مصر بوقت قصير تبكي بصمت؛ فسألتُها عن السبب فقالت لي إنها حزينة على خسارة المشروع الذي كان على قيد خطوة من الافتتاح، فقلتُ لها أنه مجرد مشروع لم يتم فعليا فلما تبكين؟ فردت عليّ أن الأم تبكي موت جنينها حتى وإن لم تعش معه! فشعرتُ بحجم رغبتها بالمشروع، ولذا عندما عادت وطرحت الفكرة وافقت –حمد لله– أن الفرصة جاءت لها مرة أخرى.

ذات يوم كنتُ في مكتبة الجامعة أبحث عن بعض المصادر عندما رنّ هاتفي وكان رقما غريبا؛ رددتُ فتبين أنها سكرتيرة العميد الذي لم أتعرف عليه مسبقا، وطلبت مني القدوم إلى مكتب العميد إن كنتُ لا أزال بالجامعة، وافقتُ وللمتُ حاجاتي إلى الحقيبة وسرتُ متثاقلة مع الحمل –والذي ولله الحمد لم يقف عائقا أمام نشاطي– دخلتُ المكتب فوجدتُ معه أستاذي، لم أستطع تصور ماذا يريدان! بادر أستاذي بالحديث وقد بدا قلقا ومرتبكا على غير طبيعته:

- عفوا نادية، ولكن الدكتور العميد يريد أن يتأكد أن هذا التقرير هو عملك دون دعم من أحد.

لم أفهم! فنظرتُ إلى العميد وقد بدأتُ أشعر بالقلق مما قد يكون أغضبهما مما كتبته، فأجبتُ:

- أنه عملي وحدي تماما وأنا مسؤولة عن كل حرف فيه.

نظر إليّ العميد نظرة غريبة، وقال بصوت حاد:

- هذا ليس تقرير طالبة، هذا تقرير لأديبة متمكنة! هل يمكن أن تخبرينا بصدق من أين تم الاقتباس؟

صمتُ حتى استوعب كلامه، وكما يبدو أني توقفتُ عند الجزء الأول "المقال لأديبة متمكنة" ففرحتُ وأُغرقت عيناي بالدموع ووجدتُ نفسي أقول:

- شكرا... شكرا دكتور هذا شرف لي.

فنبهني أستاذي للجزء الثاني وهو الاتهام! فكرتُ قليلا، وتذكرتُ أني بالصدفة أحمل نسخة من كتابي الأخير الذي طلبت مني أحد الزميلات إحضاره لها –كنا نتبادل كتاب بعضنا البعض–، أخرجتُه وأعطيتُه للعميد، وقلتُ له:

- ستتمكن من التعرف على أسلوبي من هذا الكتاب ومنه يمكن أن تتأكد أن ما كتبته هو لي ولي فقط.

ورغم الاتهام ظلت الفرحة عالقة في ملامحي، ولم أستطع حتى التظاهر بالغضب وربما كان هذا هو الدليل لديهما، فقد خفّت نظرات الغضب من وجه العميد وابتسم أستاذي! استأذنتُ وخرجتُ ومازالت الفرحة عالقة بقلبي، وهمستُ لنفسي " شكرا حجة آمنه".

أخبرتٌ إبراهيم بالحدث، كانت ردة فعله مختلفة، فقد توقف عند الجزء الثاني وانفعل وغضب وشدّد أن عليّ طلب رد اعتبار فهذا اتهام بـ "سرقة أدبية" والتي يمكن بها

أن يُطرد الطالب من الجامعة. وعلى أي حال لم أخلق أي مشاكل، ومرت الحادثة على خير إذ تأكد العميد أنني صاحبة التقرير، كما وعد أن يحضر مناقشة التقارير للإشادة بتقريري، وبذا يكون ذلك اعتذار مناسب وهذا ما أرضى إبراهيم أيضا.

اقترب موعد ولادتي، جاءت أمي لمعاونتي وجاء معها أبي، وكانت مسرورة بانتظار الحفيد الثاني بعد أول حفيدة وهي ريا ابنة أخي. سررت بقدوم والدي، فهذه أول مرة أقابلهما بعد زواجي، وأول مرة استقبلهما في منزلي الخاص.

أخذناهما في جولات حول لبنان وأُعجبوا بالبلد الجميل. وكانت أمي كريمة جدا بمساعدتها، أغرقت المطبخ بالمأكولات والكثير من الحلويات، وكان زوجي يأخذ من الحلويات الكثير ويوزعها ويعزم على أصدقائه في الكلية ويعود لأمي بطلباتهم عن الوصفات، فتبتسم وتطلب منه إعطاءهم رابط المقهى الذي ضم وصفا كاملا لما يقدمه المقهى منتشيه بالموقع وبتصرفها كسيدة أعمال.

صرنا أنا وأمي صديقات هي تحدثني عن المقهى النسائي وأنا أحدثُها عن الكلية وعن حياتي في بيروت، ورغم انشغالي بالدراسة إلا أني كنتُ أقضي ساعات طويلة معها، فأخبرتني عن التوأم شقيقات ابتسام وحصولهن على فرصة قضاء الإجازة الصيفية – ثلاثة شهور – ضمن برنامج بأحد جامعات أمريكا ورفض أمهما رفضا قاطعا، ولكنهم أقنعوها أنها الفرصة الوحيدة التي يمكن فيها فصل التوأم بإرادتهن لأن كلا منهما سُكّنت في جامعة مختلفة وستكونان متباعدات وان كانتا بنفس البلد، وهذه هي الفرصة الوحيدة لاستقلالهما عن بعضهن البعض مما يمكنهما من التعود على ذلك وخاصة عندما يستقلان بالزواج، فاقتنعت الأم بذلك وتم سفرهما. كما

أخبرتني أن نبيل انضم لعمل أبيه، ولكنه –مع الأسف– لا يزال على طبعه من العصبية والتذمر وإحداث المشاكل بين حين وآخر، بينما تحسنت حالة أمجد النفسية، وتقدم بشكل جيد في المدرسة، ويمارس هوايته المفضلة في العزف على الجيتار بمهارة يشاد بها، وكما يبدو أنها ناسبته نفسيا.

وأخبرتني أن عمل الخالة هدى لم يعُد قاصرا على نقد الروايات التي تُصدر في دار صديقتي سهير، ولكنها بدأت تشارك في نقد الروايات على مواقع مخصصة لذلك، ولكنه عمل يحقق لها شغفها وليس له مقابل مالي.

حديث شجي مع أبي

كان أبي يجلس في حجرة الجلوس يقرأ في كتاب والتلفاز يبث بعض الأخبار عن اليمن التي لم تعُد تضيف شيء جديد لنا، فكلها مكررة ومعروفة النتيجة، ولكن فجأة جاء خبر جديد، كنا نعلم أن المعارك في صنعاء دائرة في الداخل، وكان الخبر الصاعق هو اغتيال الرئيس الصالح وكنا في نهاية العام 2017م.

جاءت أمي وإبراهيم مع رفعي لصوت التلفاز وسمعنا الأخبار تلك التي شكلت قتامة جديدة فوق اليمن، وهكذا انتهت أسطورة الرئيس صالح، رغم تشكك الكثير بموته، وهكذا أخذنا جرعة جديدة من الألم وساد الضباب الكثيف ظروف اليمن مرة أخرى ولم نعُد ندري ماذا يمكن أن يحدث!.

عاد إبراهيم لحجرته للدراسة، وجلستُ بجانب أبي حزينة بينما أمي ترقُب الأخبار كأنها تأمل أن تكتشف ما لم يقولوا عنه! وأبتسم لي أبي وحاول تبديد الحزن والألم؛ فطلب مني أن أخبره عن الكلية، فحدثته عن الجامعة والكلية، وسردتُ عليه الفروق الكبيرة التي تساهم العادات والتقاليد بزرعها، وكيف آمل أن يأتي وقت تتقلص فيه –على الأقل– القليل من هذه الفروق. فتنهد أبي وقال:

- لقد أصبحت المشكلة أكبر من هذه يا نادية، حتى أن هذه المشكلة لم تعُد بشيء يذكر، يتم الآن إعادة صياغة التعليم بالكامل، وبناء أجيال لم تحظ حتى بعدد السنوات الطبيعية من التعليم المدرسي، ولا بالظروف الطبيعية للتعليم الجامعي، والكارثة التي تظهر يوما بعد يوم هي هجرة الكوادر المتميزة من اليمن

التي لم أعد أستطيع حتى تعداد من هاجر من معارفي –إلى الخليج أو أوروبا وأمريكا– هاجروا إلى جامعات ومعاهد علمية ليواصلوا حياتهم وعملهم بعد أن تم تقييدها بشكل شرس داخل اليمن بسبب الحرب والصراعات.

تأملتُ خيرا وقلتُ:

- سوف يعودون بإذن الله يوما ما، وإلا فمن سيعيد بناء اليمن؟

فرد عليّ:

- هل تعلمين كم هو حزين عمكِ جمال! لقد ترك عمله الذي أفني عمره فيه، ترك عيادته التي كانت تعمل بشكل جيد، كما كان يعمل معه أطباء شباب يتعلمون من خبرته الطويلة، والمؤلم انهم بدورهم غادروا ووجدوا عملا خارج البلد بعد انتظار فترة طويلة ومحاولة إبقاء العيادة تعمل، ولكن الوضع صعب، وبالطبع لم يفكر هو حتى بالبحث عن عمل في مصر في هذا العمر.

وأكمل:

- كثيرٌ جدا منهم لن يعودوا مع الأسف، هل تعلمين ما هو الركن الآخر للكارثة؟

توقف ناظرا إليّ وعيناه تلمعان بدموع القهر:

- الكارثة هي ان الشباب أيضا يا نادية، كل من كان يدرس في جامعات العالم قبل الحرب لم يعُد بعد انتهاء دراستهم كما كان مخطط له، الكل واصل حياته هناك، وكل من خرج مع أهله أثناء الحرب مثلكم، واصل حياته أيضا حيثما يقيم، ومثال على ذلك هيام وهيفاء، هل تعلمين أنهما أبديا جدارةً وذكاءً فاق التوقع،

هل تعلمين من سيخدمون؟ أمريكا! لقد حصلتا على منح للدراسة هناك خلال الصيف، ولكنها البداية وتذكري كلامي –البداية فقط –وسيعودان للعمل هناك بشكل دائم بكل تأكيد.

سكتُ مرة أخرى فنكستُ رأسي ولم أنظر إليه وسمعته يقول – كأنه يُحدِث نفسه:

- بالطبع هناك كثير موجودون بالداخل، ويبذلون جهدهم برغم الظروف، ولكن كثيرا منهم يعانون من الإحباط والعجز والحقد على العالم الذي يتفرج على الأهوال التي تنصب على اليمن والحرب من جميع الاتجاهات دون ان يحرك ساكنا، ولا تنسي مَن استشهدوا ومَن دفنوا تحت الأنقاض، وبالأخير اليمن محتاجة لجميع أبنائها حتى تستطيع أن تنهض من عثرتها الكبيرة!

نهض أبي متوجها إلى حجرته وهو يتمنى لي ليلة هادئة، جلستُ وحدي وحديث أبي يذهب ويعود إلى عقلي، ووجدتُ نفسي أتساءل هل سأعود إلى اليمن؟

جاء يوم الولادة وكنتُ أمشي بمحاذاة البحر –حيث كنا كلنا نتناول طعام الغداء في أحد المطاعم – أحدثه عن قلقي من الولادة وقلقي أكثر من التربية، وأحدثه عن خوفي من الامتحانات القادمة! فيرد عليّ بتلاطم أمواجه على الشاطئ ورجوعها إلى حضنه، لا أدري هل هي مواساة؟ أم لا مبالاة؟ وفجأة شعرتُ أن مؤشرات الولادة قد اقتربت! خفتُ وفرحتُ وقلقتُ وصرختُ.. وهكذا ما هي إلا دقائق وجدتُ نفسي يُسرعَ بي إلى المستشفى مع أمي وإبراهيم، وآلام الولادة تتزايد، لم أسمح لإبراهيم بدخول غرفة الولادة عندما بدأت المؤشرات جادة وترجيته أن يظل بالخارج، ضحكت الممرضة وقالت لي:

- لما لا؟ أنه من الضروري على الزوج أن يعرف معاناة زوجته ويقدر ما تشعر به من أجل ميلاد حياة جديدة.

ولكني رفضتُ وأصررتُ أن ينتظر بالخارج... وهكذا جاء فادي بولادة سهلة هادئة.

صار لي ولد، شعور جميل يصعب وصفه، تأملتُ إبراهيم وهو يسأل أمي بجدية ماذا أخذ فادي مني وماذا أخذ منه! فضحكت أمي وقالت له أنه ستعرف لاحقا أما الآن فلا يظهر شيء بعد. بقيت أمي وأبي معي بعد الولادة لثلاثة أشهر مما سمح لي أن أنهض بسرعة وأعود للدراسة، فشاركاني حفل التخرج، وحصلتُ على شهادتي بتقدير عالٍ، وبعدها عادوا إلى مصر.

اتصلت لي خالتي هاجر تبارك لي المولود الجديد، وتنقل بيننا الحديث إلى أخبار اليمن، فحدثتني كيف توقفت رواتب المدرسين والمدرسات واضطرارها إلى البحث عن عمل في مدرسة خاصة، وقد وجدت مدرسة قريبة وجيدة وأنها سعيدة بذلك، ثم قالت:

- أصبحت الظروف صعبة جدا وكثير من صديقاتي رحلن إلى السعودية حيث وجد أزواجهن عملا هناك، وبذا تركن وظائفهن وحياتهن التي كن سعيدات بها ولحقن بأزواجهن.

فأكدتُ كلامها:

- نعم، حتى صديقتي بلقيس أخبرتني أنها تكمل معاملة الالتحاق بزوجها في السعودية.

فقالت خالتي:

- ولكن الجميل أن كثيرا من الشباب والشابات أجبرتهم الظروف الصعبة على التفكير بالأعمال الحرة، ففُتحت المقاهي والنوادي، ومنها نوادي خاصة بالنساء، وبعض النساء بدأت تزاول التجارة من خلال الاتفاق مع صديقات في مصر وتركيا وغيرها لبيع منتجات يمنية هناك واستيراد منتجات من تلك الدول لبيعها في اليمن، وأتقن استخدام التكنولوجيا المساعدة لهن في أعمالهن، أنهن حقا نماذج رائعة.

فرديتُ:

- فعلا الظروف الصعبة تجبر الإنسان على التحرك وإخراج كل القوة من داخله.

فقالت خالتي:

- أنها فعلا ظروف صعبة، فمن هذه المشاريع ما يصادف تعنت من بعض الجهات وأحيانا إغلاق أو طلب مبالغ مالية دون وجه حق أو غيرها مما يسبب الإحباط للشباب الذين يحاولون إيجاد مصادر رزق بعد توقف الرواتب.

ثم حدثتني عن سعادة تقية بالحياكة، وعن الجيرة الطيبة التي حصلت عليها وغيرها من الأخبار المتفرقة، وتواعدنا على التواصل بين الحين والآخر.

لم يعرف أبناءه

تواصلت معي بلقيس أيضا للمباركة بقدوم فادي (عرفت من صفحتي على الفيسبوك)، ولكن هذه المرة – من جدة في السعودية – حيث لحقت بزوجها، وأخبرتني أنها تفاجأت من جمال وروعة جدة، ولكن قلبها لم يستطع أن يألف المدينة رغم كثرة اليمنيين فيها، وأخبرتني بكثير من الحزن أنها فقدت الأمل أن تمارس المحاماة، بل لم تعُد ترغب في ذلك أو تؤمن بوجود عدل أساسا في هذا العالم فقانون الأقوى يسرى على الجميع أفرادا ودولا.. واسيتُها وأخبرتها أنها تمر بأول مرحلة من مراحل الاغتراب تلك التي مررنا بها جميعا عند تركنا اليمن، وأنها سترى الوضع مختلف عندما تتعود على وجودها في جدة؛ لكنها لم تقتنع بكلامي، كانت حزينة على كل ما تركت خلفها في اليمن، ولكنها تأملت خيرا على أي حال.

حصلت صديقاتي بالطبع على الأخبار أول بأول وعلى صور المولود في لحظاته الأولى في الحياة، ولكننا لم نجتمع على زووم إلا بعد حفل تخرجي، لأني انشغلت إلى درجة كبيرة وكنتُ أسأل نفسي كيف كان يمكن لي أن أدير أموري لولا مساعدة أمي.

اجتمعنا نحن الثلاث الصديقات وحضر الاجتماع لأول مرة " فادي" الصغير، تبادلنا الأخبار العامة أولا فحدثتنا ابتسام عن عودة شقيقاتها التوأم من رحلة أمريكا بشخصيات مستقلة وأصبح انفصالهن عن بعض طبيعي بشكل كبير لهما، وأن أخاها نبيل التقى بفتاة يمنية كانت سببا قويا لاعتدال نفسيته وقد حكى لها كل شيء عن

ماضية فبدت متفهمة وكما يبدو أن الحب بدأ يجمع بينهما. ثم بدأت ابتسام تسرد أخبارها عن قدوم زوجها السابق لرؤية الأبناء، وقصت لنا القصة بالتفصيل قائلة:

- جاء عبد الله إلى اسطنبول وتواصل مع أبي بطلب رؤية الأولاد بعد غياب ما يقارب الأربع سنوات. فطلبتُ من أبي أن يحدد له الحديقة المقابلة لعمارتي، فجاء حسب الموعد، رأيته من بعيد... تأملتُه تدفقت إلى خيالي صور عرسنا وأسبوعنا في عدن، تدفق إلى خيالي يومياتنا وبيتنا وولاداتي لأطفاله... تدفق إلى خيالي اليمن.. تأملتُه من بعيد كيف صار عبد الله غريب؟؟؟ لقد تغير ولم يعُد عبد الله الذي أعرف، لم أتخيل أني سوف أقابل في يوم ما عبد الله من كان زوجي وأصبح الآن غريبا تماما حتى ملامحه تغيرت!

ضحكت ضحكة متألمة وقالت:

- الزواج ميثاقٌ كبير، لا أستطيع أن أتخيل عبد الله إنسان غريب وبنفس الوقت لا أتخيل نفسي معه مرة أخرى.

توقفت قليلا؛ ونهضت...أغلقت الباب كما يبدو وعادت قائلة:

- لا أحب أن يسمع الأولاد حديثي فأغلقت الباب رغم أني أعرف أنهم في منزل جدهم.

وضحكت فضحكنا معها وعادت تسرد لقاء عبد الله مع أولاده:

- أحببت ان أثبت له كم هو مهمل بأولاده وكيف قد لا يعرفهم إذا قابلهم حتى يكون درسا له للمستقبل، فطلبت من ابني عمر –أحد التوأم– أن يذهب

لذلك الرجل – وأشرت لأبيه– ويعطيه اللعبة التي كانت بيده، فأنطلق عمر فرحا بالمسؤولية وتقدم من أبيه وقدم له اللعبة عن طيب خاطر.

سكتت وبدأت الدموع تنزل من عينيها وأكملت:

- لم يعرفه رغم كثرة الصور التي أضعها على الفيسبوك وسمعتُه يسأله عن أبيه متوقعا أنه طفل تاه عن أهله، وهو كذلك بالفعل طفل تاه عنه أبيه! أرسلتُ عمار –التوأم الأخر– لنفس المهمة فتلاقى مع توأمه أمامه ففطن للموضوع وهبّ واقفا، وبدا يلتفت يمينا وشمالا فوقعت عيناه على مخبأنا القريب منه فتقدمتُ إليه وركض مُحَمَّد يعانق أباه... لن أطيل عليكن لقد صُدم عبد الله بقوة لأنه لم يعرف أولاده وصُدم عندما ألقى مُحَمَّد نفسه – وقد قاربه بالطول– بحضنه متسائلا أين أنت يا أبي؟ لما تأخرت علينا؟ كنت أود أن أعطيه درسا كبيرا عن ماذا نتج عن إهماله لأولاده، ولكني اكتفيتُ بهذا تجنبا لحزن وتألم مُحَمَّد الذي كان مستوعبا غياب أبيه عن حياته ودائم السؤال عن السبب.

أخذت نفسا عميقا وأكملت:

- وعلى أي حال –وبالمختصر– خرج عدة مرات مع مُحَمَّد ورفض التوأم الخروج معه فهو رجل غريب بالنسبة لهما، واتفقنا على أن يلتقي بأولاده بين الحين والآخر على الزووم، ويأتي إلى هنا كلما أُتيحت له الفرصة؛ ثم وضع أمامي مبلغ كبير ووعدني بتحمل مسؤولية الأولاد، ورغم أني لا أحتاج لنقوده لكنها من حق الأولاد؛ لذا وضعتُ المبلغ في حساب خاص بهم وسأتركها تتزايد بقدر إنفاقه عليهم، وستكون لهم عندما يكبرون.

سررتُ لما آلت إليه أمور ابتسام، فهي كانت دائما تعبر عن قلقها من العلاقة غير الموجودة بين أبنائها وأبيهم. وضحكت ابتسام وهي تقول لنا كيف تأملها عبد الله بغرابة، وقال لها أنها تبدو امرأة أخرى مختلفة عن ما أسماها "ابتسامي" في ذلك الزمن.

بدأت هناء دورها مبتسمة وقالت:

- أن الإنسان أناني يقلق ويفزع من أمور الحياة عندما تصعُب مع أننا يجب أن نتعلم أنها ضرورة كآلام الولادات التي نعاني منها من أجل ولادة أطفالنا، ونفس الشيء يجب أن نمر بمرحلة ألم ومعاناة قبل أن تستقر بنا الحياة عندما نذهب إلى بلد غريب.

ثم أخبرتنا أن أمورها استقرت، ووجد زوجها نديم شقة مناسبة جميلة في حي هادئ، وأصبح لديها صديقات من ساكنات العمارة، إحداهن من الباكستان والأخرى من الصين، ثم قالت فرحة:

- لم أتخيل نفسي وأنا باليمن أن يكون لدي صديقات أجنبيات، أن المجتمع هنا متنوع بطريقة جميلة جدا، وتعيش كل جنسية مع الأخرى بشكل عفوي تجمعهم كل صفات الإنسانية.

أخبرتنا هناء أنها قررت أن تلتحق بمعهد الفنون الجميلة حيث اكتشفت أنه شغفها في الحياة وهو ما سيمكنها من ممارسة عمل تحبه وأيضا من المنزل. عرضت علينا هناء لوحات رسم على الزجاج الذي تعلمته في المعهد، كما أخبرتنا أنها سوف تشارك بخمس لوحات بعضها عن تراث اليمن وبعضها عن الزخرفات والنقش اليمنية في معرض الفنون القادم وهو معرض خاص بطلبة المعهد على نطاق مدينتهم لعرض رسومات الطلبة. ثم أخبرتنا أن أخاها جهاد لم يجد عمل مناسب في أمريكا،

وقد عاد لدراسة دبلوم لمدة سنتين في نفس تخصصه ليحصل على شهادة من أمريكا ستسهل له الحصول على فرص أكثر للعمل، ولكنه سعيد بعودته لأسرته.
سألتُها:

- وكيف تجدين السويد الان؟

فأجابت:

- في البداية شعرتُ أن السويد هي فقط تلك الشقة التي وصلنا إليها، ولم أحبها وشعرتُ أنه لا يمكن لي قضاء فترة طويلة فيها، لكن الآن نستكشفها أنا ونديم والأولاد كلما صادفنا إجازة طويلة، وقد قمنا برحلة إلى مجموعة من الجزر في بحيرة مالار إلى بحر البلطيق، وزرنا كثير من المتنزهات والمعارض. كما أني تعلمتُ طبخ أكلات سويدية مثل الجرافلاكس وهي أكلة سلمون، والراجمونك وهي من فطائر بانكيك المُحضرة من البطاطس التي أحبها أولادي كثيرا، كما تعلمتُ مجموعة من الحلويات، وأكلات باكستانية وصينية من صديقاتي، وعلمتهن عمل أكلات يمنية مثل الشفوت والعصيد، وهكذا اقضي وقتي بشكل جميل وسط اهتمامات متعددة.

قطع علينا فادي الجلسة معلنا عن مللله من أحاديث الأمهات، فقلتُ لهن أن لا جديد في أخباري سوى ما يعرفن عن ولادتي، وحصولي على الماجستير. ثم قلتُ لهن:

- ولكن هناك سر سأقول لكما فقط عنوانه إلى أن يتبلور، نفكر أنا وإبراهيم بمغادرة لبنان لا أدري إلى أين؟

أبت بيروت إلا أن تواصل عطاءاتها؛ فبعد فادي والماجستير جاءت المفاجأة التي كنتُ في أعماقي أنتظرها ولا أعرف كيف سأجدها! استدعاني العميد فذهبت متأملة أن لا يكون قد أكتشف شيئا سيئا جديدا، فرحب بي بلهجته اللبنانية الجميلة ودخل بالموضوع مباشرة شارحا لي أنه يرى أن لديّ موهبة رائعة – حسب كلامه– في سرد هموم المجتمع والتوغل في النفس البشرية؛ لذا يقترح أن أعيد صياغة التقرير السابق في شكل رواية تتحمل دار نشر كلفة طباعتها، وسيكون لي نصيب مميز من المبيعات.

سررتُ بالفكرة وخفتُ في آن واحد، وعدتُ إلى المنزل أشارك إبراهيم هواجسي، ماذا لو خذلت العميد؟ ماذا لو لم يكن هناك مبيعات؟ وقبل أن أطيل أسئلتي كان إبراهيم يعبر عن ابتهاجه ويشجعني أن أخطو هذه الخطوة طالما أن التقرير جاهز ولن يستلزم جهدا كبيرا في تحويله إلى رواية؛ ولم يكتف إبراهيم بالتشجيع فقط، ولكنه تكفل بأمور فادي وأمور البيت وخاصة أنه كان ينهي تنسيق رسالة الدكتوراه ولم يعُد لديه الكثير للعمل عليها مما أتاح لي مساحة واسعة من الوقت.

أنهيتُ كتابة رواية "نساء منسيات" بوقت قياسي مقارنة بما أنا معتادة عليه، وأرسلتُه للخالة هدى؛ فحصلتُ على مدح كبير وملاحظات قليلة ولم يتطلب مراجعة لغوية تستغرق وقت طويل؛ لذا ظهر الكتاب بأسرع وقت ووجدتُ كتابي –وقد وضعتُ نفس الإهداء إلى روح الحجة آمنة– يصدر عن واحدة من أكبر دور النشر في لبنان وكانت هذه هي روايتي الثالثة التي تُنشر خارج اليمن، فروايتي الأولى تلك التي رفضت في اليمن وروايتي الثانية "لعنات الحرب" نُشرت في القاهرة. تم الترويج للكتاب بشكل مهني منظم ومن خلال كافة وسائل التواصل الاجتماعي وطلب مني العميد أن نقيم فعالية توقيع للكتاب بشكل رسمي.

الكويت عروس الخليج

ضمت فعالية توقيع الكتاب هذه المرة عدد أكبر مما تم في مصر، فقد دعا لها العميد وهو أديب معروف؛ فحضرها جمهور كبير من طلاب وطالبات الماجستير في الأقسام الأدبية ونخبة من الأساتذة وعدد لا يُستهان به من الأدباء والأديبات فكانت فعالية جميلة جدا. وجدتُ نفسي –وقد حضرت الفعالية مع إبراهيم وفادي– وسط أضواء فلاشات الكاميرات وأضواء كاميرات الفيديو، وبدأت الفعالية التي استطعت تقديمها والرد على أسئلة الحضور بشكل يُنبئ عن ولادة أديبة كما كان يكرر قوله العميد.

دارت النقاشات بشكل زاخم فالكل أبدى اهتمامه بهذه الشريحة المنسية، وشارك كبار الأدباء معي بالرد على أسئلة الحاضرين فسُعدت أن يكونوا قد قرأوا روايتي باهتمام حقيقي. نال إبراهيم الأضواء مع فادي أيضا وتحدث إبراهيم مع أكثر من جريدة تواجدت في الفعالية في لقاءات سريعة عن معاناة اليمن وعن حياة الطلاب الوافدين في لبنان، وكان لإبراهيم شخصية جاذبة وملفته ولديه مقدرة على التحدث وجذب اهتمام مستمعيه، فظهرت صورنا كلنا على الجريدة اللبنانية وأحلى الصورة كانت لفادي.

لم تكن تلك الفعالية الرائعة هي أسعد أيامي في بيروت، ولكن ما تم بعدها عن حجم المبيعات فاق قدرتي على الفرح ؛ فالمبيعات كانت عالية الوتيرة؛ ووجدتُ أن حسابي في البنك يرتفع بشكل جيد.

أنهى إبراهيم الدكتوراه وبقي عليه مناقشة الرسالة، كنا نعلم أنا وإبراهيم أن البقاء في لبنان أصبح صعبا، فالبلد تموج بالمشاكل وتحاول أن تعيش كما تحب... أن تعيش في فرح وهدوء وطرب وجمال، ولكن بكرامة!

وهكذا واصل إبراهيم البحث عن فرصة عمل عن طريق إعلانات الوظائف على الانترنت وعن طريق أصدقائه، وكنتُ أنا أمارس أمومتي بفرحة تاركة دفة السفينة كاملة لإبراهيم، ومستمتعة بما تجلبه لي روايتي الأخيرة من طاقة إيجابية وبهجة وصلت أصداؤها إلى صديقاتي وإلى أستاذتي ابتهال وإلى أمي الحبيبة عبر وسائل التواصل الاجتماعي عن الأديبة اليمنية الواعدة.

رحلنا من لبنان بمجرد حصول زوجي على فرصة عمل كمحاضر في إحدى كليات الإعلام في في جامعة من جامعات دولة الكويت ولم ينهِ إبراهيم مناقشة الرسالة بعد بسبب المشاكل المتزايدة بالبلد، ولكن هذا لم يكن سببا في عرقلة العمل الجديد؛ فبدأنا في لملمة أشيائنا وتوديع أصدقائنا وبيروت الحزينة، وخصصتُ وقتا لتوديع البحر وكان هائجا داكنا كأنه يشاركني الوداع! وقد كنتُ أعشق صفاءه، وأسررتُ له أني أحببته كثيرا وأحببتُ لبنان وأني سأفتقده وسأحاول العودة له كلما سنحت لي الفرصة، فرد عليّ بهدير الأمواج المتلاطمة ولامست أمواجه بأنفاسها الأخيرة قدماي تحاول سحبي نحوه! ذرفت دموعي حزنا على ما يكتبه لنا القدر من فراق، وتذكرتُ ساعات رحيلي من اليمن، تذكرتُ بقوة أني لم ابك ولم يبك أحدٌ منا في تلك الرحلة، كانت دموعنا متحجرة وملامحنا لا تُظهر شيء كأننا أموات تسير على الأرض فلم نبك!! ولذا بكيتُ أمام صديقي البحر بكيتُ كما بكيتُ على الطائرة

بكيتُ بلدي التي افتقدها وبكيتُ البحر الذي سأفتقده؛ وعدتُ إلى بيتي مستعدة للرحيل.

كان إبراهيم فرحا جدا بالفرصة التي حصل عليها، كانت أكبر مما تمنى، فأستاذ في الجامعة كان حلما خجولا في أعماقه لم يشاركه أحد إلا أنا نادر وهو أحد أصدقائه المقربين والذي كان سببا في وصول الفرصة له. كان لإبراهيم مدخرات جيدة من مسيرة عمله السابق ومن المقالات التي ينشرها والتحليلات السياسية التي تأخذ طريقها للنشر في المجلات السياسية، وكان لي مدخراتي الجديدة من مبيعات الكتب التي تتزايد كل فترة وفقا لكمية المبيعات من كتبي، لذا سمحنا لأنفسنا أن نحصل على شقة رائعة لها إطلالة جميلة داخل عمارة حديثة في منطقة السالمية وبدأنا حياتنا بكثير من الأمل والشكر لله. بدأ إبراهيم العمل بعد أسبوعين من وصولنا، وعاد من أول يوم عمل ببهجة كبيرة وقص عليّ أحداث يومه بالتفصيل وبكثير من مشاعر الفرحة؛ كان راتب إبراهيم عاليا أُلحقت به الكثير من المميزات؛ وهذا ما ساعدنا أن نحلم ونخطط لرحلات قادمة لم تسمح لنا الظروف أن نقوم بها منذ أن تزوجنا.

مرت الأيام هادئة لا يكسر هدوءها إلا أخبار بلادي؛ الناس تحلم بالخلاص وتعتبر أن أربع سنوات من الحرب هي ضريبة كافية تدفعها اليمن رغم أنها لا تدري لماذا؟ ومع ذلك مازالت الحرب قائمة في اليمن ومازالت الحياة تدب فيها على أي حال، فالإنسان خُلق ليعيش لذا يعيش الشعب رغم كل الظروف الصعبة التي صعّبت الحياة وجعلتها شاقة. انشغلتُ بأمور فادي تلك التي كانت تأخذ مني وقتا طويلا، ولكني استمتعتُ بكل ما له علاقة به فقد خلق لي حياة جميلة رائعة؛ احتضنتُ كل بداياتها وسجلتُها وصورتُها وكنتُ دائما أرسلها لأهلي، وأهل إبراهيم، ولصديقاتي

ابتسام وهناء. كان فادي يضيف الضحكة لحياتنا؛ وبدأ يتعلم المشي بخطواته الصغيرة، أحببتُه كما لم أحب أحد من قبل، وأخفيتُ هذه المعلومة عن إبراهيم تجنبا لخلق الغيرة.

كان الخليج العربي يعطي مدينة الكويت هيبة لم أستطع تحديدها وبالفعل كانت تبدو عروس الخليج كما كان يُطلق عليها؛ الكويت بلد تعوّد أن يحتضن الكثير ويعبر عن رأيه بوقار، عانى من جرح قديم وما زال يحاول أن يتناسى.

لكن البحر في الكويت بدا مختلفا عن البحر في بيروت، وشعوري كان متضاربا تجاهه! بدأنا أنا وإبراهيم رحلة الاستكشاف في كل يوم إجازة، زرنا الأبراج وهي معلم شهير في الكويت؛ وتعرفنا على الجزيرة الخضراء التي تعتبر من الجزر الاصطناعية الترفيهية وتمتد على طول الساحل من الشويخ وصولا إلى رأس الأرض.

مر الشهر الأول الذي سماه إبراهيم "الشهر الحاسم"، لأنه برأيه الحَكم الرئيسي لما سيؤول إليه العمل؛ فإما أن يكون طبيعيا وتسير السنوات كيفما كان وهذا جيد أو صعب وعليه تحمُل ما يستطيع تحمله وهذا مخيف أو–وهو ما لم يكن يتوقعه– رائعا ويبدو مثمرا ومميزا وهذا ما كان نصيب إبراهيم في الشهر الأول.

قرر إبراهيم أن نحتفل بمطعم كبير بمناسبة مرور الشهر الحاسم؛ وافقت ومن يكره الاحتفالات!؟ ويبدو أن سبب الحفل لم يكن فقط مرور الشهر الحاسم، ولكن أيضا لسبب آخر أكبر ومهم وهو تقديمه هدية لي من أول راتب يستلمه وكانت عبارة عن خاتم رائع حتى يعبر عن سعادته بوجودي رفيقة له، وسعادته بوجود فادي في حياتنا، خالجني شعورٌ من الحزن لا أدري لماذا؟ ربما لأني أعرف أن قليلا جدا من الرجال في

بلدي من يستطيع أن يعبر عن مشاعر الحب ومن الذين يتنبهون أن الزوجة محتاجة لتجديد عقود المحبة والاتفاق على مواصلة الطريق برغبة الطرفين! حبستُ دموعي حتى لا ألوث الفرحة، حبستُ دموعي معطية لنفسي الحق بالفرحة، فقد كنت دائما أشعر بالخجل من أي فرحة وأنا أذكر بلادي والأهوال التي تمر بها، ولكن لكل منا نصيب في هذه الحياة. وجدتُ نظرات إبراهيم تحمل شيء آخر– غير مرور الشهر المحدد وغير الخاتم وتجديد الحب.

فقلت:

- هات ما عندك.

ابتسم بخجل وقال بصوت خافت:

- مازلتُ أنتظر ابنتي التي رسمتُ ملامحها في أول يوم قابلتك فيه، أحب أن أحصل عليها.

ذُهلتُ من طلبه فقد كنتُ اعتقد أننا دون اتفاق سنكتفي بطفل واحد، فلا شيء يدل على أن الحياة تسير بشكل سخي وما نحن فيه اليوم قد لا نجده غدا، نحن على أرض ليست أرضنا، نحن رُحل... بالأمس كنا في مصر، وبعدها في لبنان واليوم في الكويت، وغدا لا نعلم أين سنكون؟ لكنني لم أنطق بحرف مما دار في بالي، لأن صورة سوسن الصغيرة احتلت خيالي فجأة، ووجدتُ نفسي أقول له:

- وأنا أريد سوسن الخاصة بي.

مرت الأيام في الكويت برتابة شديدة، شعرت أني واقفة في مكان وأحد لا جديد يأتي ولا عمل ينجز، شعرت بخوف من ان تواصل الحياة على هذا المنوال وأجد كل ما حققته يذهب أدراج الرياح، حاولت ان أجد عملا يربطني بإيقاع الحياة في الكويت، ولكني لم أجد بابا مفتوحا، تسرب الملل إلى قلبي وشعرت ان الكلمات تموت بأعماقي وأني قد أفشل في استعادتها ورصها في كتاب جديد. أخفيت عن إبراهيم ما أشعر فيه، فهو كان يحقق حلما حلم فيه، فلم أستطيع كسر فرحته وبث همي ومعاناتي مع الفراغ وخوفي من خسارة مستقبلي الذي كان بدأ يتبلور أمامي.

تعرفنا على إحدى الأسر اليمنية التي تقرب لصديق إبراهيم (نادر) والتي كانت تعيش في الكويت منذ فترة طويلة ويعمل الزوج عبد الوهاب في شركة هندسية بينما الزوجة منال كانت ربة بيت ولديهما ابنتان في الجامعة؛ كنا نقضي أوقات معهم ونذهب إلى المنتجعات وأحيانا أذهب مع الزوجة إلى الأسواق المختلفة، وكانت منال مهتمة بالأزياء اليمنية للنساء والرجال وتُحضِر معها من زياراتها لليمن الكثير من هذه الأزياء وتقوم ببيعها للراغبين؛ وبالمشاركة في المهرجانات التي تُعدُ لعرض تراث الدول؛ وقد أصرت منال على إعطائي أكثر من قطعة لأزياء من مناطق مختلفة من اليمن كما أعطتني اثنتين من الجنابي التي لا يوجد بها نصل الخنجر الحقيق، ولم ترض أخذ أي ثمن لها على اعتبار أنها عربون صداقة.

وصلتني رسالة بالبريد الإلكتروني من الدار الذي نشر كتابي في لبنان يعرض عليّ أن يحتكر نشر روايتي القادمة التي لم أفكر بها بعد! ويعرض مقابل ذلك مقدما –مبلغا مالي جيد–! لم أستوعب الرسالة وبدت غريبة بالنسبة لي، هل يتم الدفع مقدما من أجل كتاب لم تتواجد فكرته بعد؟ وهل تصبح الكتابة وظيفة؟ لم أفهم الطلب، ولكن

قبل أن أرد على الرسالة، اتصلتُ هاتفيا بصديقتي سهير التي كنا على تواصل دائم، وسألتُها عن معنى الرسالة.

لم تبخل عليّ سهير بالشرح المستفيض والذي فتح في عقلي أفقا جديدا لم أكن أعرفه، ووضحت لي أن دور النشر تجد في أي كتاب يحقق شهرة واسعة ومبيعات عالية استثمارا يمكن استغلاله؛ فيتفقون مع الكاتب مقدما على احتكار نشر وبيع كتابه ويضمنون له أنهم سيروجون لكتاب مؤلفه لديه ذخيرة من الجمهور المتابع، وأنهم لا يتكفلون بالمقدم فقط بل يتكفلون بدعوة الأديب لحفل الافتتاح وتكاليف سفره وإقامته إذا كان خارج البلد عند إصدار الكتاب؛ وأنهت سهير حديثها أنها تود الدخول في هذا الموضوع وأنها سوف تقدم عرض أفضل للحصول على كتابي الذي لم يتواجد بعد.

ناقشتُ زوجي وأخبرته أني لا أتخيل أن تصبح الكتابة مهنة، ولكنه أقنعني أنها مهنة ومهنة رائعة؛ وأني لو تركتُ نفسي دون حافز فقد تمر سنوات دون أن أصدر أي كتاب، ولكن إذا تابعتني دار النشر فسأجد نفسي مضطرة للكتابة؛ وبعدها سأستمتع بها وبكل تبعاتها؛ فاقتنعتُ وخاصة بعد وصول رسالة من العميد يشجعني على قبول عرض دار النشر وأخبرني بكل شفافية أنه أحد المُلاك، فتم الأمر واعتذرتُ لسهير التي تفهمت إحراجي من العميد. سعدت بهذا الخبر وشعرت بشعاع الأمل يعود لي وان قلبي عاد ينبض حروفا ويفتح أبوابه يتلمس تجارب البشر في هذا البلد، أرحت قلقي قليلا وانتظرت الالهام يدق بابي.

سافر إبراهيم إلى لبنان لمناقشة رسالة الدكتوراه تاركا الكويت لمدة أسبوع، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أجد نفسي وحدي دونه منذ أن تزوجنا؛ حاولت أن أكون بحجم المسئولية وأدرتُ أموري وأمور فادي والمنزل بشكل جيد؛ وانتظرتُه بشوقٍ كبير، وأحسستُ إلى أي مدى أصبح مهما في حياتي واستقراري ورضائي عن كل شيء؛ أحسستُ أني أفتقده وانتظر هاتفه كل يوم، ولم يستطع انشغالي بالكتابة إبعاده عن بالي ولو للحظات، فاحتل تفكيري بشكل لم يحدث لي من قبل، استغربتُ من عدم شعوري بهذه الأهمية عندما يكون معي! لم أعبر له –مع ذلك– عن شوقي له خلال اتصالاته، عجزتُ عن التعبير وأنا الكاتبة! قيدني إرثٌ من العادات والتقاليد التي تربينا عليها، لم أسمع أبي يحدث أمي بكلمات حنونة ولم يعبر لها عن معزتها عنده، ولم أسمع أمي تدلل أبي بكلمات ودودة، ربما عندما رحلنا إلى مصر أصبح لديهم مشاوير مشتركة وأحاديث خاصة، أما في اليمن لا لم الحظ شيء من هذا! لم أستطع أن اعبر لإبراهيم عبر الهاتف عن شوقي له وعللتُ لنفسي أن هذا أفضل حتى ينصب جل تفكيره على المناقشة.

اعتدتُ على مناداته حبيبي، ولكني كنتُ اعتبرها مرادفة لكلمة زوجي ولم أكن أشعر بمعنى كلمة حبيبي! غريبة هي مشاعرنا! ماذا يقيدها؟ لماذا نُلجم كلمات الحب عن التعبير؟ لماذا نعتبر كل شيء هو شيء عادي ومعتاد ولا نستشعر الحب بأسمى معانيه، ولا نعطي بسخاء دون خجل ودون شعور بأننا الأضعف!

وعاد إبراهيم بعد المناقشة، شعرتُ كأن الأمان عاد لي بعودته، الرفقة التي احتاج لها عادت، أني فعلا أحبه من أعماق قلبي.. احتفلنا بنيل شهادة الدكتوراه وارتفاع راتبه، قدمتُ له هدية عبارة عن شنطة عمل جلدية، وقدم لي ثوب جميل لا أدري ما

المناسبة؟ ولكني عبرتُ عن فرحي وحررتُ لساني من قيوده وعبرتُ له عن شوقي له وعن إحساسي باليتم من دونه.

كان سكان عمارتنا خليط من الجنسيات، القليلون منهم عرب والباقي أجانب، لم تكن هناك صداقات بيني وبين أحد منهم، ولكني حصلتُ على صديقات من الملعب الخاص بالأطفال في العمارة عندما كنتُ أصطحب فادي للعب مع الأطفال الآخرين ونجلس نحن الأمهات – والبعض مربيات– نتحدث في أمورهم غالبا؛ وكنا نتحدث باللغة الإنجليزية التي حرصتُ على إتقانها منذ أن كنتُ في مصر، ولأني كنتُ أعرف أن لدي هبة من الله تجعل الذين يحدثوني يثقون بي ويفتحون لي مكنون صدورهم ويبوحون لي بأخبارهم حتى ما تُعدُ منها خاصة وسرية؛ فقد حظيتُ بتلك الأخبار بمجرد انفرادي بأحدهن وسؤالها السؤال الأول "كيف جئتِ إلى الكويت؟".

سمعتُ الكثير من هذه الأسر عن الهجرات من بلادهم بسبب عدم توفر فرص العمل، وانتشار الفساد وعدم وجود أمان وغيرها مما يجعل البشر فعلا متشابهين، وأخبرتني أكثر من واحدة أن الكويت محطة قد تطول لسنوات يتم خلالها إجراءات الهجرة النهائية إلى أمريكا أو كندا، فالكويت بلد عمل لا تقبل أي نوع من أنواع المواطنة تستهلك البشر لتُلقي بهم في آخر أعمارهم دون مأوي؛ فالعودة للوطن والاستقرار فيه بعد قطع الصلة لهذه السنوات كلها يكون صعبا، كما أن البدء بمكان جديد مستحيل بعد هذا العمر المتقدم، لذا فهم يحرصون من البداية على ترتيب الهجرة التي تمكنهم من الرحيل من الكويت بوقت مناسب والاستقرار في دولة تمنحهم الإقامة الدائمة وهم ما يزالون بعمر يسمح لهم بالعطاء والعمل ومن ثم الإقامة فيها عندما يتقاعدون. وأخبرتني إحدى النساء الهنديات وهي تتابع حفيدها

الصغير–وكانت كبيرة بالعمر– أنهم قدموا للهجرة وذهبوا فعلا إلى كندا واستقر الأولاد هناك – وعادت هي مع زوجها – لإكمال سنوات العمل ودعم أولادهم بالمهجر – وزوجها فقط من يعمل حاليا– لذا أرسلوا لها الحفيد حتى تتمكن أم الطفل من إكمال الدراسة التي ستؤهلها للعمل هناك.

وحدثتني إحدى الأمهات السوريات وكانت شابة صغيرة، ربما في الثالثة والعشرين من عمرها ولديها ابنة صغيرة تبلغ من العمر عامين كيف تقاذفتهم أمواج الهجرة من بلد إلى آخر مع أسرتها (والدها ووالدتها وأخوتها) الذين استقر بهم المطاف في الوقت الحالي في الأردن ولا يعرفون ما قد يحدث بعدها! وبعد أن تزوجت بدأت سلسلة الهجرات الجديدة مع زوجها، حيث قضت أول عام بالأردن ثم عام في الجزائر وكانت الوظيفة هناك –مع الأسف– وهمية، خسروا مبلغ من المال للحصول عليها، ولكن تبين أنهم تعرضوا لعملية نصب وبعدها حصل زوجها بتعاون عمه على عمل بأحد الشركات هنا في الكويت ولا تدري ماذا بعد؟ وأضافت أن لا أمان هنا إلا لمن لديهم وطن يعودون إليه؛ ففقدان العمل يمكن أن يتم بأي لحظة دون حتى تبرير، وأنها تحن للاستقرار وتحن لوطنها أو على الأقل لمكان تعيش فيه سنوات عمرها كله ويكون لها ولأولادها أصدقاء عمر، تحن لحياة طبيعة ليس إلا!.

أحسستُ أن تلك الحكايات وغيرها مما سمعت إنذار لي –أنا وإبراهيم– فنحن أيضا لا وطن لنا نستطيع العودة إليه بالوقت الحاضر، نقلت له مخاوفي، ولكن إبراهيم طمأنني بكلمات مقتضبة اكتفيتُ بها؛ وكأنه يقول وما الحل في هذا الوقت!؟ وطمأنتني ابتسام أكثر بحديثها الشيق الذي ينفُذ إلى القلب مباشرة عن أن الغيب لم

يأت بعد، وأن تصورنا عنه أو خوفنا منه ربما لن يتحقق؛ وأن عليّ فقط أن استفيد من هذه الحكايات من أجل روايتي القادمة.

نفضتُ هواجس خوفي من الغيب؛ وبدأت أكتب روايتي " شتات الترحال " ووضعت فيها كل إحساسي بحرقة الترحال والهجرات المتكررة، ومعاناة النساء في عدم الاستقرار لسنوات ما بين التنقل وتهديدات الترحيل وانعدام الأمان.

لم يكن حملي الثاني سهلا مثل الأول؛ ربما لأني تفرغتُ لمراقبة ما يحدث في جسمي من تغيير.. أكثر من الحمل الأول، ربما لأني كبرت أكثر.. وربما لأني كنت أخشى أني سأضطر للولادة وحيدة دون أمي! ولكني استطعت أن أُلم بمسؤولياتي تجاه فادي وإبراهيم ومنزلي وحملي وأعطي من الوقت قدر المستطاع لكتابي.

وجاء العام 2020 مع الوباء

لم يكن خبر حملي بالخبر الوحيد من نوعه، فهناء أيضا كانت حامل، وكان خوفها من الولادة بمفردها ودون أمها مسببا لها كثير من الاضطراب والتعب وخاصة مع مسؤولية بنتها سوسن التي أصبحت الآن بالمدرسة وتحتاج إلى متابعة وابنها محمود الذي يقترب من الثالثة.

كان اجتماعنا على الزووم ضرورة لكلٍ منا نستمد العون والنصح ونظل على قرب رغم بعد المسافات. وعلى أي حال لم يكن خبر حملي الثاني وحمل هناء الثالث بالخبر المثير مقارنة بما جاءتنا به ابتسام من أخبار. غطت وجهها بيديها وهي تضحك قائلة:

- سأخبركن بأخباري شريطة أن تخلصن لي النصيحة فأنا في أمس الحاجة لها.

سكتنا نحاول أن نستنتج، هل يُعقل ما يمر بخيالي وبالتأكيد في خيال هناء، هو الخبر الجديد؟ هل هناك مشروع زواج جديد؟؟ وفعلا أخبرتنا ابتسام أن مدير المدرسة التركي واسمه عصمت قد تقدم للزواج منها، وأخبرتنا أنه يتقن اللغة العربية لأنه عاش في مصر سنوات كثيرة قبل أن يعود إلى بلده ويفتح المدرسة العربية، وهو أرمل معه ثلاثة أولاد أصبحوا الآن شبابا، ويبلغ هو من العمر خمسة وخمسون، واكملت:

- لقد شعرتُ باهتمامه، ولكني لم أدع له مجالا للإفصاح أكثر؛ فعمد هو للتعرف على أبي عندما جاء في إحدى المرات لأخذ الأولاد من المدرسة إذ تعرف عليه

وقام بدعوته مع الأسرة إلى المنزل الصيفي الذي يمتلكه في إنطاكيا. لم يترك لي أبي مجال للاعتذار عن هذه الدعوة، ولم يصغ لي عندما حاولت أن أوضح ما قد يكون السبب فقد كان مؤمنا بضرورة بناء علاقات مع الآخرين والتي قد تفيده في عمله.

وأكملت:

- قضينا زيارة جميلة استمرت يومين، ذهبنا جميعا وحضر أبناؤه – أحدهما يعمل معنا في المدرسة والآخر مهاجر في كندا وكان في زيارة لتركيا والأصغر الذي ما زال في الجامعة، تعمّد أن يتحدث ويُعرف بنفسه بشكل دقيق؛ وعن ما مر به في حياته، لن أطيل عليكن لقد تقدم لي رسميا بعد تلك الزيارة بأسبوع، ومازلتُ مترددة! مُحَمَّد ابني يحبه من معرفته به من المدرسة فقد اهتم به كثيرا، وأبي مرتاح له كثيرا، ما رأيكن؟.

صرخت هناء قائلة:

- وافقي لما لا! وافقي.

نظرت إليّ ابتسام منتظرة ردي؛ فقلتُ لها:

- أسالي قلبك، أنك ستتخلين عن الحرية التي كما ألاحظ ارتحتِ بها كثيرا ووجدتِ السكينة بعد طول قلق، لا تستطيعين أن تضمني سير الأمور كما تتمنين، يجب أن تضعي كل الاحتمالات حتى لا تُصدمين للمرة الثانية.

قالت ابتسام:

- نعم، لقد قررتُ أن أتعرف عليه فترة مناسبة قبل حتى إعلان الخطبة وأتأكد من مدى تقبُل أبنائي له.

وهكذا تمنينا لها التوفيق في اختيار الصواب وأكملنا حديثنا في شتى الأمور.

قررتُ أن أذهب إلى مصر في آخر شهر لي قبل الولادة، لأني لم أستطع دعوة أمي إلى الكويت، ولأن مسؤولية فادي ستكون صعبة؛ وخاصة أن عمل إبراهيم يلتهم وقته بالكامل؛ فسافرتُ أنا وفادي. كما يبدو أننا لا نستغني عن أمهاتنا في العون أثناء الولادة، فهناء أيضا تمكنت من دعوة والديها إلى السويد حتى تساعدها أمها في الولادة، ورحبت الخالة هدى بالدعوة خاصة أن عملها أصبح أغلبه بالإيميل أو الماسنجر، وان أبنها حسام انتقل إلى المدينة الجامعية.

عدتُ إلى مصر التي أكن لها الحب والاعتزاز، فاحتفلت بي سهير كثيرا وقررت أن تقيم فعالية لكتابي "لعنات الحرب" الذي صدر في غيابي، ولكني اعتذرتُ لها لتعبي من الحمل ولرغبتي بقضاء أيام هادئة، وبالفعل قضيتُ أيام هادئة مع أسرتي ومع صديقتي سهير. أقترب موعد الولادة وكنا قد اتفقنا ألا نسعى لمعرفة جنس الجنين حتى ننتظر ما يهب لنا الله وليس ما نتمناه؛ كان إبراهيم قد وعد بالقدوم وكان موعد حضوره كما هو مفترض قبل أسبوع من موعد ولادتي، ولكني عندما شعرتُ باقتراب موعد الولادة اتصلتُ به وقلت له أن لا داعي لقدومه؛ لأني أشعر أني سألد في أي لحظة.

في مساء اليوم التالي حدث ما توقعتُ؛ وذهبنا إلى المستشفى سريعا، ولكن الطبيبة أعلمتني بأن الولادة ستتأخر قليلا، مر وقت متعب وأخير دخلت غرفة الولادة،

بينما أمي وأبي ينتظران في الخارج، وعندما أشتد الألم فتحتُ عيناي لأجد إبراهيم أمامي! توقعتُ أني أحلم فهو في الكويت وأيضا يعلم أني لا أسمح له بدخول غرفة الولادة عندما أنجبتُ فادي، دققتُ فيما أرى، وكان فعلا إبراهيم وعيناه جاحظة من الخوف وهو يسمعني أتألم! صرختُ بقوة:

- إبراهيم لو سمحت أخرج.

وكما يبدو أن صراخي اخرج الجنين بشكل أسهل! فخرجت الممرضة الطفلة وحملتها وهي تضحك ولفّتها بالشاش وأعطتها لوالدها المتسمر عند الباب؛ والذي لم يسعفه الوقت للخروج من غرفة الولادة.

تقدم إلى والفرح يملأ عيناه وقال:

- أنا آسف! أحببتُ فقط أن أُعلمك أني هنا، ولكن يبدو أن هبة ابنتي تريد أن أكون أول من يحتضنها.

وهكذا جاءت هبة بملامح مني وملامح منه كما حلم.. جاءت هبة إضافة مبهجة لأسرتي الصغيرة. لم يكن هناك مجال للراحة فقد بدأ تداول خبر انتشار وباء غريب في الصين –وقد بدأ ينتشر في أنحاء أخرى من العالم أيضا– وأن بعض الدول قد تغلق مطاراتها؛ فعجلنا بالسفر وعدنا إلى الكويت بعد ثلاثة أيام من الولادة.

مع قدوم 2020م بدأت الحياة تصبح غريبة، توقفت الدراسة في جامعة إبراهيم وتحول التدريس عبر الانترنت، فلزم إبراهيم المنزل فلم نعد نخرج؛ ولدت هناء بفترة مقاربة لولادتي وأنضم سامح لأخوته سوسن ومحمود، لم يستطع والديّ هناء العودة

إلى مصر، ولكن كما فهمتُ أن هذا لم يزعجهم، خاصة بعد ان بدأ نديم يحاول الحصول على إقامة دائمة، وهذا ما ناسبهم وخاصة ان عمل الخالة هدى تعثر بسبب الإغلاق إلا من القليل عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ولذا لم يعد وجودها في مصر ضرورة بالنسبة لها.

بدت الحياة غريبة، توقفت الطائرات وعلق الناس في بقاعهم، ولكنها لم تكن غريبة تماما عليّ فقد مررت بهذا النوع من الخوف والتوجس، مررت على هذا التقيد بالحركة والخوف من اللقاءات والاجتماعات، مررت بمنافذ مغلقة وسفر صعب، ولكنه فقط كان ينصب على بلدي الحزين اليمن، وخاصة بداية الحرب حيث "علق" الكثير من اليمنيين الذين كانوا في مهام متنوعة خارج اليمن في بقاعهم ولم يستطيعوا العودة عند إغلاق مطارات اليمن، ولم يستطع الكثير البقاء حيثما كانوا لعدم أحقيتهم بالبقاء من ناحية وعدم قدرة الكثير على تحمل كلفة البقاء لمدة لا يعلمها إلا الله!! كان البعض في مؤتمرات في دول أوربية وكانت أقامتهم مدفوعة لثلاثة أيام فكيف الآن؟

لم يضج العالم يومها ولم يشفق على اليمنيين كما يضج الآن على العالقين من العالم بأكمله! بالعكس أغلقت كل الدول مجالات استقبال اليمنيين الذين كانوا يصلون إلى السعودية بفيز مرور بهدف الوصول إلى أي مكان.

تذكرت هذا وأنا أسمع عن كبرى الدول التي ترسل الطائرات لمواطنيها العالقين في دول أخرى وتعيدهم إلى وطنهم، أي ظلم وقع عليك يا يمن ولم يحرك قادتك ساكنا!! ولم تخف حدة القيد إلا بعد أن عانى العالقون ما عانوه من غربة ويتم وعوز،

فافترش الكثير أرضيات مطارات العالم علّه ينظر لناس يريدون فقط العودة لوطنهم وأسرهم مهما كان الوضع وحشيا هناك والحرب بأشد قوتها.

بدأت سنة 2020م غريبة علينا وعلى العالم بأكمله، غيرت أسلوب حياتنا وممارستنا اليومية وقلصت من اجتماعاتنا وخرجاتنا إلى المطاعم أو أماكن الترفيه؛ لف الرعب العالم وتعلقت الأنظار بإحصائيات عدد المصابين والمتوفيين في كل دولة، وحدها اليمن بقيت خارج القلق العالمي، وتمارس حياتها بنفس النمط مصحوب بخرافة أن ما حدث هو "انتقام الله لليمنيين" وأنهم دون شك سوف يُستثنون من هذا العقاب، بالإضافة إلى أنها محصنة إذ أن أغلب منافذها مغلقة وما كان مفتوح عندها قد أُغلق من الجانب الآخر بسبب الوباء مثل الرحلات إلى مصر والأردن بالدرجة الأولى.

اختفى السلام بالقبلات بين الأصدقاء وحتى السلام باليد أصبح من المحظورات؛ والتقارب النسبي أصبح مصدر رعب، واختفى البشر خلف الكمامات؛ ولأن المال يحكم دائما فقد استغلت كبرى شركات الملابس الوضع وظهرت الكمامات بأشكال زاهية ومتنوعة وطُرحت الفيديوهات في كيفية عمل كمامات منزلية وراجت تجارة لم تكن متوقعة وان توقفت كثير من التجارات على أي حال. انتقل العالم إلى الشراء أيضا اونلاين حتى وصلت للتبضع للحياة اليومية؛ والفائدة الوحيدة من كل ذلك هو توقف حركات السيارات والمصانع وحركات الطيران مما أتاح للطبيعة إعادة التنفس؛ فتقلصت نسبة التلوث بالعالم.

لم تسلم اليمن من وباء كورونا كما توقع الكثير رغم العزل عن العالم الذي تعاني منه، وصل لهم الوباء ولم تصل أيٌ من التجهيزات أو التدابير التي لجأ لها العالم، وصل لها

الوباء فوجد بيئة خصبة للتمدد والانتشار، مرافق صحية متهالكة، اجتماعات يومية وسط غرف مغلقة، شوارع مزدحمة، لا مبالاة كبيرة، فحصد ما حصد، والتهم أول ما التهم الأطباء؛ رحل أفضل الأطباء شبابا كانوا أو كبارا، صال الوباء وجال ومر على الجميع فاكتسبت اليمن بعد استنزاف كبير مناعة القطيع! أخبرنا أخي سمير أنه وزوجته أُصيبوا بالمرض، رغم أنهما احتاطوا لأنفسهم ولم يجتمعوا مع أحد، وكانت إصابة أخي شديدة بينما إصابة زوجته كانت أخف، ولكن –الحمد لله– كلاهما تماثل للشفاء بعد فترة عصيبة ظل فيها ابنتهم وأبنهم – ولد قبل هبة ابنتي بقليل– لدى جدتهما، وامتلأ الفيسبوك بالتعازي اليومية وبالجملة، حتى لم أعُد أظن أن بصيص الحياة ما زال موجودا في اليمن.

رغم كورونا! مفاجأة مفرحة

أخبرتنا ابتسام أنها قررت الزواج رغم ظروف الإغلاق ومنع التجمعات، فأقامت حفلا قاصرا على أهلها وأبناء العريس وهذا ما فضلته اصلا، باركنا لها في لقائنا القصير على الزووم، وتطوعت إحدى شقيقاتها بالتكفل بنقل الحفل مباشرة إلى هواتفنا، شاهدنا ابتسام بفستانها الأبيض الرقيق والبسيط وبجانبها زوجها، كانت الصورة مبهجة وغريبة في آن واحد، سرحتُ إلى أبعد مكان إلى لمتنا في الكلية واجتماعاتنا في منازل بعضنا في ذلك الزمن الذي يبدو وكأنه بعيد وقد مرت عليه دهورٌ مديدة! تذكرتُ ضحكاتنا ومازحتنا لها في خطوبتها السابقة، تذكرتها تخطر بفستانها الأبيض على الممر محفوفة بالورود، من كان يتوقع تلك النهاية لذلك الزواج؟ ومن كان يتوقع نوع الزواج الثاني! أقدار يكتبها الله ونتقبلها على أي حال؛ عشنا معها تفاصيل العقد بالطريقة التركية حيث يحضر القاضي ويمثل أمامه العروسان وتتم إجراءات الزواج أمام الجميع؛ شاهدنا الخالة ليلى والعم أحمد وشقيقتها وأشقاءها وأبناءها وأبناءه...الكل يبدو سعيدا ومبتهجا، والحفل يلفه جوٌ من الود والألفة؛ واستطعنا –بذكاء– التقاط التقارب بين هيام وأكرم ابن عصمت حيث كما يبدو حرصت شقيقتها هيفاء على إبراز ذلك الود الظاهر بينهما عبر تصوير مراسم الحفل.

توالت الأفراح في حياة أسرة ابتسام؛ حيث تم زواج شقيقها من أحد فتيات الأسر النازحة في تركيا والتي تعرف بها منذ فترة قصيرة، وأيضا بحفل بسيط لم نر منه إلا

بعض الصور، كذلك وكما توقعنا تمت خطوبة هيام على أكرم ابن عصمت على أن يتم الزواج والانتقال إلى كندا، وخاصة أن لدى هيام قبول مبدئي للعمل في أحد المراكز في كندا والذي يتم حاليا اونلاين بسبب انتشار الوباء، فتذكرتُ حديث أبي وتوقعه للتوأم بالانتقال إلى أمريكا أو كندا بصفة دائمة.

بدأ إبراهيم يأخذ القلق الذي نقلته له عن عدم وجود أمان في هذا البلد على محمل الجد، لذا عمد إلى تقوية علاقته مع مركز أبحاث في فرنسا والذي ينشر معه بين الحين والأخر مقالات تحليلية عن أحداث سياسية واقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، بخطة ان يقدم طلب للعمل به وخاصة أن عمله الحالي سيكسبه نقاط لصالح الفرصة الجديدة وطلب مني الاحتفاظ بهذا الموضوع حتى تنفرج أمور العالم ونستطلع إمكانية تحقيقه؛ وبسبب توقف الحركة فقد استطعنا أن نجد الوقت الكافي لشؤوننا المعتادة والاهتمام بفادي وهبة التي نالت حب أبيها بشكل كبير، وكذلك عمدت أنا لتقوية لغتي الفرنسية عبر الدراسة أونلاين وبمساعدة إبراهيم الذي كان متمكنا منها إلى درجة جيدة تحسبا للآتي.

فتح العام 2020م والعام 2021م على العالم أفق التواصل عبر تطبيقات الانترنت؛ وأبلغتني دار النشر في لبنان أن فعالية توقيع كتابي الجديد "شتات الترحال" سوف يُقام أونلاين، وهكذا كانت الفعالية مختلفة عن المعتاد حضرها أكثر من 100 شخص من بقاع الأرض ضمتهم شاشة الفعالية، والأروع حضور صديقاتي وأمي وأبي والخالة هدى وأستاذتي ابتهال وكذلك صديقتي سهير؛ وكانت فعالية غنية بالنقاش والمداخلات؛ وكان العميد أيضا متواجدا كصديق وممول للكتاب فحضر من أجله

الكثير من الأدباء والأديبات، ومجموعة متنوعة لا بأس بها من الأدباء من اليمن بعد أن أُعلن عن الفعالية بصفحتي وصفحة إبراهيم وصديقاتي.

أظهرت الفعاليات ضعف الانترنت في اليمن بشكل محزن، حز في نفسي تقطع ظهورهم وصعوبة البقاء لوقت أطول بسبب بطء الانترنت، فكثيرا ما كانت المداخلات من اليمن تأتي متقطعة وأحيانا تختفي تماما من الفعالية؛ وهذا قيّد الحضور الذي يستحقه اليمنيون في هذه الفعاليات والندوات التي أصبحت متنفسا مناسبا جدا لهم إذ أُتيح لهم التحدث إلى العالم ومشاركة أراءهم وأفكارهم بعد طول انعزال بسبب الحرب.

كما أظهرت هذه الفعالية ثقافة الشعوب المختلفة؛ فأغلب الحاضرات اليمنيات كانت تظهر بواجهات مغلقة على صور رمزية وأحيانا أسماء رمزية أيضا، وقليلٌ منهن فقط من ظهرت باسمها؛ بينما لمعت وجوه الحاضرات الأخريات من الدول العربية سواءً بالحضور الشخصي على شاشة الفعالية أو بصور شخصية البعض منهن بالحجاب والبعض دونه. ولكن المداخلات كلها كانت رائعة بما فيها تلك التي طُرحت من اليمن، وكنتُ سعيدة بحضور مشاركين من اليمن لأنها كانت المرة الأولى التي يشاركوني فيها فعالية توقيع كتاب.

مع الأسف مازال مجتمعنا غير متهيئا لتقبل ثقافة النقد وكثير من القيود تمنع الجهر بالانتقاد، فلم أكن أتطرق لهذا التخفي الكبير وعدم الظهور الشخصي لفتيات ونساء اليمن خاصة اللاتي يأخذن حيز كبير في الحياة العملية؛ فثقافة الظهور بشخصية كاملة مازالت ضعيفة وغير مستحبة في اليمن وحتى وسط عائلات سمحت

لبناتها بالدراسة الجامعية والعمل المختلط والالتحاق ببرامج الماجستير والدكتوراه ولكن كشف الوجه ظل خط أحمر حاد؛ رغم أني لاحظت أن الكثيرات يتخلصن من النقاب وأحيانا حتى العباية بمجرد مغادرتهن اليمن بقناعة كاملة وموافقة من أبائهن أو أزواجهن، فمن المتحكم بهذا الوضع باليمن إذن!؟

بعد الفعالية بأيام فاجأتني صديقتي سهير أن هناك طلب لتحويل روايتي التي نشرتها لي "على هامش المجتمع" إلى فيلم! لم أصدق ولم أفهم ماذا سيترتب عليّ! ومرة أخرى شرحت لي بالتفصيل عن جوانب هذا الاستثمار؛ فوجدتُ باب جديد ومصدر مالي جديد ينفتح لي، والأهم وجدتُ أن كتاباتي ستصل مرئية ومسموعة لشريحة واسعة من الناس، وترقبتُ رؤية اسمي على مقدمة الفيلم بفارغ الصبر!

أخذت الكتابة منحى جاد في حياتي، وبدأتُ أكتب أكثر خاصة مع الانغلاق وتقييد الحركة، قرأتُ الكثير من الكتب وسمعتُ كثير من الحكايات عبر اليوتيوب؛ وبدأت كتاباتي تتخذ نهج عالي المستوى؛ ودُعيتُ لندوات عامة متفرقة من جهات عربية متنوعة في فعاليات أدبية ضمن أدباء وأديبات عرب وكلها أونلاين، وظل لي وقتٌ متاح لأولادي ولزوجي ومنزلي، خاصة أن نشاطي من خلال الإنترنت كان أغلبه حر الوقت.

اقترب 2020م من الانتهاء وبدأت الطائرات تشق بحذر عنان السماء التي ظلت في إجازة إجبارية لفترة جيدة، ومنها أيضا تسلل الوباء بقوة أكثر وأكثر إلى اليمن؛ خفّت الاجتماعات اليومية بشكل بسيط إلا أن التقيُد بالتباعد وارتداء الكمامات كان صعبا وشبه مستحيل؛ وما أضعف تلك الاحتياطات والاحترازيات اليومية

القناعة أنها مؤامرة؛ وأن لا وجود لهذا الوباء فعليا رغم بدء ارتفاع حالات الإصابة والوفيات السريعة وسط المجتمع وخاصة شريحة الأطباء.

شغل خبر إنتاج لقاح لهذا المرض كافة منافذ الأخبار؛ وأصبح حديث الناس وازداد التشكك والتيقن بنظرية المؤامرة وبثت فيديوهات تحذيرية – ليلاً ونهارا– يلقيها أطباء من دول مختلفة من اللقاح الذي لم يأخذ فترة تجربة سريرية مناسبة؛ ومع ذلك وعندما بدأت الدول تعطي لقاحات لمواطنيها أصطف الكثير راجيين أن يكون فيه الخلاص من هذا السجن والحظر المغلِف للحياة.. وهكذا بدأ العالم يتنفس مرة أخرى؛ وبدأت تجمعات البشر تشق طريقها إلى الحدائق ومراكز التسوق مع الاحتفاظ بالكمامات والتباعد بين الناس.

أخيراً لقاء طبيعي

دعتنا ابتسام لزيارتها في تركيا والإقامة في منزل زوجها في إنطاكيا؛ كانت دعوتها عفوية صادقة، لا تحتمل الاعتذار. قالت لنا خلال لقائنا على زووم والذي تأخر كثيرا:

- كلنا عانينا ما عانينا في 2020م وتقيدت حركتنا وحركة أولادنا، يجب أن ننطلق ونتنفس ونجتمع حتى نعيد لأنفسنا القوة والأمل بحياة طبيعية.

سكتنا أنا وهناء فترة ندرس العرض الرائع في عقولنا المتعبة، قالت هناء وعيونها تبرق فرحة:

- أنا موافقة وسأسعى للحصول على موافقة زوجي، وسأستطيع تمويل رحلتي من نقودي الخاصة.

وأجبتُ أنا:

- وأنا أيضا محتاجة حد العطش لهذه الرحلة نعم، سأحضر.

وهكذا ودون أي عراقيل –إلا إزعاج عمل فحص كورونا– وجدتُ نفسي أركب الطائرة مع فادي وهبة متوجهين إلى تركيا، وعلى الجانب الآخر كانت هناء تركب الطائرة مع أولادها لنفس الجهة.

وصلتُ إلى مطار إسطنبول قبل وصول هناء، كانت ابتسام باستقبالي، تأملتُها! إنها ابتسام؛ ولكن بشكل مختلف تماما عن ما اعرفه عنها! بدت أنيقة إلى درجة عالية، ملابس رقيقة بسيطة، ولكنها قمة في الأناقة، كسرنا قيود كورونا واحتضنا بعض حضن شمل كل مراحل حياتنا المشتركة... بكت وبكيتُ بصوت مسموع لم نستطع كتمانه، كانت دموع الفرح باللقاء تنهمر دون تحكُم، ولكن عندما سمعتُ بكاء فادي الذي كما يبدو فزع مما رأى، توقفنا ومسحنا دموعنا واحتضنت هي أولادي مرحبة بهما، وانتقلنا إلى إحدى صالات المطار ننتظر هناء التي ستصل بعد ساعتين. ابتسمت لي وقالت:

- نادية، كم أصبحتِ جميلة وأنيقة، أصبحتِ بشخصية أديبة لامعة متألقة، كل شيء فيكِ يوحي بالثقة والنضج.

ابتسمتُ وقلتُ لها:

- هذا ما كنتُ أفكر فيه بخصوصك.

- قطعنا الوقت في أخبار من هنا ومن هناك، وأخبرتني عن عدم اتفاق أخيها مع زوجته وأن الزواج تعثر سريعا – وكنتُ قد سمعت الخبر من أمي– ولكن حصلتُ منها على التفاصيل؛ فأخوها عادت له حالة الوسواس والخوف والشك أنه مراقب ومستهدف، فلزم المنزل وألزم زوجته كذلك، حاولت زوجته إخراجه من هذا الهاجس ولكنه أصر ومنعها من العودة لعملها حتى عندما عادت الأعمال إلى الحضور الفعلي، وتوقف هو بدوره عن العمل تماما، مرت فترة

عصيبة عليه وعلى زوجته التي وجدت أمامها شخص آخر غير ذلك الذي تعرفت عليه.

سكتت ابتسام تسترد ذكرى مؤلمة وقالت:

- ونحن كذلك عانينا معه! وانتهى الأمر باختفائه المفاجئ مع مجموعة من الشباب اليمنيين الذين انتهت مدة إقامتهم في تركيا، فرحلوا دون هدف.

حزنتُ لهذه الأخبار والتي علمتُ عنها لأول مرة، فسألتُها:

- وهل علمتم عنه بعد ذلك؟

ردت:

- نعم، تواصل معنا بعد شهرين؛ وكان أبي وأمي بأسوأ الحالات قلقا عليه؛ وأخبرنا أنه وصل إلى كرواتيا وطمأنهم أنه راضٍ بمكانه، فطلبت الزوجة الطلاق وكان لها ما طلبت وخرجت من التجربة بألم وجرح كبيرين.

وصلت طائرة هناء فذهبنا لاستقبالها وكانت متألقة، تكاد الفرحة تقفز من عيناها، سعيدة بهذا اللقاء غير المتوقع، واجتمعنا ثلاثتنا مرة أخرى، ركبنا سيارة –حرصت ابتسام أن تكون واسعة– لتسع الحقائب ومن أجل راحتنا وراحة الأطفال وانطلقنا إلى إنطاكيا.

لا! ليس لقاء زووم الذي كنتُ أعتز به كثيرا بشبيه باللقاء الحقيقي! كان وجودنا مع بعضنا البعض رائعا وجميلا حمل معه كل عبق الذكريات وعبق الطفولة وباكورة الشباب ونضج السنيين المشتركة؛ وصلنا إلى منزل ابتسام الذي كانت تطلق عليه

لقب المنزل الريفي، فوجدناه فيلا جميلة واسعة بشكل ودود وحصلت كل منا على حجرة وحمام خاص، وهكذا بدأنا إجازتنا التي ستستمر أسبوعين.

كان مُحَمَّد ابن ابتسام قد كبر وأصبح طويل القامة، أخذ الكثير من ملامح أبيه وأخذ من أمه طباعها المرحة، فكان ودودا حنونا، نصّب نفسه قائدا للفريق الصغير يهتم بهم ويشاركهم اهتماماتهم مهما كانت صغيرة؛ بينما كان التوأم عمار وعمر يختلفان في الملامح بلون البشرة، ولكنهم أخذا من أمهم الكثير من الصفات؛ أما سوسن ابنة هناء –أول من فجر إحساس الأمومة في حياتي– فأصبحت طفلة تقارب الصبا وهي بذلك تصغر مُحَمَّد ابن ابتسام بعام، كانت رائعة الجمال وشقية إلى درجة كبيرة، دائمة الحركة وابتكار المقالب كما كانت أمها في صغرها. أما محمود فكان يبلغ من العمر خمس سنوات، صبي ظريف هاديا ومطيع، وكان الأخ الصغير سامح يبلغ العام الأول من عمره، بينما أولادي كانا مازالا صغيرين، فادي يبلغ من العمر ثلاث سنوات، تبلغ هبة من العمر عاما واحدا.

قضينا أيام جميلة وسهرنا الليالي في شرفة المنزل نتحدث عن كل أخبارنا؛ حدثتنا ابتسام عن الزواج من رجل تركي، وكيف وجدت نفسها تقارن حياتها السابقة بالحالية كثيرا في بداية الزواج قبل أن تقرر الإقلاع عن هذه العادة ونسيان الزواج السابق تماما، أخبرتنا كيف يعبر عن حبه لها بالهدايا والمفاجئات الجميلة والتصرفات التي تُظهر الكثير من الحرص والرعاية لها؛ وعن شعورها –مع ذلك– بالخجل لأنها لم تعتد هذه التصرفات ولا تُحسن الرد عليها بشكل عفوي، فقد قيدتها سنين من العلاقة الجادة مع عبد الله زوجها السابق؛ وشاركتنا مخاوفها أن يفهم عصمت من هذا البرود واللامبالاة عدم مبادلتها له الحب.

وقالت:

- أني أخجل من إظهار حبي له، حتى خلافاتنا تنتهي باعتذار وعتاب ووردة وعشاء منزلي جميل، فيصفى القلب ويستمر الود، كانت خلافاتي مع عبد الله تأخذ طريق التجاهل والتغاضي وتجنب النقاش أو العتاب إيثارا للسلامة، كنا فقط نبدأ يومنا التالي بشكل طبيعي دون التطرق للمشكلة وتعتبر محلولة وفقا لما أراده عبد الله، ويبقى القلب محملا بالأسى.

وأخبرتنا هناء أنها أخيرا وجدت في الرسم على الزجاج مبتغاها، وأنها تشعر براحة أثناء الرسم وتضع الكثير من نفسها وأحلامها وتفكيرها به؛ ويسعدها هذا كثيرا وإن لم يفطن الزائرون للمعرض هذه الأشياء كلها بالرسومات.

وحدثتنا عن علاقتها بزوجها وقالت:

- الحياة بالسويد والغربة قاربت بيني وبين زوجي كثيرا، لا توجد جلسات الرجال اليومية كما هو الحال باليمن، لذا لنا نصيب من النزهات مع زوجي، وقد أتاح وجود أبي وأمي بالسويد وان استقلا بمكان خاص بهم أن نخرج أنا ونديم في مناسبات عامة أو خاصة بنا دون الأطفال.

ثم ضحكت وقالت:

- ولكن –مع الأسف– خلافاتنا الصغيرة ما زالت تأخذ طريق التجاهل لكني سأحاول أن أفتح طريق العتاب والنقاش وتصفية القلوب.

وكان دوري كما يبدو، فقلتُ لهن:

- لقد انتظرتُ الشخص الذي سيمسك يدي وقلبي في آن واحد، ويخاطب عقلي ويشاركني أحلامي كما سأشاركه أحلامه، ووجدته في إبراهيم، لفتت نظري شخصيته منذ البداية، ولكني لم أُعجب به فعلا إلا عندما تعرفتُ عليه عن قرب ولم أحبه إلا عندما عشتُ معه... فاق أحلامي عن شريكي تلك التي أخفيتُها في قلبي.

سكتُ وأنا أتذكر إبراهيم وأشعر بشوق للعودة له، سألتني هناء ضاحكة:

- هيا! ماذا عن خلافاتكم، أي نموذج أخذتِ!

سرحتُ أتذكر خلافاتي مع إبراهيم.. كانت قليلة غير عميقة فقلتُ ضاحكة:

- خلافاتنا كانت تنتهي باعتذار أو هدية منه، أو ترتيب رحلة مع صغارنا، وكلها من جانبه بصرف النظر عن من هو المخطئ.. يجب عليّ التنبه لهذا الموضوع! فأنا نادرا ما أعتذر وعليّ تعلُم أن الاعتذار ليس ضعفا ولا يعيب الإنسان إذا كان هو المخطئ.

مرت الأيام الأولى في إنطاكيا جميلة مفعمة بالأنشطة الخاصة بالأطفال حينا والخاصة بنا حينا آخر.

كانت الخطة أن يكون الأسبوع الثاني من إجازتنا هو التعرف على مدينة إسطنبول؛ فعدنا إلى إسطنبول وحجزنا في فندق لكل منا مع أولادها حجرة مستقلة، ما عدا مُحَمَّد الذي فضل العودة إلى منزلهم. زرنا عائلة ابتسام وقضينا وقتا جميلا معهم،

وكانوا في أفضل حال، ولكن ما حدث من نبيل أظهر الحزن محفورا في وجه الخالة ليلى، ولا يطمئنها إلا تلفوناته النادرة جدا.

بدأت رحلتنا في إسطنبول فذهبنا إلى جزر الأميرات وآيا صوفيا والسلطان أحمد تمشينا في شوارع وحواري اسطنبول القديمة وأكلنا في مطاعم متنوعة، شاركنا زوجُها في رحلتنا إلى جزر الأميرات وتعرفنا عليه بشكل جميل؛ خلطنا اللغة العربية مع اللغة الإنجليزية عند تحدثنا معه؛ ولكننا استطعنا التفاهم لأنه على أي حال يتقن اللغة العربية بلهجة مصرية أجنبية ظريفة.

قضينا يومنا الأخير كاملا في اسطنبول في منزل ابتسام، وقدمت لنا طعام الإفطار يمنيا متكاملا، ثم جلسنا على طاولة في شرفة منزلها التي تطل على مضيق البسفور، نشرب قهوة القشر –قهوة من قشر البن– ونتحدث عن أحلامنا التي لا نزال نسعى لتحقيقها، فأخبرتنا هناء أنها تنوي عمل موقع لبيع لوحاتها على نطاق أوسع في السويد أو خارجها، وأن هذا الاستثمار الذي تنوي تحقيقه سوف يساعد في زيادة دخل أسرتها من ناحية ومن ناحية أخرى ستمارس شغفها بالرسم على الزجاج وتطويره. بينما أخبرتنا ابتسام أنها وزوجها قررا فتح فرع متكامل للمدرسة اونلاين، وهذا ما ظهر أهميته انتشار الوباء، وأنهم يجهزون مدرسيهم والمرشحين لتلقي دورات في تصميم المناهج ومهارات التدريس الرقمية؛ كما ستكون شقيقتها هيام مديرة هذا المشروع أثناء إنشائه وقد تعطي من وقتها لإدارته عن بعد حيث إنها مرشحة للعمل بأحد مراكز الذكاء الاصطناعي في كندا؛ وسوف تنتقل إلى هناك بعد الزواج من أكرم ابن عصمت.

وأخبرتهم أنا عن فكرة الذهاب إلى فرنسا –وقد سمح لي إبراهيم بإبلاغهن– وأني لا أعرف ماذا أعمل بجانب عملي ككاتبة روايات؟! فبدأن بطرح الأفكار عليّ منها ما هو واقعي ومنها ما هو خيالي أيضا؛ ولكن إحداهن ذكرت الترجمة، لا أذكر من؟ وكيف بالضبط؟ وكما يبدو أنها خُزنت في عقلي.

انتهى اليوم بوجبة العشاء التركية التي أعدها عصمت زوج ابتسام وانضم معنا في تناولها، وهكذا انتهت إجازتنا، وبقدر حزننا على الفراق الذي لا نعلم إلى متى سيكون اللقاء التالي، بقدر حزن الفريق الصغير على هذا الفراق الذي لم تجد له عقولهم الصغيرة مبرر!

باريس مدينة الجن والملائكة

عندما عدنا استقبلنا في المطار إبراهيم الذي أخذنا بحضنه بلهفة وكأنه عثر علينا بعد ضياع، وأعترف أنه مر بأسبوعين من أصعب الأسابيع في حياته، لم يتحمل غيابنا وغزته هواجس خلفها لنا الوباء، ورغم تواصلنا بداية كل أسبوع من الأسبوعين على الهاتف – وفقا للاتفاق – لم يطمئن علينا إلا عندما ضمتنا شقتنا بين جوانبها. عدتُ لحياتي ويومياتي وكتاباتي المركونة على رفوف مكتبتي والنائمة على جهازي، نفضتُ عنها الكسل وعدتُ أكتب.

وذات يوم عاد إبراهيم من العمل وهو محمل بالهدايا لي وللأولاد ولمنزلنا أيضا الذي أهداه باقة ورد كبيرة، لم أفهم ماذا حدث! كانت عيناه مبتهجتين ويلمع فيهما بريق الفوز، لكنه أصرّ ألا يقُص علينا ما حدث إلا بعد تناول الطعام.

أنهيتُ الطعام سريعا وجلسنا في حجرة الجلوس، انشغل الأولاد بفتح الهدايا وكانت ألعاب لكل منهما فانشغلا باستكشافها، ووضعتُ الشال الجديد المصنوع من الصوف الخفيف ذا اللون الأزرق المفضل لي على كتفي، ونظرتُ إليه استطلع الخبر، فقال لي:

- سيليق بك هذا الشال في باريس زوجتي العزيزة!

لم أفهم! فالخبر كان مبهجا حد عدم التصديق، نظرتُ إليه وأنا أخشى أن يكون ما سمعته مزحة أو دعابة غير مناسبة، وسألتُ:

- ماذا؟ كرر لو سمحت!

قال لي مرة أخرى، ولكن بالفرنسية:

- سيليق بك هذا الشال في باريس زوجتي العزيزة.

وجدت نفسي أبكي، لا أدري لماذا؟! ولكنه كان بكاء الفرح فقد دخلت قلبي بهجة كبيرة دفعة واحدة، نعم، كنت قلقة من وجودنا غير المؤكد في الكويت، خاصة نحن اليمنيين، نعم، تجاهلتُ هذا الخوف، ولكنه كان يزوريني دائما، ويعيد على مسامعي قول جارتي " قد يطردون الشخص حتى دون سابق إنذار".

- احتضنتُ إبراهيم وهمستُ له:

- ألف ألف مبروك حبيبي.

وكأنما الموقف لفت نظر الصغيرين أو أنه أثار حسدهم فقد نهض الاثنان ليلحقا بحضني الذي ضمهم كلهم قرب قلبي.

وهكذا وجدنا أنفسنا نتجهز للسفر إلى فرنسا؛ أهم ما كان في عقد عمل زوجي مع المركز البحثي أن مدته خمس سنوات قابلة للتجديد؛ فأحسستُ أنه آن الأوان أن نستقر قليلا قبل أن نواصل الترحال، ومن ناحية أخرى أحسستُ أن عليّ أن أعمل على البحث عن عمل منذ البداية حتى أجد الطريق الذي يوصلني لعمل مناسب.

"باريس مدينة الجن والملائكة" هكذا استذكرت وصف الكاتب الشهير "طه حسين" لباريس، لم تكن باريس مثل أي مدينة مررت عليها في ترحالي المتوالي منذ بداية الحرب في اليمن، لم تكن تشبه مصر بالتأكيد ولم تشبه الكويت بالطبع، قد تكون لها

من لبنان لمحة لم أستطع تمييزها، ولكنها ظلت هي باريس خارج مقدرة خيالي على تصورها.. تنفست بعمق وأنا في سيارة الأجرة أحتضن ابنتي هبة وبجانبي فادي وبالأمام إبراهيم، تنفستُ بعمق وأنا أدعو الله أن يجعل لنا عمرا جميلا في هذه البلدة الخلابة، تأملتُ شوارعها.. مقاهيها على الشارع مباشرة، والناس الأنيقين الذين مازال الكثير منهم يلبس الكمامات، وجدتُ الجمال في كل مكان، تنفستُ بعمق عدة مرات وأنا أخفف الفزع الذي انتابني هل سنستطيع الاندماج في هذا البلد؟ كنتُ قد قرأتُ الكثير عن فرنسا وعن تاريخها والكثير عن الأدب والروايات، ولكني أيضا قرأتُ عن موقفها من الحجاب وعندما رأيتُ في طريقنا نساء محجبات، نزعتُ عن نفسي القلق وعشتُ بهجة اللحظة.

مرت الأيام الأولى لنا في باريس بطيئة وصعبة، كانت الشقة التي وصلنا لها ضيقة وفي حارة تبدو قديمة، ونوافذها تطل مباشرة على جدران العمارات المجاورة؛ ولكن لا يهم سنُعدل طريقنا، أنها البداية ليس إلا! وأخيرا وبعد مرور أسبوع صعب حتى على الأطفال وخاصة فادي وجدنا شقة مناسبة في حي قريب من عمل إبراهيم، أثثناها بأثاث بسيط وانتظرنا القادم.

استقرت الأمور إلى حد كبير، واستقر إبراهيم في عمله الذي كان يلتزم بحضوره ثلاثة أيام ويعمل اليومين الآخرين من المنزل؛ كانت طبيعة عمله لها شقان أحدها أبحاث مع فريق عن سياسات واقتصاديات الشرق الأوسط والأخر محاضرات لطلبة المعهد لمقرر الثقافات الآسيوية والأفريقية.

وعندما وصلنا لحالة من الاستقرار فاتحتُ إبراهيم برغبتي في عمل شيء آخر غير الكتابة التي تتوقف أحيانا لفترة طويلة لأجد فيها فكرة لرواية جديدة، تناقشنا مع بعض في محاولة إيجاد هذا العمل، وأخبرته بفكرة صديقاتي عن الترجمة، فاستحسن الفكرة ووضعناها قيد الدراسة.

شاركتُ العميد وقد أصبح من الأصدقاء المقربين لي رغبتي بإيجاد مسار آخر للعمل، إلى جانب كتابة الروايات وأخبرته عن حرصي على دعم أسرتي بشكل أكبر من الآن، وعرضتُ عليه فكرة الترجمة؛ وقد رحب كثيرا أولا بفكرة انتقالنا من الكويت إذ لم يستحسن من البداية سفرنا إلى هناك، واستحسن اتجاهنا إلى فرنسا ووعد بدراسة الفكرة ومحاولة الدعم فيها.

بدأتُ على أي حال أقضي وقتي بقراءة الروايات العالمية باللغة الفرنسية وقراءة النقد لهذه الروايات وتطور الأدب الفرنسي بشكل خاص، وتفرغتُ لأولادي ومسؤولياتهم. تأثرت بكثير من الأدباء الفرنسيين وقرأت الكثير من رواياتهم العالمية، أهم الروائيين الفرنسيين الذين قرأت لهم هو فيكتور هوغو، أحد أشهر الروائيين الفرنسيين في كل العصور، وتحتل روايته الفرنسية العظيمة **Notre Dame de Paris** مكانة خاصة. كما قرأت لاميلي نوثومب أشهر رواياتها الفرنسية **Stupeur et Tremblements** والتي تأثرت بها كثير من خلال سردها لحياتها وعملها واحباطاتها ورغبتها بالالتزام بعملها رغم كل شيء. كما قرأت لبينوا بيترز الكاتب والناقد الفرنسي وتعلمت فن النقد الأدبي.

مرت الأيام هادئة، نقضي الوقت في شقتنا الصغيرة ونستغل أي انفراج في قيود الوباء لنخرج للنزهة مع أطفالنا، تجولنا في باريس، زرنا برج أيفل وصعدنا إلى قوس النصر، مشينا في شارع الشانزليزيه وجلسنا على المقاهي الرائعة فيه، وخصصنا وقتا مناسبا لأطفالنا للتنزه في الحدائق الجميلة ومدينة الملاهي وغيرها مما يُفرح الأطفال.

تعرفتُ على جارة لي فرنسية ولكنها بالأصل برازيلية، كانت كبيرة بالسن تسكن مع ابنتها التي تعمل إلى وقت متأخر، فتصادقتُ مع الأم في الخروج لتبضع احتياجات المنزل من المحلات القريبة، وأحيانا لشرب القهوة والدردشة في أمور الحياة؛ حدثتني مطولا كيف انتقلت إلى باريس عندما كانت في العشرين من عمرها، وكيف كانت تجد الأيام صعبة، ولكنها عندما تتذكرها الآن تجدها أبسط مما يعانيه المهاجرون الجدد في هذا الوقت من انعدام الوظائف وغلاء الحياة والعنصرية وغيرها من المشاكل التي كانت أخف في أيام شبابها؛ حدثتني عن بلدها الأصل (البرازيل) التي لم تزرها منذ أن غادرتها ولم تلتق بأهلها أو تلم بأخبارهم إلا عبر مكالمات متباعدة ومختصرة لفترة طويلة قبل أن تظهر الوسائل الحديثة للتواصل؛ كانت دائمة التذكر لزوجها –الذي رحل منذ عام فقط – ومحبتهما القوية لبعضهما التي مكنتهما من تحمل الحياة الصعبة وتجاوزها، حتى نعما بحياة مستقرة هادئة وربيا أولادهم كما تمنيا، ومنهم ابنتها التي تسكن معها وابنان في مدن أخرى من فرنسا. وقالت لي:

- أننا نظن أن الحياة ستستمر كما اعتدناها، لم أكن أتخيل أن أجد نفسي وحيدة وأن يتركني زوجي فجأة، أني الآن أندم على كل لحظة أضعتها في خلافات لا معنى لها معه؛ أندم على وقت كنتُ اعتكف في غرفتي لساعات أشاهد برامجي

الخاصة بالتلفزيون تاركة له وحيدا بالحجرة الثانية، يقرأ او يشاهد برامجه التي لا تعجبني.

سكتت –وقد شرد نظرها إلى بعيد– ثم قالت:

- إن الحياة يا ابنتي مشاركة، أعطي لنفسك مساحة، ولكن لا تسمحين لهذه المساحة أن تتمدد وتأخذ الكثير من العمر، فلا أحد يعرف متى الفراق!.

أفزعني حديثها، ومر من أمام عيناي أمي وأبي وإخواني، صديقاتي وكل جبال بلادي الشاهقة، هل ستتمدد الغربة في حياتي؟ هل سأجد نفسي مرة أخرى في مكان واحد مع أهلي؟ مع صديقاتي؟ أم ستلتهم الغربة سنين عمري دون أن أراهم مرة أخرى!

اعتدت على البلد بسرعة وتعاملتُ بشكل سهل وسلس مع المواصلات، خرجتُ عدة مرات أنا وأبنائي إلى حدائق الأطفال عندما كان زوجي ينشد الهدوء للعمل من المنزل، شاركتُ صديقاتي فيديوهات صورتُها بنفسي لجمال المدينة ونهر السين الذي ينساب بسخاء وسطها، وصورتُ أبنائي صور كثيرة أرسلتها إلى أهلي وأهل إبراهيم متذكرة كلام جارتي عن فائدة هذا التواصل في لم شمل العائلة.

اتصل بي العميد ذات يوم وبعد وقت قصير من تواصلي به؛ ليبلغني بأنه أرسل تزكية عني لدار مجلة أدبية معروفة في باريس؛ وتم نقل التزكية لمكتب متخصص في الدراسات النقدية والترجمة تابع للدار؛ وتمت الموافقة على أن أعمل متطوعة فيه بترجمة الروايات لمدة شهر يمكنني بعدها أن أحصل على العمل إن أجدته.

أخذتُ ما قاله لي، ودخلتُ حجرتي وأخذتُ أفكر، هل فعلا أستطيع العمل كمترجمة أدبية؟ هل أستطيع العمل في بلد غريب وثقافة لا أعرفها؟ هل سأتقن عملي أم سأُخيب ظن العميد وأحرج نفسي؟ توالت الأسئلة في عقلي دون جواب! ولكني حصلت على كل الأجوبة من إبراهيم الذي ابتهج بهذه الفرصة وسهلها لي

ودعم ثقتي بنفسي حتى بدأتُ أستعد للذهاب للعمل بحماس كبير. قضيت الأيام التالية أقرأ بنهم أسس الترجمة، والنقد للقصص المترجمة، كما قرأت روايات بالفرنسية وقرأت ترجمتها للعربية مثل رواية "فرنسا العجوز" لروجيه مارتن ورواية "مرحبا أيها الحزن" لفرنسواز ساغان وغيرها.

تواصل معي المكتب بعد شهر تقريبا من مكالمة العميد، برسالة على البريد الإلكتروني وحدد لي موعد للذهاب إلى المكتب ومقابلة المديرة؛ ذهبت في اليوم المحدد إلى المكتب الذي كان ضمن مبنى كبير في أحد الشوارع الرئيسية في باريس في الطابق الخامس، وصلت إليه واكتشفتُ أن الطابق بأكمله للمكتب، دخلتُ وأنا ما زلتُ خائفة من التجربة! أنا نادية المرأة اليمنية البسيطة سوف أعمل في مكتب ترجمة في باريس؟ لو أن أحدا قال لي هذا وأنا في اليمن لضحكتُ من خيال هذا المتحدث، ولوصفتُه بالمجنون! كيف يمكن لي العمل في باريس فمهما ناشدتُ يومها أن أكون أديبة أظل محدودة الخبرة ولا أتخيل نفسي في نطاق عالمي هكذا!.

دخلتُ المكتب متوجسة، ولكن ظهرت لي من الوهلة الأولى صورة ودودة جدا لفتاة الاستعلامات تتحدث مع أحد الأشخاص بلغة عربية ذات لهجة لبنانية، فأحسستُ بالراحة وانسابت اللهجة مألوفة ومحببة إلى قلبي، تعرفتُ عليها وكانت تُدعى ميسون وأعطتني مقدمة مختصرة عن المكتب وأخبرتني أن هناك خمسة موظفين هم طاقم العمل في المكتب، وان مديرة المكتب امرأة فرنسية حازمة وشديدة الطباع وهي بالواقع إحدى الأديبات الفرنسيات المعروفات، كما أخبرتني أن عليّ التعرف عليها وعلى النائب واسمه جلال وهو لبناني الجنسية.

السيد راين

كانت أول مهمة لي هي التعرف على السيدة مديرة المكتب – وكنتُ أشعر أنها المهمة الأصعب– فكلما كانت هذه المقابلة جيدة كلما ضمنت الحصول على عمل في هذا المكان الجميل والأكثر من رائع، جلستُ في قاعة مخصصة للانتظار وأمامي الواجهة الزجاجية التي تحتل الجدار كامل ومنها يظهر الشارع أسفل حيث تزدحم حركة السيارات وعبور المشاة في مشهد جميل ومنظم، طال انتظاري وتأملتُ حركة الموظفين والموظفات؛ حركة سريعة الكل مستعجل والكل مشغول، وسرحتُ أتذكر عملي بالمجلة في اليمن وحركة الموظفين والموظفات، ضحكاتهم مع بعضهم، والحجة آمنة تسير بخطواتها المتمهلة وبيدها فناجين القهوة توزعها على الموظفين وتوزع معها دعاباتها تارة ودعواتها تارة أخرى، أحن لك يا يمن، أحن لتلك الحياة التي تشبهنا، أحن لبلد تعرف من أنا، وأعرف من هي!.

سمعتُ اسمي بتلك اللكنة الأجنبية فتنبهتُ لحالي، ونفضت تلك الذكريات، لا، لا وقت للذكريات، يجب أن أكون حاضرة الذهن غير شاردة، لا وقت للشرود والعيش بالذكريات! دخلتُ مكتب السيدة إنجيلا، وكانت عكس ما توقعت، ودودة لطيفة وأنيقة الملبس والخلق، تحدثت عن اليمن بشكل أذهلني، كانت واسعة الاطلاع على تاريخ اليمن والثقافات المتعددة التي مرت عليها وتطرقت إلى الوضع الحالي بشيء من الحزن، ومرت على لبنان عشقها الدائم كما قالت، وتم تعارفنا بشكل جميل. وهكذا خرجتُ بانطباع جيد ودفعة من الود والألفة –فكرتُ أنها ربما

تكون شديدة في عملها وهذا لا يعيبها– أعطتني إحساس بالألفة وقليل من الثقة حيث تحدثت عني كشابة مثابرة ومجتهدة وتستحق الحصول على دعم حتى تمضي بنجاح في حياتها، فأحسستُ أني في أيدي أمينة ومقدرة لخطواتي البسيطة في عالم الأدب الكبير، وأحسستُ أني سأجد العون، ولكن عليّ العمل والاجتهاد حتى استحقه؛ فهنا بلدٌ لا تتحمل التكاسل.

وهكذا انتهت مقابلتي مع مديرة المكتب بشكل جيد؛ ثم كان عليّ إجراء مقابلة أخرى مع النائب؛ وبعد تعارفنا وتقديم ملفي له؛ استغرق وقتا قليلا في الاطلاع عليه، ثم ابتسم وقال:

- لقد أخبرني الدكتور عنك وعن رواياتك، لذا ستكون أول رواية تُترجم للفرنسية هي رواية "شتات الترحال" روايتك أنتِ.

خرجتُ من المقابلة مسرورة، فمن ناحية ارتحت لجو العمل في المكتب، ومن ناحية أخرى سُررتُ أن تكون أول مهمة لي هي ترجمة روايتي مما سيسهل عليّ العمل إلى درجة كبيرة؛ حيث يفضل عند الترجمة أن يكون المترجم على صلة بالكاتب –إذا كان على قيد الحياة– وعلى اطلاع واسع لرواياته وتاريخه – إذا كان الكاتب متوفى؛ وهكذا بدأتُ عملي بحماس شديد.

أخبرتُ جارتي الفرنسية عن وضعي الجديد بفرحة كبيرة، فجاءت مع ابنتها في يوم الإجازة الأسبوعية ومعها باقة ورد وطبق جهزته بنفسها عبارة عن أكله برازيلية اسمها (الموكيوكا) وهي عبارة عن حساء سمك لذيذ للغاية، ويتكون من السمك والمأكولات البحرية الأخرى المغلية مع شرائح الطماطم والكزبرة والبصل، وطبق

آخر عبارة عن حلوى اسمها (الكويندیم) نالت أعجاب فادي وهبة كثيرا. وهكذا جلسنا كلنا نأكل في جلسة عائلية جميلة، وأبدت استعدادها للاهتمام بفادي وهبة عندما احتاج وقت للتركيز على عملي.

كان لابد من اجتماع موظفي المكتب لاتخاذ قرار العمل على ترجمة روايتي، وتم تحديد الموعد مباشرة في اليوم التالي؛ فتجهزتُ للاجتماع بكثير من التوتر والقلق، قرأتُ روايتي عدة مرات؛ وتدربتُ على تقديم نفسي بشكل واضح ومختصر، حددتُ أهداف الرواية وحفظتُ شرح أهمية ترجمتها؛ لأن ميسون كانت قد أسرت لي أن هذا سيكون أهم سؤال في الاجتماع، وقد شكرتها كثيرا؛ لأني فعلا لم أستطع توقُع محتوى الاجتماع.

تواجدت في المكتب قبل الموعد بنصف ساعة وانتظرت وأنا أحاول تخفيف القلق داخلي.. ماذا لو لم أقنعهم بأهمية ترجمة روايتي؟ ماذا لو خسرتُ هذه الفرصة التي اعتبرها الفرصة الوحيدة للعمل هنا؟! دخلنا كلنا بالموعد المحدد إلى قاعة الاجتماعات والتي كان لها إطلالة على بارك كبير؛ ركزتُ على البارك في محاولة لتخفيف التوتر، فشاهدتُ الأشجار العالية والمساحات الخضراء ولمحتُ من هذا الارتفاع بشرا يتجولون بين ممرات البارك متمهلين، وآخرين يسرعون على ممرات المشاة، أمام واجهات المحلات والسيارات التي تقل بشر مسرعين أكثر.. وهذه هي الحياة بكل تنوعاتها وتشكيلاتها.

أعدت نفسي من هذه الصورة بفزع إلى قاعة الاجتماع بمجرد دخول المديرة، جلس الجميع وبدأ الاجتماع بتعريفي لنفسي بكلمات موجزة، ثم عرف الآخرون بأنفسهم

أيضا، وكان الاجتماع يضم الموظفين الخمسة؛ ومن خلال التعريف عرفتُ أن المديرة السيدة إنجيلا أديبة كبيرة لها روايات تُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة، ويتركز نشاطها مؤخرا على أعمال المكتب كما تعمل على تأليف رواية جديدة لا يتم الإفصاح عن محتواها؛ ونائبها الأستاذ جلال اللبناني الجنسية أديب أيضا له روايات محدودة ولكنه يعمل في الترجمة، ومن ثم ألين وهي شابة فرنسية خريجة حديثا ومهتمة بالأدب الشرقي وتتقن اللغة العربية بلهجة أجنبية، طويلة ورشيقة؛ شخصيتها مرحة جدا؛ ولها خطط كثيرة لمستقبلها، وأشادت المديرة بجهودها متوقعة لها مستقبل مشرق، وبعدها السيد راين وهو رجل يقترب من الستين أبيض الشعر بشرته بيضاء وعيناه خضراء لم أستطع معرفة جنسيته، ربما فرنسي من أصل إيطالي، يميل إلى الصمت والتأمل لما حوله بشكل دائم، وعرفتُ أن له نشاط أدبي مميز وكذلك كتب نقد لروايات كثيرة؛ ويهتم بنقد الروايات التاريخية؛ وصدر له مؤخرا مجلد كبير بهذا الشأن حقق له شهرة كبيرة في باريس، وأخيرا جان وهو فرنسي من أصل أفريقي ربما في الثلاثين من عمره تقريبا طويل وله جسم رياضي يميل للضخامة، وهو أديب له عدة مؤلفات وكنت أنا العضو السادس في الاجتماع؛ ولم تكن موظفة الاستعلام ميسون تشاركنا هذه الاجتماعات.

ومن ثم جاء وقت السؤال المتوقع "لماذا تعتقدين أن روايتكِ تستحق الترجمة"، فقلتُ:

- أنا كاتبة من اليمن، لدي عدد من المؤلفات تحاول أن تضع نبض فئات من المجتمع على الورق ضمن قصص خيالية بسردها، ولكنها واقعية بأحداثها ومعاناتها.

سكتُ قليلا وأنا أجول بنظري على الجميع –كما نصحني إبراهيم– ومن نظراتهم استمدتُ الكثير من الثقة، وأكملتُ بصوت –حاولت بصعوبة أن أجعله هادئا– فالجراح في أعماقي كانت تنكشُ مسببة لي ألم وحرقة:

- أنا من اليمن ذلك البلد المجروح، ولكني كتبتُ عن معاناة النساء في كثير من المدن وليس في اليمن فقط؛ فالبشر يتشابهون في الهموم وفي الأحلام، ويشتركون في القدرات والاهتمامات، يتشابهون كثيرا مهما اختلفت تلك الأرض التي تضمهم؛ أن روايتي هي مزج بين معاناة البشر وصور من الترحال والهجرات المتتالية التي قد تكون طريق الكثير منهم لمحاولة الحصول على حياة أفضل من تلك التي يعيشونها؛ هجرات أُجبر البشر على السير فيها، سحبتهم من أرضهم سحبا دون أن يعلموا لماذا؟ رحيل اضطراري جرف الكثير عن مرافئ بلادهم تعطلت المنارات، ففقدوا اتجاهاتهم نحو بلادهم. لذا أجد أنه سيكون من الجيد قراءتها باللغة الفرنسية، على اعتبار أن الهجرات سلوك بشري منذ الأزل، ونهج أتخذه الأنسان للبحث عن الأفضل.

سكتُ، فقوبلتُ بتصفيق رقيق من المديرة تبعها البقية بشكل ودود والكل ينظر إليّ بتشجيع، دار النقاش بشكل ودي، وتحمست الكاتبة الين كثيرا وعبرت عن رغبتها أن تكون القارئة الأولى لمسودة الترجمة، وشارك الجميع بالنقاش وعبر البعض عن أن الهجرة أصبحت ممارسة دائمة أما إرادية بهدف البحث عن جديد أفضل، أو اضطرارية بسبب الحروب والنزاعات. لاحظتُ أن السيد راين لم يشارك في النقاش بشيء، واكتفى بابتسامات باهتة عندما ترتفع حدة النقاش، وكما يبدو أن تصرفه هذا كان غير معتاد ولفت نظر المديرة فسألته:

- ما هو رأيك سيد راين؟

أجاب بكلمات مقتضبة:

- لم أكوّن رأيا بعد.

شعرتُ بالقلق فهو ناقد كبير؛ وقد يكوّن رأيا أن الرواية غير جديرة بالترجمة، نصبتُ له العداء وأحسستُ أني قد أواجه صعوبة في هذا المكتب بسببه.

أنهينا الاجتماع وتفرقنا في أرجاء المكتب وذهبت إلى استراحة الموظفين وهي حجرة صغيرة مرتبة تحتوي على معدات صنع القهوة وتحتوي على مطبخ صغير بكل محتوياته اللازمة، كما تحتوي الحجرة على ثلاث طاولات مع كراسيها. صنعتُ لنفسي القهوة وجلست أعيد بخيالي أول لقاء عمل لي في باريس، قطع حبل أفكاري صوت يلقي التحية باللغة الفرنسية، رفعتُ رأسي لأجد السيد راين يقف أمامي ويحمل نفس تلك الابتسامة الباهتة، توقف قلبي لثواني وشعرتُ أنه جاء ينسف أحلامي بكلمة! ولكني أجبتُ على التحية وقلتُ له بالفرنسية:

- تفضل أستاذ راين.

جلس وقال باللغة العربية وبلهجة يمنية لا يرقى لها الشك:

- بالواقع اسمي ريان وليس راين، لا أدري متى لصق بي هذا الاسم وتُعوِدَ عليه.

صُعقتُ من هول المفاجأة وترددتُ قبل أن أسأل:

- هل أنت يمني؟ فهكذا تبدو لهجتك؟

فقال ضاحكا:

- ومن صنعاء القديمة بالتحديد، أنا يمني الأصل أبا عن جد كما يقال، ولكن فروعي ليست يمنية –مع الأسف– لا أولادي ولا أحفادي.

فقلتُ له:

- لما؟ هل عشت هنا منذ زمن؟

فقال:

- نعم، أتيتُ للدراسة هنا وأنا شاب في الثامنة عشر من العمر، ودرستُ أدب فرنسي، أكملتُ دراستي ولم أرغب بالعودة؛ تعلقتُ بكل شيء هنا، أحببتُ باريس وشوارعها وحواريها ونهر السين المتدفق، أحببتُ حدائقها ومتنفساتها وبرج أيفل وناسها ولم أستطع حتى التفكير بمغادرتها، وكنت أبرر لنفسي ماذا سأعمل في اليمن؟ وما هو العمل الذي سيحتاج للغة الفرنسية؟ لذا بحثتُ بمجرد تخرجي عن أي عمل يضمن لي البقاء والعيش هنا فحصلتُ مباشرة على عدة أعمال بسيطة هنا وهناك وكانت البداية.

سكت يلتقط أنفاسه وقد اضطرب صوته وقال:

- يا إلهي أني لم أتحدث باللهجة اليمنية منذ زمن طويل، هل ما زالت سليمة؟

فقلتُ له – وقد لاحظت اختلاط الكلمات الفرنسية بحديثه واستعارة عبارات باللهجة اللبنانية:

- نعم، ما زالت تبدو يمنية نوعا ما.

وضحكنا، سكت وتأملني قائلا:

- بعدها سرتُ بنفس الطريق الذي تسيرين فيه، وجدتُ عمل في مكتب ترجمة واستثمرت لغتي العربية أولا وعملت بجد في ذلك المكتب، تعرفتُ على زوجتي ماريا وقد كانت زميلة لي بالكلية وتزوجنا وأكملت هي دراستها فأصبحت أستاذة في الجامعة؛ وتخصصتُ أنا بالنقد والترجمة فأخذتُ دراسات متقدمة في النقد والتحليل، فسار أغلب عملي في النقد والقليل في الترجمة، لكنها أصبحت ترجمة للغات متعددة غير العربية، لأني أتقنت فيما بعد اللغة الإنجليزية والألمانية إلى جانب الفرنسية.

سكت قليلا وسرح بعيدا؛ فسكتُ احتراما لما يدور في خياله من ذكريات، ثم عاد وقال:

- لدي ابنة هي وحيدتي من البنات سميتُها سارة وهي متزوجة حديثا وحامل، وولدان هم جوزف وسام وجميعهم انهوا الجامعة وتزوجوا ويعملون في وظائف مختلفة؛ ولي من كل منهم حفيدان تتراوح أعمارهم ما بين السابعة والثالثة.

نظرتُ إليه، كانت هالة الحزن تعبر ملامحه، سألتُه:

- الم تعد إلى اليمن في وقتٍ ما؟

رد:

- عندما أنهيتُ الدراسة وعملتُ لمدة عامين، كنتُ مخططا أن أعود وأتزوج ومن ثم أفكر إذا كان عليّ العودة إلى فرنسا أم البقاء باليمن، وقبل أن أنفذ هذه الخطة مات أبي وأمي واثنتان من شقيقاتي في حادث سير بطريق سفر، وبقي أخي الذي عانى من اكتئاب حاد، ولم أستطع بعد هذا الحادث أن أفكر بالعودة لليمن وعلى العكس شجعتُ أخي على القدوم بأي طريقة إلى فرنسا، ولكنه فضل الهجرة إلى أمريكا وتم له ذلك بعد عام من الحادث، وهناك تزوج من فتاة يمنية وكوّن أسرة وهو الخيط الوحيد الذي يذكرني أني يمني رغم أن حديثنا على الهاتف أصبح باللغة الإنجليزية.

مسح وجهه بيديه وهو يحاول أن يُزيل مرارة الذكرى رغم مرور السنين؛ وقال:

- انغمستُ في الحياة هنا وضاعت ملامح بلادي من خيالي، ليس لدي أصدقاء يمنيون؛ لا أدري لماذا؟ وتقطعت أواصر صداقاتي القديمة، كأني حمّلت اليمن مسؤولية الحادث التي أودت بحياة أسرتي! وكان انتقامي هو البعد عن كل ما هو يمني باستثناء علاقتي مع شقيقي.

سكت قليل وأكمل:

- هالني وسحبني إلى الماضي أخبار اليمن هذه الأيام...الحرب وأهوالها، قرأتُها بقلبٍ محب، ولكني لم أستطع أن أشرح هذا الحب لأولادي، لم تعُد اليمن بالنسبة لهم إلا موطن أجدادهم لأبيهم، حتى أنا سلخوني منها، لا ألومهم؛ فأنا من سلخ نفسه منذ البداية.

ثم أكمل حديثه مستغربا:

- ولكن أي رياح أتت بكِ إلى هنا؟ لقد توقعتُ أنكِ هندية، لأن ملامحك ممكن أن تكون هندية وخاصة أن الهنود المسلمين يمكن أن يسموا بناتهم نادية، لم أصدق مسمعي عندما عرفتِ نفسك بقولك " أنا كاتبة من اليمن" هزني تعريفك بقوة، من اليمن!؟ لا أحد في المكتب يعرف أني من اليمن، لا أحد هنا يسأل من أين أتيت، فالكثير كما قلتِ جاءوا من هجرات واستوطنوا هنا، وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا "فرنسيين"، فأي طريق أوصلكِ إلى هنا؟.

ضحكتُ وقصصتُ عليه بشكل مختصر ترحالي المتتالي؛ وفي الأخير اتفقنا على لقاء عائلي قريبا؛ كما طلب مني روايتي ليقرأها باللغة العربية، وتمنى لي عملا موفقا.

عكفت على ترجمة روايتي بتأني وجهد كبيران، أبهجني تحول ما كتبت إلى لغة أخرى، إلى أناس أخرين، إلى قراء لم أضعهم يوما ما ضمن من سيقرأون لي. مر الشهر بسرعة وأنجزتُ العمل رغم مسؤولياتي مع فادي وهبة والحياة الجديدة، وكان عمل إبراهيم ليومين من المنزل دور كبير في مساعدتي بهذه المسؤوليات، فتم العمل بأفضل صورة. تم توزيع مسودة الترجمة على أعضاء المكتب، وعقدنا اجتماع للمناقشة وأخذت الملاحظات وعدت أعمل عليها، شجعني السيد رأين على استشارته بما أعجز عنه، وهكذا أنهيت الترجمة واجيزت من فريق المكتب ومن ثم طبعت الرواية بحلة جميلة عليها أسمي ككاتبة وأسمي كمترجمة، وحصلتُ على التقدير من ناحيتين الأول نشر روايتي مترجمة للفرنسية والثاني حصولي على العمل.

مرت الشهور هادئة نعمل فيها ونتعرف على البلد، ونتابع أخبار اليمن التي تتأرجح مرة وسط الأمل ومرات عديدة وسط العدم! كانت بيئة العمل بالمكتب جميلة والجو

مشع بالزمالة والصداقة، ولم يكن يعكر هذا الجمال إلا إذا انزعجت المديرة من عمل أحدٍ منا فينتشر القلق للجميع، وكان دوامي في المكتب يومين فقط وبقية الأيام من المنزل بسبب قيود الوباء الذي ما زال يتأرجح بين الانتشار والانحسار.

وكنت أتواصل مع صديقاتي بنفس الطريقة المعتادة عبر زووم، ونتحدث عن أخبارنا وعرفتُ أن هناء نفذت فكرتها وأنشأت حساب على الإنستغرام للترويج للوحاتها، أما ابتسام فقد نفذت مشروع التدريس عبر الانترنت واضطرت لتحمل مسؤولية الموقع لانشغال شقيقتها في عملها الأساسي بعد أن قامت بتدريبها وتعليمها كيفية إدارة المشروع وكيفية التعامل مع التكنولوجيا المساعدة، فاكتسبت الكثير من المهارات والخبرات، وكنتُ أنا أيضا أعيش شغفي في الكتابة بالعمل مع المكتب والدار اللبنانية التي اقترحت عليّ مسار جديد بكتابة قصص تتم وقائعها في حقب زمنية قديمة بهدف عرض التاريخ القديم من خلال الروايات. طلبتُ أن أبدأ بالحقبة الزمنية القديمة لليمن وتمت الموافقة؛ فشققتُ لنفسي مسار دراسة التاريخ اليمني والتعمق فيه وتواصلتُ مع أساتذة التاريخ اليمني الذين ساعدتني بالوصول إليهم – وبتحديد مع من منهم يجب ان اتواصل – دكتورتي ابتهال، وبالطبع كان زوجها واحد منهم فهو دكتور في التاريخ؛ فتعاون معي إلى درجة كبيرة سعيدا للعودة إلى شغفه في التاريخ والعصور التاريخية القديمة بعد طول انقطاع وسكون مبكر لنشاطه وعمله. فصّل لي أهم العصور ووعدني بتدقيق الأحداث التاريخية، واقترح عليّ أن أكتب ثلاث روايات تمت في عصور متلاحقة، حيث يمكن أن أكتب رواية تمت في أحد العصور الوسطى في اليمن ويمكن أن تكون الدولة الصليحية زمن حدوثها، ثم

رواية تمت في أحد عصور التاريخ الحديث لليمن ويمكن أن تكون الدولة العثمانية زمن أحداثها والثالثة تتم أحداثها في زمن دولة الأمامة.

وحدثتني أستاذتي أن أمورها قد استقرت في كندا؛ فابنها الكبير يعمل بينما الآخر يدرس علوم سياسية في أحد الكليات – وكما يبدو أن هذا التخصص أصبح شغف الجيل الجديد لمحاولة معرفة ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟– أما ابنتها فقد دفعها رد الفعل على منشوراتها لتوقيف كافة أنشطتها السابقة؛ وقررت أن تبدأ الدراسة من الصفر حيث ستدرس القانون لتمارس (المحاماة) وقد درست اللغة الإنجليزية لمدة سنة والآن بدأت مسيرة برنامج المحاماة.

قرر المكتب البدء بمشروع جديد وهو إعداد كتاب نقدي أدبي لمجموعة قصص عالمية حديثة ورُشحتُ للعمل ضمن الفريق برئاسة نائب المديرة، وبذا تثبتُ بالعمل في المكتب لعقد مدته ثلاث سنوات قابل للتجديد؛ وزاد راتبي بشكل جيد، فأحسستُ بالأمان لوجود عمل دائم لفترة طويلة، إلى جانب العمل في كتابة الروايات التاريخية لدار النشر اللبناني.

مكننا دخلنا أنا وإبراهيم بالانتقال إلى بيت مستقل صغير له حديقة خلفية حوّلتُها إلى مكان جميل للجلوس فيه؛ فزرعتُ الكثير من الأزهار ووضعتُ طاولة حديقة مع كراسيها وفوقها مظلة كبيرة قابلة للطي تُظلل جزءاً كبيرا من حديقتي الصغيرة بحيث يتمكن أولادي من اللعب بحرية، كما اشترينا أول سيارة لنا، وكانت هذه أول مرة نمتلك منزلا وسيارة؛ أول مرة أعيش فرحة تأثيث منزل بكثير من الراحة؛ أول مرة أجهز حجرة فادي وهبة كما لم أتخيلها في حياتي... كنتُ سعيدة بمنزلي الجديد

وعملي، وكان إبراهيم أيضا سعيدا بعمله وقد حاز على سمعة جيدة واسم بدأ يكسب صيت عند الطلبة والمهتمين بالمجال السياسي والاقتصادي.

بعد فترة تلقينا من السيد ريان وزوجته دعوة لزيارتهم، تجهزنا للزيارة التي لا أدري لماذا سببت لي مزيج من التوتر والترقب! ربما لأن إبراهيم كان أيضا مهتما ومسرور من هذه الدعوة والتعرُف على السيد ريان وعائلته. ألبستُ فادي وهبة أحلى ما لديهم ومررنا في طريقنا إلى منزلهم لشراء علبة الشكولاتة – والتي حرصت أن تكون من تلك الشكولاتة المعروفة – وصلنا إلى العنوان الذي قادتنا له خريطة قوقل، فظهر لنا منزلٌ جميلٌ كبيرٌ نسبيا وله مدخل مصمم بشكل أنيق.

استقبلتنا الأسرة كاملة – السيد راين وزوجته ماريا والأبناء جوزف وسام والابنة سارة– فكان استقبال حميم ومبهج أعاد لي دفء العائلة وبهجة اللمة وكانت زوجات الأولاد وزوج سارة ينتظروننا في أحد الصالونات بالداخل بينما الأطفال الأربعة يجرون هنا وهناك.

بعد الترحيب المعتاد جلسنا في صالة الجلوس صالة كبيرة تحتوي على اثنين من الصالونات وطاولة طعام كبيرة وأثاثها يميل إلى البساطة والأناقة واللوحات معلقة على الجدران بينما استقرت كثير من صور العائلة فوق الطاولات المحملة بتحف منتقاة بشكل في غاية الجمال.

أشدتُ بجمال البيت وأناقته، فشرحت لي مضيفتي بعض المعلومات عن اللوحات المعلقة وقمنا بتأمُلها ثم حدثتني ونحن ننتقل بين التحف عن بعض من تاريخها؛

تأملتُ الصور العائلية وكانت أكبرها صورة للسيد راين مع أسرته (والديه وأخوته) وهو في باكورة الشباب.

انتقلنا بعدها إلى طاولة الطعام ودار الحديث المعتاد عن طبيعة عمل كل منا والهوايات وأمور الأطفال وغيرها. وعندما انتهينا من تناول الطعام انتقلنا لشرب القهوة على الشرفة الأرضية المرتفعة قليلا والمطلة على الحديقة الخلفية.. جلست سارة بقربي وتبادلنا الحديث فقالت ببهجة:

- أني مسرورة أن أقابل سيدة يمنية اليوم؛ لطالما فكرت كيف سيكون شعوري لو صادفت امرأة يمنية؟

فردت عليها والدتها قائلة:

- الحقيقة أني شعرت بالندم لأني لم أحدث الأولاد عن أصولهم وبلدهم– ليس تعمدا– ولكن الحياة جرفتنا ولم يمر بنا موقف يذكرنا بما لم نقم به! هذه أول مرة ألتقي بعائلة يمنية.

ضحك جوزف وقال:

- ونحن ساهمنا بهذا التجاهل فها نحن الآن قد كبرنا ويمكننا معرفة ما نريد، ولكننا لم نقم بشيء!.

فردت سارة بفرح:

- أنا أعرف كلمتين "السلام عليكم" والتي يرددها أبي دائما و"حبيبتي" التي يناديني أبي بها عندما يكون راضيا عني.

ضحكنا كلنا؛ وعادت سارة توجه لي أسئلة عن اليمن والعادات والتقاليد؛ وسمعتُ السيد ريان يقول لزوجي هامسا بالعربية "هل يزعجك أن ننتقل إلى الجلسة في الحديقة؟ أرغب أن أتحدث معك باللغة العربية " فرد زوجي " بكل سرور". ونهضا معا للجلسة على الطاولة الأخرى التي تقع أمامنا في الحديقة.

انشغلنا بحديث ممتع بينما فادي وجد له صحبة وهبة تحاول السير وتقوم بخطواتها الأولى، وكان إبراهيم والسيد ريان منسجمين بحديث يبدو طويلا.. وهكذا انقضت ساعة في جلستنا بعد العشاء، فاستأذنتُ ونهضنا مودعين أصحابنا الجدد على أمل لقاء قريب في بيتنا.

في سيارتنا وعند العودة للمنزل، بدا لي إبراهيم مشغول البال، فسألتُه عن ما دار بينه وبين السيد ريان، فقال:

- لقد تحدثنا عن اليمن والحرب في البداية وقد ضاعت لهجته مع اللهجة اللبنانية والكلمات الفرنسية– وهذا كما يبدو اكتشاف أحزنه كثيرا.

سكت إبراهيم مسترجعا الحوار الذي دار بينه وبين السيد ريان ثم أكمل قائلا:

- وبعدها قص لي كيف سارت حياته، وأن الله أنعم عليه بزوجته ماريا التي عملت على تخفيف الحزن الكبير الذي عاشه بموت أبويه وشقيقاته، وأنه لا يخالجه أي ندم فقد حصل على حياة جميلة وأولاد قاموا بتربيتهم تربية جيدة فبقيت أواصر العائلة موجودة إذ يحرصون دائما على الزيارة وربط أطفالهم –الأحفاد– بهم.

فقلتُ لإبراهيم:

- فعلا، تبدو أسرة مترابطة.

فرد إبراهيم:

- نعم، لقد نجح في حياته لكنه –مع الأسف– أعتقد أن لقاءه بكِ وسماعه لحديثكِ في الاجتماع عن روايتك عن النساء اليمنيات وعن اليمن قد صدمه وكشف له كيف تخلى عن بلده دون مبرر!

وأكمل إبراهيم:

- لقد قال لي بحسرة "لما لم أفكر أن اكتب عن العادات والتقاليد في اليمن؟ أو أرشح رواية يمنية للترجمة؟ لما لم أزور اليمن في حياتي ولم أُشرِكُها في تفاصيل تربية الأولاد؟! ضاعت مني في وقت ما والمخيف أني لم أتنبه إلا "الآن"!.

ساد الصمت في السيارة بقية الطريق، إلا من صوت فادي وهو يحاول شرح شيء ما لأخته وهم على كراسي الأطفال بالمقعد الخلفي، نظر إليهم أبوهم وسمع فادي يحدث أخته بكلمات فرنسية، فقال:

- يجب أن ننتبه حتى لا نكرر هذه الغلطة ونندم بعد فوات الأوان.

وأخيرا تحقق الحلم،،،،،،،،،

دعونا أسرة السيد ريان لمنزلنا وحرصتُ أن اصبغ اجتماعنا في منزلي بالجو اليمني بشكل لطيف ودون مبالغة قدر المستطاع؛ قرر إبراهيم لبس الزي اليمني (الذي أهدته لنا صديقتي في الكويت) وعندما أخبر السيد ريان بذلك أصر أن يوفر له زيا مماثلا –إذا أمكن– وكان له ما أراد خاصة أن طوله مقارب لطول إبراهيم، بينما لبستُ أنا عباية مطرزة تطريزا خفيفا أخذتُها من الكويت واكتفيتُ بهذا.

استأذنت السيدة ماريا زوجة ريان أن تُحضر معها جليسة الأطفال لرعاية الأحفاد، لم أمانع ذلك.. قمتُ باستئجار طاولتين مستطيلتين وجمعتهما معا وفرشتهما بغطاء أبيض خاص بالموائد ووضعتهما في الحديقة الخلفية، حيث المساحة مناسبة لذلك؛ واشتريتُ طقم كبير من الأكواب؛ لأن ما أملكه مُعدا لستة أشخاص فقط.

وصل أصدقاؤنا بالموعد المحدد، ذهب السيد ريان إلى الطابق الأعلى وارتدى الزي اليمني مع الجنبية ونزل مسرورا، فلاقى استحسان وبهجة من زوجته وأبنائه.

تعمدت أن أُعِدُ طبقين يمنيين فقط هما (الشفوت وبنت الصحن) وبقية الأكل مما هو معتاد، وأعددتُ من الحلوى (الرواني) وهي الحلوى الأكثر شهرة في صنعاء، وقد أبهجت السيد ريان وأخبرنا كم كان يحبها، حتى أنه طلب ما تبقي منها لأخذه معه، فوعدتُه بعمل صحن جديد وإرساله له.

وبعد تناول الطعام وتبادل الأحاديث المتنوعة، انتقلنا إلى صالة الجلوس، وقام زوجي بربط حاسوبه بآلة العرض –وكان طلب خاص من السيد ريان– وعرض علينا مجموعة من صور اليمن من خلال شاشة كبيرة يستخدمها عادة في عمله؛ وقدم شرح مختصر عن تلك الصور المتنوعة لليمن؛ وبعد العرض فتحتُ شريط لأغاني فيروز بصوت هادئ، فسألتني سارة إذا ما كانت هذه أغاني يمنية ؟ فأخبرتُها أنها لفيروز لبنانية، ولكنها أشهر المطربات العربيات فقالت فجأة وبحماس:

- نريد منكِ أن تغني لنا أغنية يمنية!

وافقها الكل وبدأوا بالهتاف تأييدا لهذا المقترح؛ ورغم أني لم أغن من قبل في حياتي، إلا إني أحببت أن أقابل حماسهم بالموافقة. أغلقتُ أغاني فيروز، واستعددتُ.. سكت الجميع ومر بذاكرتي أغنية خالتي هاجر، فاخترتُها دون تردد:

"يا قمري صنعاء مالك لا تزعل ريح بالك
الدنيا حقك ملكك حتى قلبي مملوك لك
من غيّر طبعك عني وأنت الي ما تتغير
من حوّل قلبك مني من ؟"

صاح الجميع معبرا عن جمال صوتي، بينما ظهرت على إبراهيم ملامح الذهول فأنا لم أغن أمامه – من قبل– مطلقا! وقبل أن أكمل المقطع التالي، نهض السيد ريان مغادرا إلى الحديقة الخلفية، وصمتنا وعلا الوجوم وجوه ضيوفي، نهضت سارة مسرعة تريد أن تلحق أباها، ولكن والدتها أوقفتها برقة مبتسمة وقالت:

- أبوك لا يعاني سوءً يا سارة، فقط صدمته الذكريات! فدعيه مع نفسه قليلا، لا ضرر من ذلك.

جلست سارة والحزن بادٍ على وجهها، فارتبكتُ وقمتُ أعد القهوة، لحق بي جوزف وقال لي:

- أني أعرف كيف أبهج أبي، ولكن هل يزعجك بعض الأسئلة الخاصة؟

رددتُ:

- لا، أبدا يمكن لك السؤال عن ما تريد.

أبتسم وخرج، وعندما قدمت القهوة، أخذ إبراهيم كوبين وخرج إلى حيث يجلس السيد ريان وحيدا. تركنا لهم دقائق من الوقت قبل أن ينفذ جوزف فكرته.. ثم طلب منّا أخذا أكوابنا والانضمام لإبراهيم والسيد ريان في الحديقة وهذا ما كنتُ أنا مخططة له بتناول القهوة في الحديقة.

ذهبنا للانضمام لهم ولم نتطرق لأي مما حدث بالداخل، وقال جوزف وقد وقف أمامنا:

- لدي خطة مناسبة لما قد نكون خسرناه من كوننا نسينا أننا فرنسيون ويمنيون بنفس الوقت.

سكت برهة متأملا الوجوه ومركزا على والده ثم أكمل:

- ولكن هل يمكن أن أسال السيدة نادية بعض الأسئلة؟

أومأتُ برأسي موافقة، فبدأ أسئلته ودار بيننا الحوار على النحو التالي:

- عفوا سيدة نادية هل تعلمتِ الفرنسية منذ الصغر؟
- لا، انما منذ بضعة سنوات.
- هل كان تعلُمها صعبا؟
- لا، لم أجد صعوبة كبيرة، ولقد استمتعتُ وأنا أتعلم لغة جديدة.
- ماذا كان الهدف؟
- النجاح في مقررات كانت مطلوبة مني في الماجستير.
- هل استفدتِ بعدها من اللغة الفرنسية؟
- بالطبع؛ لولا تعلُمها وإجادتها لما حصلتُ على العمل عندما انتقلنا إلى هنا.
- شكرا.

وبعدها جلس وقال:

- هذه هي الخلاصة؛ السيدة نادية أجادت الفرنسية رغم أنها لم تتعلمها منذ الصغر، وكان هدفها فقط تجاوز مقررات وان استفادت منها فيما بعد؛ إذا يمكن لنا الان تعلُم العربية من الدورات على الانترنت، وهي لغة تتحدث بها الكثير من الدول وسيعود ذلك علينا بالفائدة مستقبلا! من يدري؟ فالسيدة نادية لم تكن تتوقع الانتقال إلى فرنسا عندما حرصت على إجادة اللغة الفرنسية.

نال حديثه تصفيقٌ حار من الجميع؛ وشارك كل من زوجات الأبناء وزوج سارة الحماس لهذا المشروع –كما أسماه جوزف– ورغبتهم بالانضمام إليه، كما فرحت السيدة ماريا موضحة أن هذا سيعفيها من الذنب لعدم اهتمامها بهذا الموضوع، ولمعت عينا السيد رايان بالفرحة لاهتمام أولاده بهذا الموضوع.

وشاركتنا سارة بنيتها تسمية ابنتها القادمة اسم يمني، فاقترح عليها ابيها اسم "صفية" وهو اسم والدته، وهو أيضا اسم منتشر في اليمن خاصة في الأجيال السابقة، أُعجبت سارة بالاسم وتخيلت كيف سيكون الاسم المحبب "صافي" سهل النطق من الفرنسيون. شارفت الساعة على التاسعة ليلا، وانتهت جلستنا ونهض ضيوفنا مودعين، وقال لي السيد ريان باللغة العربية:

- معذرة إن كنتُ سببتُ لك ارتباك! وبالواقع لديك صوت شجي جدا أعادني بقوة إلى حيث عشتُ طفولتي وباكورة شبابي.

فقلتُ له:

- لا بأس، أنا التي عليها الاعتذار.

اهدينا الثوب اليمني للسيد ريان وخاصة ان الثوب كان ما يزال جديد فسرر لذلك كثيرا، أغلقتُ الباب خلف ضيوفنا، وعدنا إلى حيث كان فادي وهبة يلعبان، وسألتُ إبراهيم:

- ما رأيك؟ كيف كان اللقاء؟

فأجاب وهو يضحك:

- رائع، ولكن الأروع الجديد هو صوتك! كيف لم أعلم هذه المعلومة من قبل؟

فضحتُ وقلتُ صادقة:

- حتى أنا لم أعرف أني أجيد الغناء، يبدو أنه وراثي!.

فأستغرب وأجاب:

- كيف؟

فجلسنا وقصصتُ عليه ما كان من خالتي هاجر وأمي، ثم تطرقنا لجلستنا اليوم وكيف أننا حصلنا على صداقة أسرة كبيرة.

استدعتني المديرة فذهبت وأنا آمل ألا يكون السبب مشكلة بالعمل، دخلتُ مكتبها فبادرتني بقولها:

- المكتب سيقيم الأمسية الثقافية المعتاد عملها سنويا لعرض أنشطة المكتب خلال العام، ستكون بداية العام الجديد 2022م وهناك بالطبع فقرة خاصة عن روايتكِ التي ترجمتِها.

سررتُ بالخبر كثير وسألتُها عما سيترتب عليّ تحضيره، فقالت:

- الاستعداد بشكل جيد؛ لأنها أمسية مهمة للترويج لأعمال المكتب، يجب أن تحضري مقدمة جيدة للرواية وأن تذكري تلك الأسباب التي ذكرتِها في أول تعريف لك للرواية، فقد كانت رائعة.

فرحتُ بهذا الكلام ووعدتها بالتحضير بشكل جيد، وأخذتُ منها الكثير من التعليمات والإرشادات التي سجلتُها على جهازي المحمول الذي صار رفيقا لعملي، وانصرفت.

جاء الثلج وغطى البلد باللون الأبيض، ورغم تعودي على الثلج منذ كنتُ في بيروت إلا أني لم أجده رائعا كما هو هنا، بالواقع لقد استقر قلبي هنا أكثر من أي مكان رحلتُ إليه منذ أن غادرت اليمن؛ ربما لأنه المكان الوحيد الذي عملتُ به واختلطتُ بأهله بشكل يومي... ربما لأننا تعرفنا على ناس عرب وفرنسيين وصاروا لنا أصدقاء نزورهم ويزورنا... وربما لأن ابني فادي بدأ أول مراحل الدراسة، أو لأني راقبتُ الثلج وهو ينزل برفق في حديقة منزلي فغطى الحشيش والأزهار وأعطى جمال جديد رائع ومهيب.

وهكذا هطلت الثلوج بشكل مستمر بداية شهر ديسمبر ولبست باريس أزياءها من الأضواء ونُصِبت شجرة الميلاد في كل مكان استعدادا لرأس السنة، فزادت الثلج جمالا وهيبة.

وبهذا الجو الجميل، أصرت عائلة السيد ريان أن نقضي أول أسبوع من ديسمبر معهم في مسكنهم في أحد أرياف باريس ولم يقبلوا بأي اعتذار، فحزمنا القليل من أغراضنا وذهبنا إلى منزلهم حيث وضعنا سيارتنا وذهبنا بالحافلة الخاصة بهم؛ وكان معنا من أولادهم جوزف وسارة بينما كان سام يقضي الإجازة مع أهل زوجته.

وصلنا إلى منزلهم وكان عبارة عن فيلا صغيرة مرتبة بشكل جيد؛ وحصلنا على غرفة خاصة بنا وبدأنا إجازتنا بطريقة لم أألفها في حياتي؛ كان القرار أن اترك رعاية الأولاد

لجليسة الأطفال التي تهتم بأولاد جوزف واستعد للبرنامج الذي تضمن التزحلق على الثلج وهو ما لم أمارسه في حياتي من قبل؛ فاعتذرتُ لهم وقلتُ:

- لم أمارس التزلج مطلقا، ولا أعتقد أني سأجيد ذلك، سأكتفي بالمتابعة مع سارة (التي لن تشترك بسبب حملها).

فأصرت زوجة جوزيف أن تكون معلمتي في هذا النشاط وهذا ما كان؛ استغرقتُ وقتا طويلا حتى استطعت التخلص من الخوف والتمكن قليلا من التزحلق، بينما كان إبراهيم أفضل مني؛ لأنه تعوّد على هذه الرياضة عندما كان يمارسها في بيروت قبل الزواج.

وهكذا تنوعت الأنشطة خلال هذا الأسبوع الذي أطلقوا عليه "الترحيب بقدوم الثلج" ففي اليوم الأول كان التزحلق، وفي اليوم الثاني تسلقنا بكثير من الحرص الجبال الثلجية مستخدمين العصي المساعدة... ومرت بقية الأيام في نشاط وحيوية؛ ولم تشاركنا سارة الأنشطة الصعبة بسبب ثقل حملها، واكتفت بمشاركتنا الأنشطة التي تمت في المنزل والتي توزعت بين الألعاب الورقية المتنوعة والمسابقات المختلفة التي لم أتخيل أن العائلة يمكن أن تلعبها وتستمتع بها بهذا القدر. كنت أراقب الأسرة الأم والأب والأولاد وهم يعلبون مع بعضهم البعض بشكل رائع، لا يتقيدوا بتلك التقاليد التي تضع الأبوين في خانة صارمة خاصة عندما يكبر الأولاد، فتقل الأنشطة التي يشتركوا فيها كعائلة.

كان اليوم الأخير مجهزا لنشاط جديد على الثلج، ولكن البرنامج تغيّر تماما، فقُرب مساء ذلك اليوم تعالى صراخ سارة وبدأت استعدادها لاستقبال المولود الأول. عدنا

مسرعين إلى باريس، وذهبت عائلة السيد ريان سريعا مع سارة إلى المستشفى، وعدنا إلى منزلنا، وما هي إلا ثلاث ساعات حتى علمنا أن "صفية" وصلت.

أنتهى عام 2021م ودخل العام الجديد 2022م وأقترب موعد الأمسية الثقافية، شعرت أني على بعد خطوات من تحقيق حلمي، وربما أتجاوز ذلك الحلم الصغير الذي كان منذ ما يتجاوز العشر سنوات، شعرت ان الحياة تهب لي فرصة يجب ان احرص عليها واجيد إنجاحها. شاركت صديقاتي تلك الأخبار وشاركيني أخبارهن، كل منا تسعى في حياتها، تتعثر أحيانا بتعثرات الحياة وتنجح في تجاوزها وتواصل المسير نحو ما نحب ونحو الأمل والرجاء. أمي وأبي استقروا في مصر وتكررت زياراتهم لليمن كلما اتيحت الظروف، وكذلك هم أهل إبراهيم، وما زلنا نحاول الحصول لهم على زيارة لنا.

بدأت الاستعداد للأمسية الثقافية بحماس كبير؛ شاركني إبراهيم كافة الاستعدادات وتدربتُ على الإلقاء والمناقشة وكان إبراهيم يلعب دور أحد الحضور يسأل ويعلق وأنا أتدرب على الرد والحوار. كنت أخشى ان تكون الفقرة الخاصة بي ضعيفة لا ترقى للفقرات الأخرى لزملائي.

عبرتُ عن هذا القلق للسيد راين، فطلب من المديرة عمل تهيئة لي عن طريق إقامة تجربة للفقرة الخاصة بي في المكتب، وبالفعل تم عمل هذه التجربة قبل الأمسية بيومين، وتعرضتُ لكثير من الأسئلة وتقديم الشروح لبعض أحداث الرواية، وفي نهاية التجربة قال لي السيد راين ضاحكا بالفرنسية:

- ممتاز لقد كنتِ جيدة جدا –وعلى أي حال– ما تم بالتجربة هو مبالغة لا تحدث عادة في الحقيقية، ولكننا حرصنا على ضخ الأسئلة لإكسابكِ ثقة.

ثم قال بالعربي:

- أفتخر بكِ كثيرا! كنتِ رائعة.

وضحك...وفعلا اكتسبتُ شيء من الثقة فالأمسية مهمة وكبيرة وانتظرتُ اليوم الموعود.

أُقيمت الأمسية في أحد قاعات النادي الثقافية المجهزة بشكل عالٍ، ولم تكن مفتوحة للعامة فالدعوات أُرسلت لأشخاص محددين ومختارين بعناية من المهتمين بأعمال وأنشطة المكتب، ومن المهتمين بالأدب الشرقي والمعنيين بأمور الهجرة والمهاجرين، وبعض المهتمين بالسياسة في المنطقة الأسيوية والأفريقية، وقد عرف إبراهيم أسماء البعض منهم من ذوي الباع الطويل بالشئون الأسيوية، ففرح للتعرف عليهم شخصيا، ولكني شعرتُ بالقلق منهم ولم أستطع تهدئة نفسي بأي طريقة!.

وهكذا بدأت الأمسية بتقديم أعمال المكتب المتنوعة، والتي قدمها وعرضها كل من كان المسؤول الأول عن العمل، وتابعت أسئلة الحاضرين واستفساراتهم والتدقيق على الجدوى من كل عمل من هذه الأعمال، وترقبت دوري بكثير من القلق. ووصلنا للفقرة الخاصة بي، وجدت نفسي أجلس على طاولة وبجانبي السيدة إنجيلا والسيد راين واثنان من الأدباء من ضيوف الشرف، ومن أمامي يجلس الحضور ومن ضمنهم في الصف الأول إبراهيم مع رئيس المكتب الذي يعمل فيه، والسيدة ماريا

ومعهم سارة –التي استعادت صحتها كما يبدو سريعا– وجوزف وسام، وقد بعث لي وجودهم طمأنينة عميقة.

بدأت فقرتي بالتعريف بي من قِبل مديرة المكتب السيدة إنجيلا ثم ألقى واحد من الأدباء كلمة عن أهمية أدب المهاجرين ورصد معاناتهم وبالتالي أهمية الترجمة، وبعدها بدأتُ أسرد الهدف من روايتي والجوانب الإنسانية فيها؛ كانت مداخلة السيد راين ردا على بعض الاستفسارات رائعة حيث وضح بشكل سليم ضرورة اعتبار روايتي صورة حية من الواقع لمعاناة المهاجرين وخاصة المهاجرات النساء، وقد قام بتحليل منطقي لسرد الأحداث ثم وضح بأسلوب نقدي نقاط القوة في روايتي... وهكذا أعطيتُ للحضور فرصة المناقشة والأسئلة التي لم تُوجه كلها لي، ولكن أيضا للمديرة وللسيد راين وكذلك لمسؤول المهاجرين ورأيه فيما تم سرده من أحداث في الرواية، أنهيت الإجابة على الأسئلة والاستفسارات، وحظيتُ بتصفيق حار، وأشاد الكثير بجمال السرد والوصف لمعاناة البشر في روايتي، ونصح أحدهم بمواصلة ترجمة رواياتي الأخرى، ووجدتُ نفسي أعيش حلم فاق ذلك الحلم الوليد الذي نمى معي وسار في طريقي وخفت أحيانا بين الأحداث التي عشتها؛ ولكنه اليوم ظهر وفي صورة رائعة لم احلم أني سأكون فيها في يوما ما. أخذت الأمسية ساعتين كاملتين، وكانت فقرتي هي الأخيرة، أعلنت بعدها المديرة انتهاء الأمسية موجهة الشكر لنا جميعا ومعلنة بدء جلسة التعارف، تنقلنا جميعا –أعضاء المكتب– بين الحضور وتحدثت أنا إلى شخصيات كبيرة وسمعت كثير من الثناء على روايتي.

سعدت بهذه الأمسية التي أعطتني جرعة كبيرة من الحماس والنشاط، فهل أصبحت كاتبة؟! نعم أصبحت كاتبة وروائية باعتراف هذا الحضور المميز في عالم الأدب،

ونعم سأكتب عنك يا وطني، عن تاريخك، عن حاضرك وسأكون نبضك ونبض لمعاناتك. وما نزال كلنا نأمل ان تتوقف الحرب وأن يسود اليمن السلام والأمان، ما نزال كلنا نبني لنا عودة أكيدة إلى أحضان الوطن، وما نزال نخبر أولادنا عن اليمن وربوع اليمن ونخبرهم عن حب مزروع بالأعماق. وسأظل أسجل في ذاكرتي موعدا للعودة ينبض كل حينا وأخر ويذكرني بقول شاعرنا الكبير عبد العزيز المقالح:

"يوماً تغنى في منافينا القدر
لابد من صنعاء وإن طال السفر
لابد منها.. حبنا أشواقها
تذوى حوالينا إلى أين المفر؟
إنَّا حملنا حزنها وجراحها
تحت الجفون فأورقت وزكا الثمر
هي لحن غربتنا ولون حديثنا
وصلاتنا عبر المناجم والسهر"